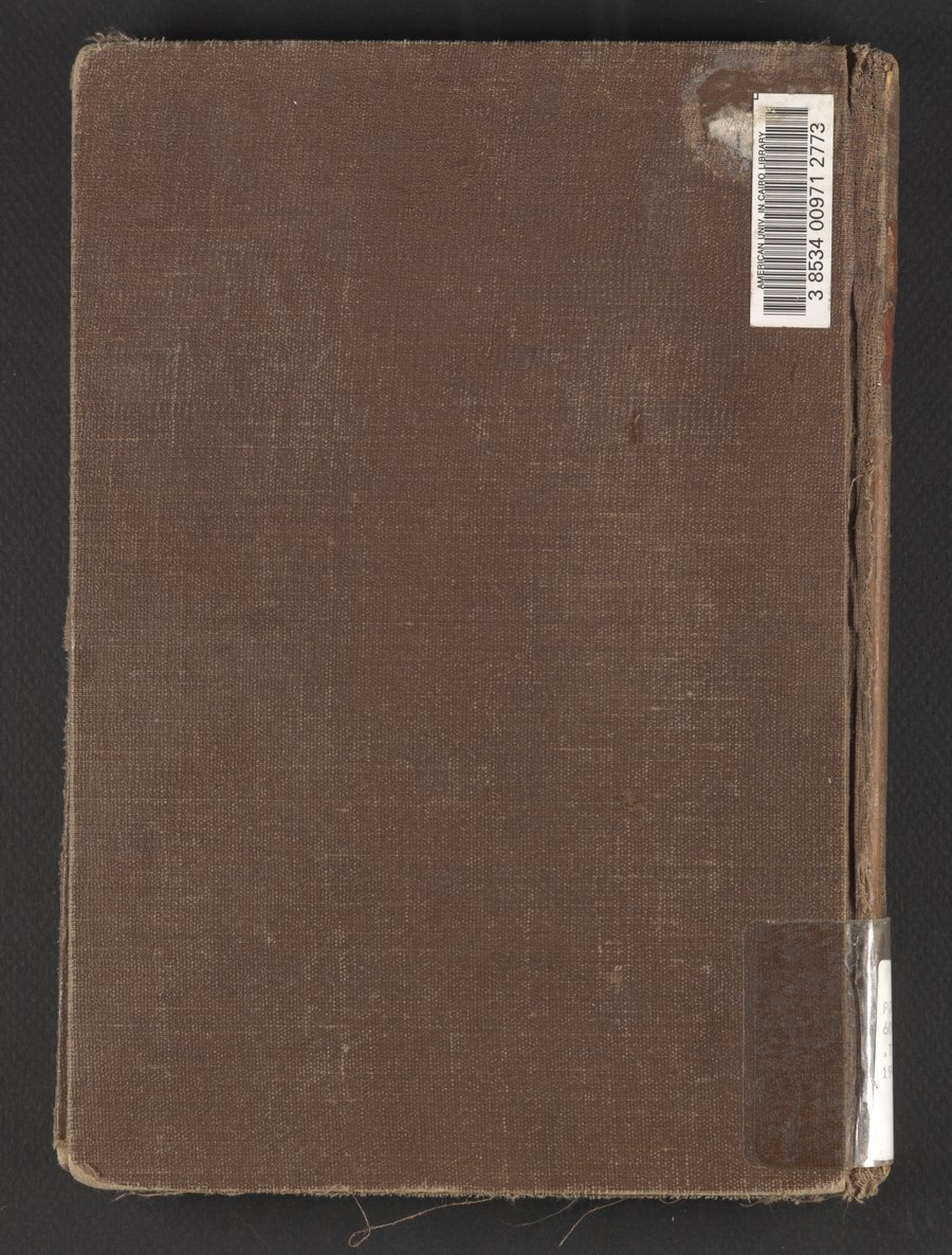

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00971 2773

الجامعة الأزهرية – كلية اللغة العربية

نشـــأة النحو

وتاريخ أشهر النحاة

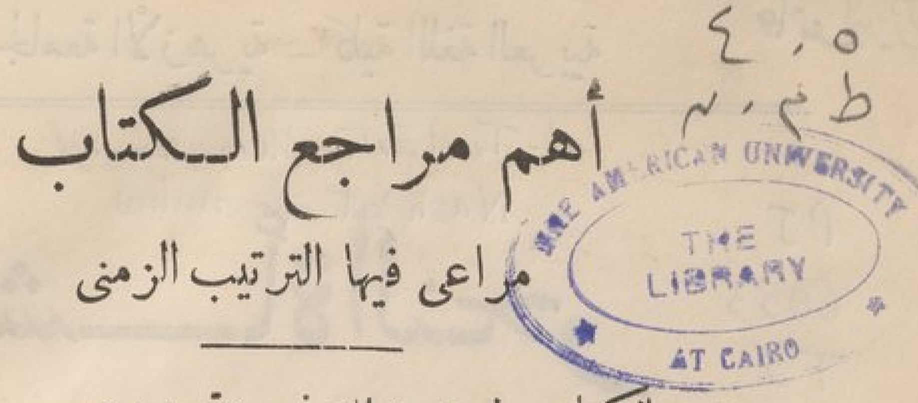
تأليف

الاستاذ الشيخ محمد الطنطاوى
المدرس بكلية اللغة العربية

الطبعة الثالثـــة

١٣٦٧ هـ – ١٩٤٧ م

مطبعة وادى الملوك
بأول شارع البرمونى رقم ٤ بمصر



أهم مراجع الكتاب

مراعى فيها الترتيب الزمنى

---

١ ـــ الكتاب . لسيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ

٢ ـــ أدب الكاتب ، وعيون الأخبار ، والشعر والشعراء . لابن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦ هـ

٣ ـــ الكامل . لأبى العباس المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وشرحه رغبة الآمل . للمرصفى المتوفى سنة ١٣٤٩ هـ

٤ ـــ الأمالى . لأبى القاسم الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ

٥ ـــ مراتب النحويين . لأبى الطيب عبد الواحد اللغوى . المتوفى سنة ٣٥١ هـ مخطوط بالخزانة التيمورية رقم ١٤٢٥

٦ ـــ أخبار النحويين البصريين . للسيرافي المتوفي سنة ٣٦٨ هـ

٧ ـــ طبقات النحويين واللغويين من البصريين والكوفيين . للزُبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ

٨ ـــ التصحيف والتحريف . لأبى أحمد العسكرى المتوفي سنة ٣٨٢ هـ

٩ ـــ الفهرست . لابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ هـ

١٠ ـــ الخصائص . لأبى الفتح بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ

١١ ـــ الصاحبي . لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ

١٢ ـــ تاريخ بغداد . للخطيب المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

١٣ ـــ المفصل . للزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، وشرحه لابن يعيش المتوفى سنة ٦٤٣ هـ

١٤ — نزهة الألبا فى طبقات الادبا (النحاة) ، والانصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين . لكمال الدين الأنبارى المتوفي سنة ٥٧٧ ﻫ

١٥ — التبيان شرح ديوان المتنبي . لأبى البقاء العكبرى المتوفى سنة ٦١٦ ﻫ

١٦ — معجم الادباء ، ومعجم البلدان . لياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ ﻫ

١٧ — الكافية ، والشافية . لابن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ وشروحهما وحواشيهما

١٨ — الألفية لابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ ﻫ وشروحها وحواشيها

١٩ — وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ ﻫ ، وفوات الوفيات . لابن شاكر المتوفى سنة ٧٦٤ ﻫ

٢٠ — أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المتوفي سنة ٧٦١ ﻫ وشروحهما وحواشيهما

٢١ — المقدمة . لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ ﻫ

٢٢ — الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ ﻫ

٢٣ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . للسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ ﻫ

٢٤ — الاقتراح فى أصول النحو ، وهمع الهوامع على جمع الجوامع ، والأشباه والنظائر ، والمزهر ، وبغية الوعاه فى طبقات

اللغويين والنحاه ، وحسن المحاضره فى أخبار مصر والقاهره .
للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ

٢٥ — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . المقّرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

٢٦ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب . لابن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ

٢٧ — خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب شرح شواهد الرضى على الكافية، وشرح شواهد شرحى الشافية للرضى والجاربردى .
كلاهما للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ

٢٨ — خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر . المحبي المتوفى سنة ١١١١ هـ

٢٩ — عجائب الآثار فى التراجم والأخبار . للجبرتى المتوفى سنة ١٢٤٠ هـ

٣٠ — البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع . للشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل الكتاب ، على خير الخلق وأفصح من نطق بالضاد ، صلاة الله وسلامه عليه وعلى عِترته الأمجاد ، وأصحابه الألى بذلوا مهجهم في سُوح الجهاد ، فنالوا الزلفى عند ربهم يوم التناد .

وبعد فإن علم النحو من أسمى العلوم قدراً ، وأنفعها أثراً ، به يتثقف أودُ اللسان ويسْلس عِنان البيان ، وقيمة المرء فيما تحت طىّ لسانه لا طيلسانه ، ولقد صدق إسحق بن خلف البهرانى فى قوله

النحو يبْسُط من لسان الألكن والمرءُ تكرمه إذا لم يلْحن
وإذا طلبتَ من العلوم أجلها فأجلُها منها مقيم الألسُن[1]

وبه يسلم الكتاب والسنة من عادية اللحن والتحريف ، وهما موئل الدين وذخيرة المسلمين ، فكان تدوينه عملاً مبروراً ، وسعياً فى سبيل الدين مشكوراً

وبه يستبين سبيل العلوم على تنوع مقاصدها ، وتفاوق ثمارها ، فان الطالب لا يسلكها على هدى وبصيرة إلا إذا كان على جدّ من هذا العلم موفور ، على أن المتحادثين في أى جزئية علمية إنما يعتمدان عليه فى تحديد المعنى الذى يتحادثان بشأنه فهو الذريعة لتقريب تفاهمهما ، وأداة الحكم الصحيح بينهما ، قال ابن خلدون (إذ به يتبين أصول المقاصد بالدلالة

---

(١) راجع البيتين فى عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان الأعراب واللحن) مجلد ٢ ص ١٥٧ ، والكامل مع الرغبة ج ٤ ص ١٣٢ ، والعقد الفريد (كتاب الياقوتة فى العلم والأدب باب فى الاعراب واللحن) ج ٢ ص ٤٧٩ طبع اللجنة ، ومعجم الأدباء الفصل الأول فضل الأدب بعد مقدمة الكتاب ج ١ ص ٨٥

فيعرف الفاعل من المفعول والمبتدأ من الخبر ، ولولاه لجهل أصل الافادة)[١]

وإن من يحاول إقامة الدليل على فضله بالبرهان كان كمن يتكلفه على إشراق الشمس وضياء النهار — فلذا قدر المؤرخون للنحويين جهودهم ، ورفعوا لهم أعلام الحمد ، وخلدوهم فى صحائفهم بمداد التبجيل والتكريم .

وخليق بمن يَدْلِف إلى روضة هذا الفن النضير أن يعرف سبب وضعه ، وكيف نشأ ، والمراحل التى اجتازها حتى استوى قائماً — وأن يقف على تاريخ مشاهير رجاله الذين عبّدوا منهجه ، وأقاموا صُوى الهداية على حفافيه خوف الدثور والضلال ، وعلى طبقاتهم فى عصورهم المختلفة وأوطانهم المتغايرة ، وعلى ماشجر بينهم من خلاف فى الآراء رغبة منهم فى استكناه الحقيقة — وأن يُلِم بمؤلفات هذا الفن الكثيرة ، وبتنوع اتجاهاتها ، وبترتيبها الزمنى ، وبالصلة بينها نقلا أو تعليقاً أو نقداً ، ففى الحق أن هذا العلم قد أربى على سائر العلوم فى مصنفاته .

لقد غبر كثير من طلابه يدرسونه آماداً متطاولة ونفوسهم توّاقة إلى تعرف هذه النواحى التى لاينتظمها سفر خاص ، بل تشتتت فى بطون الكتب ، فلا تنال منها إلا بشق الأنفس

هذا الذى حفزنى إلى وضع هذا الكتاب ، والله أستعين فى السداد والتوفيق .

---

(١) المقدمة ، الفصل السادس فى العلوم الخ ، فصل فى علوم اللسان العربى

تمهيد

نشأت اللغة العربيـة فى أحضان جزيرة العرب خالصـة لأبنائها مذ ولدت ، نقية سليمة مما يَشينها من أدران اللغات الاخرى

لبثت كذلك أحقاباً مديدة كان العرب فيها يغدون ويروحون داخل بلادهم على ماهم عليه من شَظَف العيش ، غـير متطلعين إلى نعيم الحياة وزخارفها فيما حولهم من بلاد فارس والروم وغيرها ، وإن دفعتهم الحاجة اليها حيناً وتبادل المنافع حيناً آخر ، على أنه كان فى أسـواقهم الكثيرة التى تقام بينهم طَوال العام غَناءً أى غناء فى عيشتهم البدوية القانعة ، ومن أشهرها عكاظ (بين نخلة والطائف) كانت تقام شهر شـوال ، وبعده مَجنّة (بمر الظهران) من أول ذى القعدة إلى عشرين ، وبعـده ذو المجاز (خلف عرفة) إلى أيام الحج

ولقـد كان فى هذه الأسـواق فوق ماتضمه من مرافق الحياة ومتطلبات المعيشة منتديات للأدب ، يعقدون فيها المجامع ذات الشأن يتبارى فيها مداره الخطباء ومفوّهو الشـعراء من القبائل المتنائيـة الأصقاع ، يعرضون فيها مفاخراتهم ومنافراتهم ومعاظماتهم وكل مايعن لهم في جيد الخطب وبديع الشعر [1]

عاد ذلك كله على اللغـة بتثبيت دعائمها وإحكام رسـوخها وجودة

---

(١) أخبار أسواق العرب وأماكنها مبسوطة فى معجم ما استعجم للبكرى ، ومعجم البلدان لياقوت ، وصفة جزيرة العرب للهمدانى ، ومع التوزيع فى أجزاء الأغانى ، وفي الجزء الأول من بلوغ الأرب للألوسى فصل ضاف فيها

صقلها ، وبقيت كذلك متماسكة البنيان غير مشوبة بلوثة الأعجام ، إلى أن سطع نور الاسـلام على ماحول الجزيرة العربية بالفتوحات الاسـلامية ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ثم تتابعت الفتوحات فى عهد الخلفاء الراشدين ، فوصلت في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه شرقا إلى نهرى السند وجيحون وغربا إلى الشام ومصر ، فكان من الطبعى هبوط العرب ومعهم عشائرهم وعمائرهم إلى هذه الأمصار التى افتتحوها ودخلت تحت حوزتهم ، وبحكم الفتح قد كثر تملكهم الموالى فى البلاد المفتوحة عنوة ، كما كان من الطبعى تقاطر الوافدين من هذه الأمصار المفتوحة إلى الجزيرة العربية ، إذ فيها المدينة المنورة حاضرة الاسـلام ومقر الخلفاء الراشدين وعلية الدولة ، وفيها مكة المكرمة وبها الكعبة المشرفة التى يؤمها كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهكذا ازداد هذا النزوح من الجانبين كلما توالت الفتوحات تترى في عهد بنى أميـة فلقد بلغت الفتوحات فى عهدها شرقا الهند والصين وشمالا سيبريا وغربا ماوراء جبال البرانس بالأندلس وجنوبا السودان ، كما امتدت إلى جزائر البحر الأبيض المتوسط ، فهذه المملكة المترامية الأطراف كانت تخفق عليها الراية الاسلامية التى تآخى تحت ظلها الجميع (الأحمر والأسود) وأمحت بينهم فوارق الجنس والوطن ؟ دينهم الاسـلام وكتابهم القرآن ولغتهم العربية ، وكان أثراً لهذه الفتوحات من لدن كانت أن اختلط العرب بغيرهم اختلاطاً مستمراً فى البيوت والأسواق والمناسك والمساجد وتصاهروا واندمجوا فى بعضهم ، حتى تكون منهم شعب واحد اجتمع فيـه الصريح والهجين والمقرف ، اقتضى كل أولئـك أن يستمع بعضهم من بعض

وأن يتفاهموا فى كل مايتصل بهم ، ولغة التخاطب الوحيدة بينهم فى كل مايحيط بهم هى العربية ، فكان لزاماً على غير العربى أن تكون لغته العربية مهما عالج في ذلك وعانى ، كما كان لزاماً على العربى أن يترفق بغير العربى ويتريث معه فى التخاطب ضرورة التعاون بين الطرفين فكل منهما يسمع من الآخر ، والسمع سبيل الملكات اللسانية فما اللغة إلا وليدة المحاكاة وما يصل إلى السمع ، وبطول هذا الامتزاج تسرب الضعف إلى نحيزة وسليقة العربى ، على أن غير العربى كان ينزع قسراً عنه الى بنى جلدته وإن طال لبثه بين ظهرانى العرب فقدكان فى عهد الرسول ﷺ صهيب يرتضخ الرومية ، وسلمان الفارسية ، وبلال وسحيم عبد بنى الحسحاس الحبشية ، تولد من هذا كله أن اللغة العربية تسرب اليها اللحن ووهنت الملاحظة الدقيقة التى تمتاز بها وهى اختلاف المعانى طوعا لاختلاف شكل آخر الكلمة ، فان هذه الميزة كانت موفورة لديهم وهم بعيدون عن مخالطة سواهم من ذوى اللغات الاخرى التى خلت منها ، ولقد كان هذا النوع أول اختلال طرأ على اللغة العربية منذ كان الاسلام ، وكان الموالى والمتعربون ، وطفق يزداد رويداً رويداً ماطال الزمن وتفسحت رقعة الاسلام

سبب وضع النحو

قال أبو الطيب (واعلم أن أول ما اختل من كلام العرب وأحوج الى التعلم الأعراب لأن اللحن ظهر في كلام الموالى والمتعربين من عهد النبى ﷺ فقد روينا أن رجلا لحن بحضرته فقال « أرشدوا أخاكم فقد ضل »

وقال أبو بكر لأن أقرأ فأسقط أحب إلىّ من أن أقرأ فألحن) [١] — وقال ياقوت (ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه على قوم يسيئون الرمى فقرّعهم فقالوا إنا قوم « متعلمين » فاعرض مغضبا وقال : والله لخطؤكم فى لسانكم أشد على من خطئكم في رميكم) [٢] — وقال ابن جنى (ورووا أيضاً أن أحد ولاة عمر رضى الله عنه كتب إليه كتابا لحن فيه فكتب اليه عمر أن قنّع كاتبك سوطا) [٣] — وقال ابن قتيبة (سمع اعرابى مؤذنا يقول أشهد أن محمداً رسول الله بنصب رسول فقال ويحك يفعل ماذا ؟ . . . ودخل اعرابي السوق فسمعهم يلحنون فقال سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح) [٤] — وقال ابن عبد ربه (ودخل على الوليد بن عبد الملك رجل من أشراف قريش فقال له الوليد : من ختنَك — قال له : فلان اليهودى فقال : ماتقول ؟ ويحك قال : لعلك إنما تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو

(١) راجع مراتب النحويين ونقل هذا السيوطى فى المزهر أوائل النوع الرابع والأربعين ، والحديث الشريف مذكور فى الخصائص (باب فى ترك الأخذ عن اهل المدر كما اخذ عن اهل الوبر) ج ١ ص ٤٠٨ ، ومعجم الأدباء (الفصل الأول فضل الأدب) ج ١ ص ٨٢ ، والأثر المذكور نسب في معجم الأدباء الموطن السالف للشعبى

(٢) الموضع السابق فى المعجم

(٣) راجع الخصائص المبحث السابق وقد ذكر النحاة هذا الأثر مع تغيير فى بعض الكلمات ومع تعيين الوالى وهو أبو موسى الأشعرى اذ كان واليه بالبصرة ، وتعيين اللحن وهو قول الكاتب : من أبو موسى الأشعري راجع باب الاستثناء في المفصل وشرحه وفى شرح الرضى على الكافية ، وفى معجم الأدباء ج ١ ص ٨٠ حادثة أخرى تماثل هذه استشخص عمر فيها العامل وضربه بالدرة

(٤) راجع عيون الأخبار (كتاب العلم والبيان الاعراب واللحن) مجلد ٢ ص ١٥٨ ومابعدها والحادثة الثانية مذكورة أيضا فى المعجم الموضع السابق

فلان بن فلان)(١) ـ وهكذا انتشرت جرثومة اللحن فأعدت الخاصة حتى صاروا يعدون من لا يلحن ، وانتقلت من الحاضرة إلى البادية قال الجاحظ (قالوا وأول لحن سمع بالبادية هذه عصاتى) ـ كل ذلك والدولة الأموية مافتئت قائمة والنعرة العربية مستحصدة المرّة ومانعة الدرة ـ وسترى أمثلة كثيرة من اللحن عند الكلام على واضع النحو اجتزأنا بذكرها ثمة حتى لا يكون الحديث معاداً ـ على أن ما رأيته وماستراه قُل من كُثر وبعض من كل

لهذا وذاك أهابت العصبية العربية بالعلماء فى الصدر الأول الاسلامى أن يصدوا هذا السيل الجارف الذى كاد يكتسح اللغة العربية بما قذف فيها من لحن تسربت عدواه إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة بما هدوا اليه وسموه علم النحو ، غير أنهم لم تتفق كلمتهم على نوع السبب المفضى إلى وضعه فبعض المصادر التاريخية تذكر وقائع معينة كانت هى السبب عندهم ، وهى مع كثرتها لا تتفاوت عند المقارنة بينها قوة وضعفا لا من ناحية الرواية ولا من ناحية اقتضاء الوضع ، وبعض المصادر الأخرى لا تقصر السبب على حادثة خاصة بل تعتبره نتيجة لازمة لتلك الحوادث السابق والآتى منها أمثلة ملتفة بعضها على بعض ، وما أشبه هذا الرأى بالصواب ، فغير مقبول فى النظر أن ينهض العلماء ويستفرغوا مجهوداً جبارا يؤرقون عيونهم ولا يطبقون جفونهم الليالى الطويلة لتأسيس فن خطير خالد الأثر على اللغة العربية وأبناء العروبة من جراء حادثة فردية كان يكفى فى درئها إصلاحها وكفى . ومن جهة أخرى أين المؤهلات التى ترجح كفة حادثة جزئية على

---

(١) راجع العقد الفريد (كتاب الياقوتة فى العلم والأدب الاعراب واللحن) ج٢ص ٤٨٠ لكن فى خزانة الأدب شاهد ٦٥١ نسبة هذه الحادثة إلى عبد العزيز بن مروان



منيلاتها وفى ذلك ترجيح بلامرجح ، فالحق الذى لاينبغى الحيود عنه أن وضع هذا العلم إنما كان لهذه الحوادث متضافرة قال ابن خلدون (فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذى كان فى أيدى الأمم والدول وخالطوا العجم ؛ تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التى للمتعربين والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع وخشى أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجارى كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ مرفوع ، ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته إعرابا وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو) [1]

متى وأين كان وضعه ؟

عرفت مما سلف أن وضعه في الصدر الأول للاسلام ، لأن علم النحو ككل قانون تتطلبه الحوادث وتقتضيه الحاجات ، ولم يك قبل الاسلام مايحمل العرب على النظر إليه فانهم فى جاهليتهم غنيون عن تعرفه لأنهم كانوا ينطقون عن سايقة جبلوا عليها ، فيتكلمون فى شئونهم دون تعمل

(١) المقدمة الفصل السادس فى العلوم الخ . . . علم النحو

فكر ، أو رعاية الى قانون كلامى يخضعون له ، قانونهم ملكتهم التى خلقت فيهم ، ومعلمهم بيئتهم المحيطة بهم . بخلافهم بعد الاسلام اذ تأشبوا بالفرس والروم والنبط وغيرهم ، فحل بلغتهم ماهول الغيورين عليها وعلى الدين ، حتى هرعوا إلى وضع النحو كما تقدم . وهذا هو التحقيق الذى عول عليه الجمهور فقد زعم بعض العلماء أن العرب كانوا يتأملون مواقع الكلام وأن كلامهم ليس استرسالا ولا ترجيما بل كان عن خبرة بقانون العربية فالنحو قديم فيهم أبلته الأيام ثم جدده الاسلام على يد أبى الأسود الدؤلى بارشاد الامام على كرم الله وجهه ومن هؤلاء البعض أحمد بن فارس فى أوائل كتابه (الصاحبى) بل غلا غلوا شديداً إذ نسب للعرب العاربة معرفتهم بمصطلحات النحو بتوقيف من قبلهم حتى انتهى الأمر إلى الموقف الأول وهو الله عز وجل الذى علم آدم الأسماء كلها . وما من شك فى أن هـذا الرأى ناء عن المعقول جار وراء الخيال والوهم . نعم إن تحديد زمن وضعه فى الاسـلام لاسبيل إليه ألبتة وفى تعيين الواضع له في المبحث الآتى تقريب لزمنه .

وقد كان وضعه ونشوءه فى العراق لأنه على حدود البادية وملتقى العرب وغيرهم ، توطنه الجميع لرخاء الحياة فيه ، فكان أظهر بلد انتشر فيه وباء اللحن الداعى إلى وضع النحو ، وما حاجة عرب البوادى والحجاز إليه ؟ وما برحت لغتهم فصيحة

وضعه عربى محض

نشأ النحو في العراق صدر الاسلام لأسبابه نشأة عربية على مقتضى

الفطرة ، ثم تدرج به التطور تمشياً مع سنة الترقى حتى كملت أبوابه ، غير مقتبس من لغة أخرى لا فى نشأته ولا في تدرجه ، وقد اختلف العلماء فى أول ماوضع منه على رأيين : ـ أحدهما أن أول ماوضع من أبوابه هو ماوقع اللحن فيه ثم استمر الوضع فيمابعده على هـذا النمط ، وذلك ماذهب اليه جمهور النحاة اعتداداً بالروايات المستفيضة التى اقترن فيها الوضع باللحن ، إلاأن تعيين الباب الموضوع أولا منوط بالرواية التى قوى سندها من بين الروايات ـ والآخر أن أول ماوضع منه ما كان أقرب إلى متناول الفكر فى الاستنباط ، لأن وضعه مبنى على أساس من التفكير فى استخراج القواعد من الكلام لداعى انتشار اللحن فالموضوع أولا ماكثر دورانه على اللسان ثم مايليه وهكذا ، ولذا قيل أن الموضوع أولا الفاعل ثم ردفه المفعول ثم المبتدأ والخبر وهكذا . وماتقدم هو ما أطبق عليه علماؤنا خلفا بعد سلف ، وزعم بعض المستشرقين أن علم النحو منقول من لغة اليونان لأن وضعه فى العراق إنما كان بعد خلاط العرب للسريان وتعلمهم ثقافتهم وللسريان نحو قديم ورثوه عن اليونان ، وزعم بعض منهم آخر رأيا ثالثا ، فيه بعض موافقة ومخالفة لكل من الرأيين المذكورين ،وافق الرأى الأول فيماوضع منه ابتداء فقط ، والثانى فيماأحدث فيه بعد دور التكوين من تنظيم فى التقسيم والتعريف والتعليل، قال ليتمان (اختلف الأوروباويون فى أصل هذا العلم ،فمنهم من قال إنه نقل من اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون ليس كذلك ، وإنما كما تنبت الشجرة فى أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب ، وهذا هو الذى روى فى كتب العرب من زمن ، ونحن نذهب فى هذه المسألة مذهبا وسطا . . . وهو انه أبدع العرب علم النحو في الابتداء

وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه إلا مااخترعه هو والذين تقدموه ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان فى بلاد العراق تعلموا أيضاً شيئاً من النحو . . . وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف قال سيبويه : فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وهذا تقسيم أصلى ، أما الفلسفة فينقسم فيها الكلام إلى اسم وكلمة ورباط وهذه الكلمات . ترجمت من اليونانى إلى السريانى ومن السريانى إلى العربى ، فسميت هكذا فى كتب الفلسفة لا فى كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فانها اصطلاحات عربية ماترجمت ولا نقلت)[1]

تلك هى الأقوال الثلاثة ، والمعول عليه منها الأول ، إذ الثانى مجرد اختراص لا سر له إلا الولوع بالانتقاص للعرب ، والثالث لا يناهض الأول فيما خالفه فيه فأنه غير مسلم أن يكون علماء العرب عيالا على غيرهم فيما يتصل بتنظيمه بعد اهتدائهم إلى اختراعه وابتكاره .

واضعه

علمت اجمالا أن واضعه من رجالات عصر الاسلام على ماتقدم بيانه ، لكنهم اختلفوا واضطرب اختيارهم متقدمين ومتأخرين كابن سلام في طبقات الشعراء ، وابن قتيبة فى المعارف ، والزجاجى فى الأمالى ، وأبى الطيب اللغوى فى مراتب النحويين ، والسيرافى فى أخبار النحويين البصريين ، والزبيدى فى الطبقات ، وابن النديم فى الفهرست ، والأنبارى فى نزهة الألبا ـ فيمن هو الواضع ؟

على أن هذا الاختيار لا يعدو فى الواقع أن يكون إما للامام على كرم الله

---

(١) محاضرات ليتان

وجهه كما يرى الأنبارى ، أو لأبى الأسود الدؤلى رضى الله عنه كما يراه السابقون قبله ـ فاما عزو الوضع إلى نصر بن عاصم الليثى أو عبد الرحمن ابن هرمز فبمعزل عن الاختيار والتأييد ـ ولا أطيل الحديث بنقل كلام هؤلاء العلماء جميعاً مكتفياً بنقل كلام الأنبارى لأنه أعناهم بهذا المقام ، وقد سرد معظم نقولهم لتأخره عنهم مع جودة الترتيب ، فذكر مختاره أولا مع روايتين في سبب وضع على كرم الله وجهه ، ثم ذكر مختار غيره مع روايات أربع في سبب وضع أبى الأسود رضى الله عنه ـ ولعلك ذاكر ما لفتنا النظر إليه سابقا في سبب الوضع من أن الحق عدم الوقوف فى سبب الوضع على أى قول عند سبب خاص ـ ثم فند القولين الأخيرين ، ثم عاد مصرحا برجحان اختياره قال (اعلم أيدك الله تعالى بالتوفيق وأرشدك إلى سواء الطريق أن أول من وضع علم العربية وأسس قواعده وحد حدوده أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلى . . . وسبب وضع على عليه السلام لهذا العلم ماروى أبو الأسود قال : دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فوجدت فى يده رقعة فقلت ماهذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء يعنى الأعاجم فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ويعتمدون عليه ، ثم ألقى الى الرقعة وفيها مكتوب الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ماأنبأ عن المسمى والفعل ما أنبىء به والحرف ما أفاد معنى ، وقال لى انح هذا النحو وأضف اليه ماوقع اليك ، واعلم ياأبا الأسود ان الأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لاظاهر ولامضمر ، وإنما يتفاضل الناس ياأبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد

بذلك الاسم المبهم ، قال ثم وضعتُ بابى العطف والنعت ثم بابى التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ماخلا لكنّ فلما عرضتها على علىّ عليه السلام أمرنى بضم لكن اليها ، وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت مافيه الكفاية ، قال ماأحسن هذا النحو الذى قد نحوت ، فلذلك سمى النحو ... وروى أن سبب وضع على عليه السلام لهذا العلم أنه سمع أعرابياً يقرأ لا يأكله إلا (الخاطئين) فوضع النحو

ويروى أيضاً أنه قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال من يقرئنى شيئاً مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ فاقرأه رجل سورة براءة فقال إن الله برىء من المشركين ورسوله بالجر فقال الاعرابى أو قد برئ الله من رسوله إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الاعرابى فدعاه فقال يا أعرابى أتبرأ من رسول الله ﷺ ؟ فقال يا أمير المؤمنين إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن فسألت من يقرئنى ؟ فاقرأنى هذا سورة براءة فقال إن الله برئ من المشركين ورسوله فقلت أو قد برئ الله تعالى من رسوله ! إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فانا أبرأ منه ، فقال عمر رضى الله عنه ليس هكذا يا أعرابى فقال كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال إن الله برئ من المشركين ورسولُه فقال الاعرابى وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم ، فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو . . . وروى عاصم قال جاء أبو الأسود الدؤلى إلى زياد وهو أمير البصرة فقال إنى أرى العرب

قد خالطت هـذه الأعاجم وفسدت ألسنتها أفتأذن لى أن أضع للعرب مايعرفون به كلامهم ؟ فقال له زياد لاتفعل ، قال فجاء رجل إلى زياد فقال أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وترك بنونا فقال له زياد توفى أبانا وترك بنونا ، أدع لى أبا الأسود فلما جاءه قال له ضع للناس ما كنت نهيتك عنه ففعل ، ويروى عنه أيضاً أن أبا الأسود قالت له ابنته ما أحسنُ السماء فقال لها نجومها فقالت إنى لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها فقال لها إذن فقولى ما أحسنَ السماء فحينئذ وضع النحو ، وأول مارسم منه باب التعجب .

وزعم قوم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، وزعم آخرون أن أول من وضـع النحو نصر بن عاصم ، فأما من زعم أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم فليس بصحيح والصحيح أن أول من وضع النحو على بن أبى طالب رضى الله عنـه لأن الروايات كلها تسند إلى أبى الأسود ، وأبو الأسود يسند إلى علىّ فانه روى عن أبى الأسـود أنه سئل فقيل له من أين لك هذا النحو ، فقال لفقت حدوده من على بن أبى طالب) ١

ولاريب أن الاختلاف فى المختار من القولين بين الجماعة والأنبارى ، مرجعه إلى الحدس والتخمين ، فليس مع أحد المختارين مايرجحه على الآخر لامن العقل ولا من النقل المتواتر ، فماهى إلا روايات يناهض بعضها بعضا غير أن الظنون متفاوتة عنـد الموازنة بين المتكافئين ، ويظهر أن الحق في جانب الجماعة ، فان وضع النحو أمر خطير يتقاضى من القائم به عناية مبذولة إليه خاصـة وصدوفا عن مشاغل الحياة عامة ، ووقتا طويلا

---

(١) راجع نزهة الألبا ، وقد تركنا رواية أخرى عن زياد

يستنزف فى التقصى للكلام العربى وإعمال الفكر واستخراج القواعد ، فى حياة كلها هدوء واستقرار ، يرفرف عليها جناح الأمن والسلام ، وحياة الامام كرم الله وجهه تقضّت فى النضال العنيف والشجار المستحر ، ملأتها الحوادث المروّعة ، واكتنفتها أمواج الاضطرابات الشاملة ، فبعيد أن الأمام يواتيه الوقت الكافى للنهوض بأعباء هذا العمل الجلل ، على أنا لا نأبى أن له اليد الطولى على أبى الأسود فى الارشاد له ، والاشراف عليه ، وتقريره لما صح في استنتاجه ، وقد يكون فى ذلك تقريب للجمع بين الاختلاف فى المختار فللأمام فضل الهداية إلى الأساس ، ولأبى الأسود فضل القيام بوضعه على ضوء هدى الأمام

واضعه أبو الأسود الدؤلى

فالذى نخاله قريباً إلى الواقع ويرتضيه النظر أن أبا الأسود هو واضع هذا الفن ، ونسبة الوضع للفن إنما تعتبر نتيجة لقيام الواضع ببعض الأبواب الأساسية فى ذلك الفن ، وهذا ما كان من أبى الأسود كما رأيت ، واختيار الأنبارى نسبة الوضع للامام أول كلامه اعتماداً على تفهيم الامام أبا الأسود أقسام الكلمة وأقسام الاسم والباقى من النواسخ إنما يتم لو تظاهر جمهرة العلماء المعنيين بهذا الشأن على الموافقة على هذه الرواية والاعتزاز بها ، مع أن الذى قد سبق اليها وهو الزجاجى ساقها على أنها رواية من الروايات فحسب ، ونقلها عنه كذلك يافوت فى ترجمة الأمام ، أما الباقون فلم يعرضوا لها ، وتصريحه آخر كلامه بالاختيار استناداً لرجوع الروايات عن أبى الأسود إلى الامام فى النهاية لا يتم أيضاً مع عدم

مخالفتنا له فى رجوع الروايات للامام ، ولا يؤدى ذلك إلى انتماء الوضع له على ما سبق فى التقريب بين الاختيارين ، ومما يؤيد نسبة الوضع إلى أبى الأسود ماروى ابن النديم فى الفهرست عن محمد بن إسحق أن رجلا بمدينة الحديثة اسمه محمد بن الحسين كان جماعة للكتب ، وقد آلت إليه خزانة صديق له كان مشهوراً بجمع الخطوط القديمة قال ابن اسحق (فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملا أدرسها. ورأيت مايدل على أن النحو عن أبى الأسود ماهذه حكايته ، وهى أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه : فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى وتحته هذا خط النضر بن شميل)[1]

ولقد درج على هذا الرأى متقدمو المؤرخين من أصحاب الطبقات والمعاجم واحتذى حذوهم المتأخرون عدا الأنبارى ، فمن الغريب بعدئذ أن يستنكر المستشرقون هذه النسبة المتواطأ عليها قديماً وحديثاً زعماً منهم أن عصر أبى الأسود لايتواءم وهذه الاصطلاحات الوضعية المرتبة التى بأيدينا ، وإنما هى وليدة عصر متأخر عنه ، تطور فيه التعليم حتى صار مناسباً لهذه القواعد المرتبة قالوا (وليس حقاً مايقال : إنه « أبا الأسود » واضع أصول النحو العربى)[2]

وقد اقتفى أثرهم بعض علماء العصر الحاضر . ولهذا تخلص الاستاذ أحمد أمين من الموقف بتأويل بعيد تذرع به إلى التوفيق بين الاعتراف

---

(١) راجع الفهرست الفن الأول من المقالة الثانية

(٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية المجلد الأول العدد الخامس ترجمة أبى الأسود

بما هو مستفيض شائع وبين هذا الرأى الجديد ، وتلمس وجهاً لنسبة الوضع إلى أبي الأسود بعد تسليم صحتها لكن على وجه آخر فقال (ويظهر لى أن نسبة النحو إلى أبي الأسود لها أساس صحيح وذلك أن الرواة يكادون يتفقون على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط وهو انه ابتكر شكل المصحف .. وواضح أن هـذه خطوة أولية فى سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ، وممكن أن تأتى من أبي الأسـود ، وواضح كذلك أن هـذا يلفت النظر إلى النحو فعمل أبي الأسـود يسلم إلى التفكير في الاعراب ووضع القواعد له .. وأن هذه الامور لما توسع العلماء فيها بعد ، وسموا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود ، وقالوا إنه واضع النحو للشبه في الأساس بين ماصنع وما صنعوا وربما لم يكن هو يعرف اسم النحو بتاتاً . . . إنما الذى كان له الفضل الأكبر فى ذلك الخليل بن أحمد ذو العقل الجبار المبتكر الذى قل أن يوجد له نظير فى علماء ذلك العصر ... وهو الذى عمل النحو الذى نعرفه إلى اليوم)[1]

نعم نحن لاننكر ما للخليل من الفضل لاعلى النحو بل على كثير من علوم اللغة العربيـة ، وستعرف آثاره في ترجمته إن شاء الله تعالى لكنا مع ذلك على رأينا الأول

فليس بغريب على أبي الأسـود الذى أوتى العلم الواسـع أن يلهم هذا الفن ويضع تعاليمه التى يسار عليها وينسج على منوالها ، ولا ندعى أنه قد وفق اليه على غرار ماتراه فى كتبنا من تعريفات ومصطلحات وتقاسيم ، فان طبيعة عهده السابق على عصر المقننين تقتضى مجرد اتجاهه

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٨٦ وما بعدها

إلى أبواب هذا العلم إجمالا حسبما تقتضيه الفطرة العربية على وفق ماورد في مختلف الروايات الكثيرة التي صرحت بنسبة الوضع اليه فقط دون تعرض إلى التفصيل ، وذلك كاف في اعتباره المؤسس له ، نعم قد تطور بمسايرة الزمن وأضيف اليه من كل طبقة بعد أخرى ماضخمه وصيره فنا مستكمل الدعائم مرتب الأبواب منظم التقسيم ، مع التعاريف التي امتازت بها الأبواب والتقاسيم والاصطلاحات العلمية الخاصة ، إلا أنه مما لا يختلف فيه اثنان أن النهضة بهذا العلم في تلك النواحي كان عمادها الخليل بن أحمد ، فمن عهده انتظم شتاته ، والتأم عقده ، واتخذ تعليمه دوره الفني كما ستقف على ذلك في أطواره ، ومع هذا فان عناصره الأساسية التي اهتدى اليها أبو الأسود بتعليم وإقرار الامام علي لم تتغير ولم تتبدل

ولقد اعترف العلماء متقدمين ومتأخرين على أن أبا الأسود هو الذي ابتكر شكل المصحف فلعل ذلك كان منه تكميلا لما بدأ به من القيام بما يحفظ على المسلمين كتابهم الكريم ولغتهم الشريفة

وما لنا ننكر هذه النقول الصريحة وقد وافق عليها الخلف بعد السلف عصراً بعد آخر تلك الأزمنة المتطاولة ولم نر منهم نكيرا ،

على أننا لو تمثلنا شخصيته ونزعته وعصره الذي كان ينشر فيه علمه بالبصرة لأيقنا صحة هذه النسبة . فقد كان علوي الرأي يجاهر بتشيعه وهواه فيمدح الأمام بالقصائد الحسان ، وعمال البصرة وسواد العراق من قبل معاوية يشقون عليه ويعنتونه ، حتى بنو قشير الذين جاورهم وصاهرهم بزواجه منهم امرأته أم عوف أجرموا معه فسبوه ونالوا من علي كرم الله وجهه إيلاما له وقذفوه ليلا بالحجارة قال المبرد (وكان بنو قشير

عثمانية وكان أبو الأسود نازلا فيهم فكانوا يرمونه بالليل فاذا أصبح شكا ذلك فشكا مرة فقالوا مانحن نرميك ولكن الله يرميك فقال كذبتم والله لو كان الله يرميني لما أخطأني)[1]

أضجر ذلك كله أبا الأسـود وأقض مضجعه فانزلق إلى هجاء أمير العراق زياد وابنه عبيد الله ، وهاما هيا ؛ وقد توالت خلافة الأمويين زمناً ليس بالقصير ، وهم منطوون على نار من الحقد للعلويين وأتباعهم إذ لم تقم دولتهم إلا بدعوى المطالبـة بدم عثمان بعد اتهامهم أمير المؤمنين علياً بالتفريط فيه والتغاضي عن السافكين دمه رضوان الله عليه ، فكيف يدعون أمراً خطيرا كهذا يمضي على كر الزمان ويخلد في بطون الاسفار ، وهم أحرص الناس على الغض من شأن العلويين وشيعتهم ، لاسيما فى مثل هذا الشأن ذى البال والأثر الخالد

تسميته بالنحو بعد أبى الأسود

روت كتب الأدب والتراجم على سبيل اليقين أن هذا العلم كان يسمى بالعربية فى عصر أبى الأسود قال ابن سلام فى الطبقات (وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلى) وقال ابن قتيبة فى المعارف (أول من وضع العربية أبو الأسـود) وقال ابن حجر فى الاصابة (أول من ضبط المصحف ووضع العربية أبو الأسود) فالتسمية بالنحو بعـد عصره ؛ إلا أنها لم تتجاوز الطبقة الثانيـة فقد اشتهرت عنها مؤلفات اتسمت بأنها نحوية ، وصرح فيها باسم النحو

---

(١) الكامل مع الرغبة جـ ٧ ص ١٣٣

كما ستقف على ذلك فى الطبقات إن شاء الله تعالى ، فما يذكر فى كتب التراجم من نسبة التسمية بالنحو إلى أبى الأسود مبنى على التسامح وملاحظ فيه انسحاب التسمية الطارئة بالنحو بعدُ على ما كان من أبى الأسود ضرورة أن ماوضعه أبو الأسود أساس ما وسموه بالنحو ، ولو عنى أصحاب التراجم بتعيين صاحب التسمية ووقتها لأغنونا عن تنازع الظنون

سبب التسمية بالنحو

اسم العلم من وضع أهله ومصطلحهم لمقتضى الملابسات المناسبة في نظرهم وقد سلف أن أبا الأسود لما عرض على الامام ماوضعه فأقره بقوله (ما أحسن هذا النحو الذى قد نحوت) ــ فآثر العلماء تسمية هذا العلم باسم النحو استبقاء لكلمة الأمام التى كان يراد بها أحد معانى النحو اللغوية ، والمناسبة بين المعنيين اللغوى والاصطلاحى جلية .

نشأة النحو وتدرجه

نشأ النحو أول أمره صغيراً شأن كل كائن ، فوضع أبو الأسود منه ما أدركه عقله ، ونفذ إليه تفكيره ، ثم أقره الأمام على ماوضعه وأشار عليه أن يقتفيه ، فقام بما عهد إليه خير قيام ، ولم يهتد بحث العلماء إلى يقين فيما وضعه أبو الأسود أولاً على ماسلف تفصيلا ، وكانت هذه النهضة الميمونة بالبصرة التى كان في أهلها ميل بالطبيعة إلى الاستفادة من هذا الفن اتقاء لوباء اللحن الزارى بصاحبه ، وخاصة الموالى الذين كانوا أحوج الناس حينذاك إلى تلقى هذا العلم رغبة منهم فى تقويم لسانهم

وتخليصه من رطانة العجمة ، وحباً فى معرفة لغة الدين الذى اعتنقوه ، وطمعاً فى رفع قدرهم بين العرب ، فصدقت عزيمتهم فى دراسته والتزيد منه ، وما انفكوا جادين فيه بعدئذ حتى نبغ منهم كثير قاموا بأوفى قسط فى هذا العلم ، وقادوا حركته العلمية قال المبرد (مر الشعبى بقوم من الموالى يتذاكرون النحو فقال لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده) [1] فكان منهم علماؤه المبرزون دراسة وتأليفا حتى أشير إليه ردحا من الزمن أنه علم الموالى

فلأبى الأسود الفضل الوافر فى بدء الغرس الذى نما وترعرع وازدهر على كر الزمان بإضافة اللاحق إلى السابق ما استدركه وما ابتدعه فازداد فيه التدوين والتصنيف شيئا فشيئا ، غير أن هذا العلم لم تطل عليه الأيام كسائر الفنون فاكتمل وضعه قبلها ، والباعث على النشاط فيه والسرعة شعور العرب بالحاجة اليه قبل كل علم ، فان الفتوحات الاسلامية متوالية فى الامصار ، والعرب متدفقون عليها ، والامتزاج مستحكم بينهم وبين من دخلوا فى حوزتهم ، وعثير اللحن منتشر أقذى الأبصار ، فهب العلماء لايلوون على شىء منكمشين فى تدوينه ، فكان يسير بخطى فسيحة تبشر بالأمل القوى العاجل ، حتى نضج ودنا جناه ، فتم وضعه فى العصر الأموى دون سائر العلوم اللسانية

وما استهل العصر العباسى إلا وهو يدرس دراسة واسعة النطاق فى العراقين (البصرة والكوفة) . وكمل وأوفى على الغاية فى بغداد ولما ينقض العصر العباسى الأول وذلك قبل تمام القرن الثالث الهجرى .

(١) الكامل مع الرغبة جـ ٤ ص ١٩٣

ولقد تلمسنا تعرف المراحل التى اجتازها هذا العلم طبقاً لنواميس النشوء (فلكل علم أطوار يمر بها كما يمر الحى بأطوار الحياة) - وليداً وناشئاً وشاباً وكهلا - فى كثير من الكتب التى يخال فيها التعرض لذلك فما وقفنا على مايشفى الغلة ويذير السبيل ، فلاح لنا بعد إنعام الفكرة وإطالة النظرة أن نجعل الصلة بين هذه المراحل وبين العلماء القائمين بأمر هذا الفن إذ كان على أيديهم مانقله من طور إلى آخر .

روى لنا التاريخ أن البصريين هم الذين وضعوه وتعهدوه بالرعاية قُرابة قرن كانت فيه الكوفة منصرفة عنه بما شغلها من رواية الأشعار والأخبار والميل إلى التندر بالطرائف من الملح والنوادر ، ثم تكانف الفريقان على استكمال قواعده ، واستحثهما التنافس الذى جد بينهما واستحرت ناره ردحا من الدهر ينيف على مائة سنة ، خرج بعدها هذا الفن تام الأصول كامل العناصر وانتهى الاجتهاد فيه ، وحينذاك التأم عقد الفريقين فى بغداد ، فنشأ المذهب البغدادى الذى عماده الترجيح بين الفريقين ، ثم شع نور هذا العلم فى سائر البلاد الاسلامية التى احتفظت به بعد أن دالت دولة بغداد العلمية ، وفى طليعتها الأندلس فى عصرها الزاهر ، ومصر المعزية ، والشام وما يتاخمها .

أطوار النحو الأربعة

وعلى ضوء هذا التاريخ قد اعتبرنا أطواره أربعة ، طور الوضع والتكوين (بصرى) ، طور النشوء والنمو (بصرى كوفى) ، طور النضوج والكمال (بصرى كوفى) ، طور الترجيح والبسط فى التصنيف (بغدادى وأندلسى ومصرى وشامى)

على أنه ليس فى الاستطاعة وضع حد توقيتى ينفصل به كل طور عما يسبقه أو يعقبه ، فان الأطوار لابد من تداخلها وسريان بعض أحكام سابقها على لاحقها ، كما أنه لامناص من تسرب شىء مما فى تاليها على بادئها ، فغير ممكن أن يوجد الطور دفعياً وإنما تلده المؤثرات التى تسبقه وتمهد له وهى بالطبع فى غيره إلا أنها لما تكاثرت وتزايدت حتى بدا للعلم بمقتضاها طابع آخر غير الطابع السابق عليه استوجبت جعله فى طور آخر جديد ، ولا يكون ذلك التمييز الظاهر إلا بعد انقضاء زمن المداخلة بين الطورين - وعلى هذا الأساس فان تحديد هذه الأطوار إلى التقريب أقرب منه إلى التحقيق ، وبدهى أن تحديدها بالأشخاص على ماسبق يعود بالتبع إلى طبقاتهم التى يمثلونها ، وستعرف هذه الطبقات مرتبة بحسب الزمن مع تراجم أشخاصها كلهم ، وإننا سنكتفى فى هذا التحديد بالأشخاص المبرزين المعلمين فقط للاختصار .

الأول طور الوضع والتكوين (بصرى)

هذا الطور من عصر واضع النحو أبى الأسود إلى أول عصر الخليل ابن أحمد ، وقد سلف أن وضعه انتهى فى عصر بنى امية .

هذا هو الطور الذى استأثرت به البصرة صاحبة الفضل فى وضعه وتعهده فى نشأته ، والكوفة منصرفة عنه بما شغلها من رواية الأشعار والاخبار والنوادر زهاء قرن ، اشتغل فيه طبقتان من البصريين بعد أبى الاسود حتى تأصلت أصول منه كثيرة وعرفت بعض أبوابه فان الطبقة الاولى التى أخذت عن أبى الاسود استمرت فى تنمير

ماتلقته عنه ووفقت إلى استنباط كثير من أحكامه وقامت بقسط في نشره وإذاعته بين الناس . وكان من أفذاذ هذه الطبقة عنبسة بن معدان الفيل ونصر بن عاصم الليثى وعبد الرحمن بن هرمز ويحيي بن يعمر العدوانى ، ولم يدرك أحد من رجال هذه الطبقة الدولة العباسية ، ويغلب على الظن أن ماتكون من نحو هذه الطبقة فضلا عن قلته كان شبه الرواية المسموع فلم تنبت بينهم فكرة القياس ولم ينهض ماحدث في عهدهم من أخطاء إلى إحداث ثغرة خلاف بينهم لقرب عهد القوم بسلامة السليقة ، كذلك لم تقو حركة التصنيف بينهم فلم يؤثر عنهم إلا بعض نتف فى مواطن متفرقة من الفن لم تبلغ حد الكتب المنظمة إذ كان جل اعتمادهم على حفظهم فى صدورهم ، رواياتهم بلسانهم، وزعم بعض المؤرخين أن أستاذها أبا الأسود قد وضع مختصراً على ما تقدم بيانه

أما الطبقة الثانية التي كانت أكثر عدداً من سابقتها فقد كانت أوفر منها حظاً فى هذا الشأن إذ وطأت لها سبيله فازدادت المباحث لديها وأضافت كثيراً من القواعد ونشأت حركة النقاش بينها فجدت فى تتبع النصوص واستخراج الضوابط ماهيأ لها وقتها واستطاعت التصنيف فدونت فيه بعض كتب مفيدة ، وكان من المشار إليهم فيها عبد الله ابن أبى اسحاق الحضرمى الذى يقول فيه أبو الطيب (وكان يقال عبدالله أعلم أهل البصرة وأعقلهم ففرع النحو وقاسه)[1] — وكان يخطىء الفرزدق كثيراً حتى هجاه وستعرف تفصيل ذلك فى ترجمته بمشيئة الله تعالى ، وعيسى بن عمر الثقفى صاحب الكتابين : الجامع والاكمال ، وقد نوه عن

---

(١) مراتب النحويين

فضلهما الخليل بن أحمد بقوله

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وأبو عمرو بن العلاء صاحب التصانيف الكثيرة على ماستعرف في ترجمته ورجال هذه الطبقة أظلتهم الدولة العباسية جميعاً خلا عبد الله ابن أبي اسحاق الذى مات سنة ١١٧ ﻫ

لم ينتض هذا الطور حتى وفق العلماء إلى وضع طائفة كبيرة من أصوله بعثتهم إلى التزيد فيها ، فاختمرت بينهم فكرة التعليل التى كان أول متجه لها ابن أبي اسحاق كما أنه أول من نشط للقياس وأعمل فكره فيه وخرج مسائل كثيرة عليه ، ووافقه عليه عيسى بن عمر ، وخالفهما بعض معاصريهما فانفسح ميدان القول في هذا العلم وأنس الناس به وتداولوه فى كتبهم التى كانت تساير روح هذا العهد ، فقد كانت مزيجاً من النحو واللغة والأدب وما إلى ذلك من علوم اللغة العربية لأن هذه الفروع كانت متداخلة آخذاً بعضها بحجز بعض لقرب الوشيجة بينها فى الغرض والمقصد ، فكان الأديب حينذاك نحويا لغويا والنحوى أديباً لغويا وهكذا ، يحملنا على هذا ما روى لنا عنهم فى نقاشهم ومحاوراتهم وإن لم تصلنا مؤلفاتهم التى طارت بها عواصف الأيام ، ونالها ما نال أربابها من الزوال وصدق المتنبي فى قوله

تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتتبع

نعم أخذت هذه الفروع يمتاز بعضها من بعض فى البحث والتدوين من أوائل الطور الثانى تدريجياً حتى اشتهر بعض العلماء بالنحو وأشير إلى آخر باللغة ودواليك

الثانى طور النشوء والنمو (بصرى كوفى)

هذا الطور من عهد الخليل بن أحمد البصرى وأبى جعفر محمد ابن الحسن الرؤاسى إلى أول عصر المازنى البصرى وابن السكيت الكوفى فهذا الطور مبدأ الاشتراك بين البلدين فى النهوض بهذا الفن والمنافسة فى الظفر بشرفه ، فقد تلاقت فيه الطبقة الثالثة البصرية برياسة الخليل والأولى الكوفية بزعامة الرؤاسى ، وكذا بعدهما طبقتان من كل من البلدين ، فوثب هذا الفن وثبة حي بها حياة قوية أبدية بعد ، وكان هذا الطور حريا أن يسمى طور النشوء والنمو

ونقصد الآن بالنحو معناه العام الذى يشمل مباحث الصرف لأن مباحث رجال الطور الماضى كانت منصرفة حول أواخر الكلمات كما عرف عنهم بخلاف رجال هذا الطور فانهم قد اتجهت أنظارهم إلى مراعاة أحوال الأبنية أيضا فقد راعهم ما اعتورها من خطأ يجب درؤه . وذلك أنهم ما حاولوا صون الكلام من غوائل اللحن فى أطرافه إلا ضنا به أن لا ينهض بالافادة والاستفادة المقصودتين منه ، ورعاية أواخر الكلمات بقوانين النحو وإن كفلت دفع اللحن عن الكلام وأصلحت هيكله الصورى للتأدية العامة إلا أن تلك التأدية لا تتم فيه إلا إذا سلمت جواهر أجزائه التى يتقوم بها ، وما تأخرت ملاحظتها لهذا الحين إلا لقلة العثرات فيها بالاضافة الى العثرات التى كانت تعترض الكلام في أواخر أجزائه ، ولأن الخطأ فيها لا يذهب بالمعنى المقصود للمتكلم كالخطأ أواخر الكلمات ، كما لمست هذا فى سبب وضع النحو فمن هذا الحين ظهرت مباحث الصرف فى طى كتب النحو وشغلت

منها فراغا وعم الأمرين اسم النحو ، واستمر هذا الاندماج طويلا من الزمن حتى تدوول فى بعض كتب المتأخرين ، ولذا عرف بعضهم النحو بأنه علم يعرف به أحوال الكلم العربية إفراداً وتركيبا ليشمل الأمرين

نعم قد تقلص عن كتب النحو من أوائل هذا الطور مالا يتصل به هذا الاتصال الوثيق كمباحث اللغة والأدب والأخبار ، ولا ريب أن للصرف من بين سائر علوم اللغة العربية قرابته الدنيا بالنحو ، على أن الخليل وهو غرة جبين هذا الطور قد جمع بين اللغة والنحو فانه ذكر فى كتاب العين الذى هو الأساس لكتب اللغة فيما نعلم مقداراً كبيراً من النحو

ابتدأ هذا الطور وأخذت العلماء في كتب النحو ومباحثه سمتا آخر غير ما اتجهوا إليه فى الماضى على ما عرفت ونشطوا فى التقصي والاستقراء للمأثور عن العرب وفى إعمال الفكر واستخراج القواعد وكان مبعث ذلك النشاط هو التنافس البلدى الذى عرض إبان هذا الطور فرام كل من أهل البلدين (البصرة والكوفة) الظفر على الآخر ، فالخليل بعد أن جاب بوادى الحجاز ونجد وتهامة مواجهاً العرب فى صحرائها مستمعا لأحاديثها يعود إلى البصرة ويستجمع كل ما سمع ويشحذ ذهنه الحاد ويفرغ للبحث عن لآلىء هذا الفن من بحر علمه العميق حتى جمع أصوله وفرع تفاريعه وضم كل شيء إلى لفقه وساق الشواهد وعلل الأحكام وبلغ فى ذلك غاية محمودة فاتت كل من سبقه ، بيد أنه اكتفى عن تدوينه موسوعة فيه بطلبته الذين كان يملى عليهم ، وممن حمل الراية في البصرة مع الخليل إلا أنه قصر مجهوده على النحو يونس الذى نصب نفسه للأفادة فكانت له حلقات دراسة يؤمها القاصى والدانى من فصحاء الأعراب وأهل العلم وكان له فى النحو

أقيسة ومذاهب خاصة تفرد بها

ولقد عاصرهما الرؤاسى الكوفى شيخ الطبقة الاولى الكوفية فانه بعد اشتراكه معهما فى التلقى عن الطبقة الثانية البصرية يمم الكوفة وألقى عصاه فيها وقد ألفى عمه معاذ بن مسلم الهراء الذى كان أقدم منه سناً يزاول هذا العلم ألا انه كلف بالبحث عن الأبنية والتمارين إلى أن غلبت عليه الناحية الصرفية التى التفت إليها الكوفيون واستنبطوا للصرف كثيراً من القواعد التى سبقوا بها البصريين حتى عدهم المؤرخون الواضعين للصرف إذ كان الصرف عند البصريين فى المحل الثانى ، ولم يكف ذلك الكوفيين فى دفع التخلف اللاحق بهم على مافاتهم من شرف النحو فتهالكوا عليه وتزاحموا بالمناكب شأن المفرط الذى يحاول تلافى خطئه ، فظهرت فيهم علماء وانبعثت فيهم فكرة التأليف ، وكان أول مؤلف تداولوه بينهم كتاب (الفيصل) للرؤاسى ، روى ابن النديم وغيره (وقال الرؤاسى بعث الخليل الى يطلب كتابى فبعثت به إليه فقرأه ، وكل مافى كتاب سيبويه وقال الكوفي كذا فانما يعنى الرؤاسى) [1]

تكون على يد الامامين الخليل ومن معه من البصريين ، والرؤاسى ومن معه من الكوفيين بكل من البلدين مدرسة خاصة لها علم تنحاز اليه كل فرقة وتتابعت الطبقات المتعاصرة من كلا البلدين

فسطع فى سماء البصرة نجوم متألقة تألف منها عقد الطبقة الرابعة

---

(١) راجع الفهرست الفن الثاني من المقالة الثانية ، ونزهة الألبا ترجمة الرؤاسي ومعجم الأدباء ترجمته أيضا ج ١٨ ص ١٢٢

بزعامة سيبويه الذى وهب ملكة التصنيف والتنسيق فأبدع كتابه على
مثال لم يسبق إليه ولم يدع للمتأخرين استدرا كا عليه ، وكان يعاصرها
الطبقة الثانية الكوفية التى كان يقودها الكسائى الذى لم يأل جهداً
حتى أخرج للناس مؤلفات استفادوا منها ، وشدّ من أزره إقبال الدنيا عليه
بعد اتصاله بالخلفاء والامراء ببغداد ، فاعتدّ للكوفيين فيها متكأ
وسعى سعيه حتى كون من الكوفيين جبهة قوية ثبتت أمام الجبهة البصرية
ووقفت منها موقف الند للند ، فانه الذى يعتبر بحق المؤسس للمذهب
الكوفى ، ولولاه لذهبت ريحهم ولما خفقت بنودهم على بغداد التى عطفت
عليهم من هذا الحين ورفعت شأنهم ، فاستفز ذلك البصريين لمناصبتهم
أشد العداء واشهار سلاح الخصام في وجوههم ، وما زال كل من البلدين
جد حريص على حوز قصب السبق رغبة فى التغلب وحرصاً على الازراء
بالآخر وتفانياً فى الدنو من العباسيين ، فاتسعت رواياته واستفاض تعليمه
بين الدهماء وازدادت تآليفه .

فالأخفش البصرى شيخ الخامسة يصنف ويذيع على الناس ما أوتيه
من علم ، ومعاصره الفراء الكوفى استاذ الثالثة تغمره عطايا المأمون
وتحفزه إلى نشر العلم وتتيح له أن يدون طوال الكتب التى راجت
فى بغداد والكوفة .

كل ذلك بفضل المناظرة التى بدأت هادئة أول الأمر بين البلدين
على يد الخليل والرؤاسى ، ثم اشتدت على مرور الأيام وكان لها أثرها الفعال
إذ كانت وقوداً صالحاً لاشعال نار الاجتهاد والدأب على استكمال ما بقى
من مواد هذا الفن ، فحمى وطيسها فى غضون هذا الطور واندلع لهيبها

إلى نهاية الطور الثالث فصلى بنارها كثير من جلة البصريين وقليل من الكوفيين ، وسنذكر لمحة عنها إن شاء الله تعالى بعد إتمام الكلام على هذين الطورين (البصريين الكوفيين) فانه عند تلاقى الفريقين ببغداد وابتداء الطور الرابع الجديد قد انطفأت نار العصبية البلدية واختبأ أوارها ، فلم تك مناظرات بصرية ,كوفية

وقصارى القول أنه لم ينصرم هذا الطور حتى قطع النحو شوطاً كبيراً شارف فيه النهاية فأرهفت له الأسماع وكثرت فيه المؤلفات التى أزيل منها ماليس من فن النحو وإن كان التصريف مالبث مندساً فيه عند البصريين ، فان كتاب سيبويه وهو البقية الباقية بأيدينا من مؤلفات هذا الطور والمرآة التى تنكشف بها صورة التأليف فيه قد جمع بين الفنين

ولقد بهر العلماء أمر هذا الكتاب إذ قصرت هممهم عن مطاولته حيناً من الدهر فلم يروا إلا الطواف حوله تعليقاً عليه فى النواحي المختلفة شرحاً واختصاراً وانتقاداً واستدراكا ورداً وإعراباً للشواهد ، وكان لذلك أثره فى استبقاء الفنين معاً بحثاً وتصنيفاً مدة مديدة عند كثير من العلماء الذين انتضوا للتأليف فى كتبهم الخاصة بعد فاحتذوا حذو سيبويه ومزجوا بينهما واستمر ذلك طويلا حتى تخطى ابن مالك لمن بعده

أما الكوفيون فقد ألفوا فى بعض أبواب الصرف كتباً خاصة اعتناء بشأنها، لكن لم تصل تآليفهم إلى حد يجعل الصرف منفرداً عن النحو بالتأليف ، صنف الرؤاسى كتاب التصغير ، والكسائى كتاب المصادر ، والفراء كتاب فعل وأفعل ، ومع هذا فان النحو قد طفق يتخاص من الصرف ويستقل الصرف بالتأليف في مستهل الطور الآتى على ماسترى

الثالث طوَر النضوج والكمال (بصرى كوفى)

هذا الطور من عهد أبي عثمان المازنى البصرى إمام الطبقة السادسة ويعقوب بن السكِّيت الكوفي إمام الرابعة ، إلى آخر عصر المبرد البصرى شيخ السابعة ، وثعلب الكوفي شيخ الخامسة

لقد هيأ الطور السالف لهذا الطور الكمال والنضوج بفضل مابذل رجاله من جهد مضنٍ كان له الأثر الناجع في تخريج جمهرة من العلماء امتاز بها هذا الطور عن سابقيه فى كلا البلدين

ولقد شمر الجميع عن ساعد الجد ونزلوا الميدان تسوقهم العصبية البلدية وكان حادى عيسهم فى البصرة أبو عثمان المازنى وأبو عمر صالح الجرمى وأبو محمد التوزى وأبو على الجرمازى وأبو حاتم السجستانى والرياشى والمبرد وغيرهم ، وفى الكوفة يعقوب بن السكيت ومحمد بن سعدان وثعلب والطُوال وغيرهم ، وكثيراً ماجمعت الفريقين بغداد بين حين وآخر على تعصب كل لمذهبه وانتقال هذا التعصب لمن يشايعهما ، فكانت مناظرات وإفحامات تقض المضاجع وتحز فى النفوس حتى تلاقيا أخيراً وتوطنا بغداد على ضغن فى القلوب أذهبه تعاقب الأيام وانقراض المتنافسين شيئاً فشيئاً .

كل ذلك دعاهم إلى الانهماك والنشاط ، فأكملوا مافات السابقين وشرحوا مجمل كلامهم واختصروا ماينبغى وبسطوا مايستحق ، وهذبوا التعريفات وأكملوا وضع الاصطلاحات ، ولم يدعوا شيئاً منه إلا نظروه ولا أمراً من غيره إلا فصلوه ، فخلص النحو من الصرف

الذى بقى وحده متمسكا به فى التأليف إلى أول هذا الطور

وأول من سلك هـذا السبيل المازنى فقد ألف في الصرف وحده وشق ذلك الطريق لمن بعده ، ومن هذا الحين تشعبت مسالك التأليف فى العلوم العربية فمن مؤلف فى النحو وحده ومن مصنف فى الصرف وحده ومن خالط بينهما ، وقد رعى العهد القديم المبرد في كتابه الكامل الذى جمع فيه من كل دوحة غصناً ، فبينما يسبح فى الأخبار إذا هو يوافيك بالتحقيق اللغوى ثم إذا هو يباغتك بالاشكالات الغريبـة فى النحو ولا تكاد تنتهى منها حتى يطل عليك بالأدب الظريف ، إلا أن ذلك النهج قليل تلقاء ما كثر من مؤلفات مستقلة بالفروع العربية بعـد تميزها ، وكان أكثرها مصنفات فن النحو الذى قد تحولت لهجات التصنيف فيه عن ذى قبل بما وضع فيها من العبارات التأليفية والمصطلحات النحوية التى بقيت خالدة فى كتب النحاة إلى يومنا هذا ، وإنا لنرى ذلك واضحاً عند الموازنة بين كتاب سيبويه وبين مخلفات هذا الطور

لم ينسلخ هذا الطور حتى فاضت دراساته فى المدن الثلاث (البصرة والكوفة وبغداد) وما يصاقبها واغترف الجميع من منهله وبذلوا الجهود الجبارة فى استكماله والاحاطة بجميع قواعده (وكان لهم ما أرادوا) فاستوى النحو قائمـاً على قدميه ومثلت صورته بارزة للجميع وامتازت شخصيته وأوفى على الغاية التى ليس وراءها نهاية لمستزيد ولا مرتقى لذى همة ، فتمت أصوله وانتهى الاجتهاد فيـه بين الفريقين على يدى الامامين المبرد خاتم البصريين وثعلب خاتم الكوفيين ، روى ياقوت (قال لى أبو عمر الزاهد سألت أبا بكر بن السراج فقلت أى الرجلين

أعلم ثعلب أم المبرد فقال ما أقول في رجلين العالم بينهما)[1]

وكان بين الأمامين ما بين المتعاصرين من الأحن والأضغان ، ولكل منهما شيعته وأنصاره ، والعيون لهما رامقة ، فكانت المناظرات بينهما دائبة ، والغلب بينهما سجال ، ورحمة الله على الجميع

كانت نهاية هذا الطور الثالث طور النضوج والكمال فى أخريات القرن الثالث الهجرى بعد أن توافد الفريقان على بغداد أرسالا وهجرا المصرين عندما كثرت فيهما الاضطرابات وتوالت المحن من القرامطة والزنوج وعدا عليهما حدثان الدهر بعد أن أبليا فى سبيل هذا العلم بلاء حسناً خلده لهما الدهر فى صحائفه ، ومع ذلك فقد ظلت الحزبية قائمة إلا أنها آخذة فى الاضمحلال فان توحيد الوطن بينهما واتصالهما بالخلفاء والامراء والشعب البغدادى عاملان على تقويض دعائم الخلاف بينهما

وإنه لما يجمل بنا هنا أن نذكر كلمة موجزة تتعلق بالطورين الأخيرين (الثانى والثالث) نعرض فيها بعض المناظرات والمجالسات النحوية التى جرت بين البلدين فأنها حدثت فيهما فكانت سبباً فى آثارها المترتبة عليها

كلمة فى مناظرات الطورين (الثانى والثالث)

ان المتتبع لتراجم رجال الطورين في البلدين يرى أن كل واحد منهم قد خب فيها ووضع ، وأن المشادة بين الفريقين مافترت حيناً ، إذ كانت تثيرها الرغبة فى الوصول إلى الحقائق والاعتزاز بالنفس والعصبية للبلد والنمط العلمى ، والطمع فى نائل الخلفاء والامراء الذين ساهموا بقسط فيم فيها ،

---

(١) راجع معجم الادباء ترجمة ثعلب جـ ٥ طبعة دار المأمون

وكان أغلبها على أيديهم أو على كثب منهم وحكموا في كثير منها فنصروا وخذلوا ورفعوا وخفضوا ، كان لذلك كله أثره فى زج العلماء بأنفسهم فى هذه المعمعة التى كان يأمل كل واحد فيها أن يكون المجلى ، لأن هذا العلم حينذاك لما ينضج فى أغلب مسائله ولم يتخذ شكلا ولا صورة ثابتة يقف أمامها كل رائد مكتوف اليد بل كان يبدو لكل مالا يلمحه الآخر . وحجة هذا تناهض دليل ذاك لاختلاف الروايات وتفاوت المسموعات وتنوع العصبيات ، ولقد تطاير شررها من الخارج إلى الداخل فكانت مناظرات بين البصريين أنفسهم والكوفيين أنفسهم

إن المناظرات تصير حيث يصير العلم وحيث يصير العلماء . فحب الغلبة جبلى فى الانسان فى مظاهر الحياة المختلفة، فكيف العلم الذى هو أنبل الغايات وأسمى المقاصد ، نعم إذا كان مبعث المناظرات محض العلم فحبذا الغرض والمطلب ، لكنها فيما نحن فيه قد شيبت بالعصبية فكانت حربا ضروسا غير أنها محمودة المغبة على كل حال لما تسفر عنه من نتائج القرائح المكنونة ، فما نعمت اللغة وغنيت إلا من هذا السجال العلمى و (عند الصباح يحمد القوم السرى)

من مناظرات الطور الثانى

إن مناظرات الطور الثانى على كثرتها كان قطب رحاها فى الكوفيين الكسائي إذ كان دريئتهم وحامى حقيقتهم فنازل الأصمعى وسيبويه واليزيدى وغيرهم ولنقتصر فى هذا الطور على ثلاث منها

بين الكسائى والأصمعى

روى الزجاجي فى أماليه « كان الكسائي والأصمعى بحضرة الرشيد

وكانا ملازمين له يقيمان بأقامته ويظعنان بظعنه فأنشد الكسائى

أنى جزَوا عامرا سوأى بفعلهم أم كيف يجزوننى السوءى من الحسَن
أم كيف ينفع ماتعطى العَلوق به رئمان أنف إذا ماضُن باللبن

فقال الأصمعى إنما هو رئمان أنف بالنصب فقال له الكسائى اسكت ما أنت وذاك ، يجوز بالرفع والنصب والخفض ، أما الرفع فعلى الرد على ما لأنها في موضع رفع بينفع فيصير التقدير أم كيف ينفع رئمان أنف والنصب بتعطى والخفض على الرد على الهاء فى به قال فسكت الأصمعى)[1]

بين الكسائى وسيبويه

طمحت نفس سيبويه إلى الشخوص إلى بغداد أملا فى الحظوة عند الخلفاء والامراء ، فارتحل إليها وما يدرى ما خبأه الغيب له فرب ساع لحتفه ، وحق ما قال خليفة بن براز الجاهلى

---

١ راجع امالى الزجاجى ، والمناظرة مذكورة أيضا فى امالى ابن الشجرى ، ومعجم الأدباء ترجمة الكسائى ، والمغنى الباب الأول حرف أم ، وخزانة الأدب شاهد ٩٠٦ ، والعلوق الناقة التى ترأم البو وهو جلد الحوار يحشى تبنا أو ثماما ويقدم لها إيهاما انه ولدها عند فقده ثم لا تدر اللبن والرئمان مصدر لرئم كسمع سماعى وأضافه إلى الأنف لأنه مظهر حنوها ، والمعنى إنى لأعجب من قومى كيف يعاملون بنى عامر بن صعصعة بالشر فى مقابلة الخير ، واعجب من ذلك مكافأتهم لى وأنا ادافع عنهم ، وماذا يجدينى من وعودهم اللسانية مع انطوائهم على حرمانى وما حالهم معى إلا كهذه الناقة التى تعطف على البو بأنفها على حين ينكره قلبها فلا ترسل درها ، والبيتان من قصيدة لأفنون التغلبى شاعر جاهلى وهى من قصائد المفضليات ، وبيت المناظرة من شواهد النحاة على أم راجع شرح المفصل وشرح الرضي على الكافية والمغنى

والمرء قد يرجو الرجا ء مؤملا والموت دونه ١

ونزل ضيفاً عند يحى بن خالد البرمكي وزير هرون الرشيد ، فاعتزم يحى الجمع بينه وبين الكسائى بعد أن عرّف الرشيد جلية الأمر وعين لذلك يوما فى دار الرشيد ، فحضر سيبويه أولا وتلاقى مع الفراء وخلف الأحمر تلميذى الكسائى فسألاه وخطآه فى الاجابة وأغلظا له فى القول ، ويطول بنا الكلام ونخرج عن المقصود لو عرضنا لهذه الأسئلة وما أجيب به عنها وكل ذلك معروف فى كتب النحو المبسوطة ، فقال لهما لست أكلمكما حتى يحضر صاحبكما يعنى شيخهما الكسائى ، جاء الكسائى وغصت الدار بالحضور على مشهد من يحى وابنه جعفر ثم بدأ الكسائى الحديث وقال لسيبويه تسألنى أو أسألك ، فقال سيبويه سل أنت فقال له هل يقال كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزُنبور فاذا هو هى أو يقال مع ذلك فاذا هو إياها فقال سيبويه فاذا هو هى ولا يجوز النصب، فسأله عن أمثال ذلك فقال كله بالرفع ، فقال الكسائى العرب ترفع ذلك وتنصبه واحتدم الخلاف بينهما طويلا، فقال يحى قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما ، فقال الكسائى هؤلاء العرب ببابك وفدت عليك من كل صقع وقد قنع بهم أهل المصرين يحضرون ويسألون ، فقال يحى قد أنصفت واستدعاهم فتابعوا الكسائى فأقبل الكسائى على سيبويه وقال له قد تسمع أيها الرجل فاستكان سيبويه عند ذلك وانقبض خاطره ، فقال الكسائى ليحى أصلح الله الوزير إنه قدم اليك راغباً فان أردت ألا ترده خائباً فرق له يحى وجبر كسره ، فخرج من بغداد وتوجه تلقاء فارس يتوارى

١ ثماني بيتين نسبهما القاسم بن سلام له في كتاب الأمثال راجع خزانة الأدب ٧٣٤

من الناس من سوء ما لحقه، ولم يقدر أن يعود إلى البصرة وقد كان إمامها غير منازع فمات غما بفارس في ريعان شبابه وقال قرب احتضاره

يؤمل دنيـا لتبـقى له   فمـات المـؤمل قبل الأمل

حثيثا يُروى أصول النخيـ   ـل فعاش الفسيل ومات الرجل[١]

وقد رويت هـذه المناظرة على صور مختلفة ، ويرى جمهرة العلماء أن أصبع السياسة لعبت دوراً كبيراً في هذه الحادثة الخطيرة ، لأنها حكم بين البلدين لا بين الرجلين ، وما وافقت العرب الكسائي إلا لعلمهم أنه ذو حظوة عند الرشيد وحاشيته وهم على يقين أن الحق مع سيبويه ، على أنه روى أنهم قالوا القول قول الكسائي بايعاز رجال الدولة ولم ينطقوا بالنصب إذ لا تطاوعهم ألسنتهم ، ولذا طلب سيبويه أمرهم بالنطق بها لكنه لم يستمع له، قال الروداني (والذى لا ينبغى أن يشك فيه أن ذلك إذا ترك العربي وسليقته أما لو أراد النطق بالخطأ أو بلغة غيره فلا يشك في أنه لا يعجز عن ذلك وقد تكلمت العرب بلغة الحبش والفرس واللغة العبرانية وغيرها ، وأبو الأسود عربي وقد حكى قول ابنته لأمير المؤمنين علي: ما أشدُ الحر بالرفع ، فقول سيبويه في قصته مع الكسائي في مسألة كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزُنبور فاذا هو هي مرهم أن ينطقوا بذلك لا بد من تأويله ، كأن يقال المراد من لم يسمع مقالة الكسائي ولم يدر القصة أو نحو ذلك مما يقتضى نطقهم على سليقتهم الذى هو المعيار)[٢]

وبعد فان الحق مع سيبويه والقرآن الكريم أصدق شاهد له يقول

---

١ حثيثا مسرعا ، والفسيل النخل الصغير يقطع من أمه فيغرس ، واحدته فسيلة

٢ الصبان على الأشموني في الكلام على ما العاملة عمل ليس

الله تعالى (فاذاهى بيضاء للناظرين) وعلى نمط هذه الآية آى كثير، ولو ثبت النصب لكان خارجا عن القياس واستعمال الفصحاء، ولذا تمحل النحويون فى تخريج هذا النصب على أوجه ثم تعقبوها، ذكر بعضها الرضى فى شرح الكافية باب الظروف، وأفاض القول فيها الأعلم الشنتمرى ونقل كلامه المقرى في نفح الطيب في فصل برأسه فى الجزء الثانى عنوانه (المسألة الزنبورية)، وأجاد التفصيل لها ابن هشام في المغنى الباب الأول مبحث (إذا) فذكر أوجها خمسة مع التعقيب على كل وجه بما يفنده، وخلاصة هذه الأوجه: الأول أن الظرف وهو إذا نصب الضمير لأن فيه معنى وجدْت، والثانى أن الضمير استعير من مكان ضمير الرفع، والثالث أن الضمير مفعول به والأصل فاذا هو يساويها، والرابع أن الضمير مفعول مطلق والأصل فاذا هو يلسع لسعتها، والخامس أن الضمير منصوب على الحال من الضمير فى الخبر المحذوف والأصل فاذا هو ثابت مثلها، وقد جمع هذه الأوجه الخمسة مع الاختصار الجوهرى فى هذا النظم

وفى ضمير النصب تاليا إذا ... تعدد التوجيه فادر المأخذا
مفعولها أو نائب المرفوع ... أو نصبه بفعله المقطوع
أو أنه مفعول فعل مطلقا ... أو معرب حالا أنيب فارتقى [1]

والخطورة هذه المناظرة نوهت عنها أغلب كتب الأدب والتراجم والتاريخ فقد ذكرت فى أمالى الزجاجى، كما ذكرت فى ترجمة سيبويه فى طبقات الزبيدى والفهرست ونزهة الألبا ووفيات الأعيان ومعجم الأدباء غير أنها ذكرت مرة أخرى فى معجم الأدباء ترجمة الكسائى، وقد نوه عنها

---

١ هذه الأبيات فى تقرير الانبابى على الصبان المبحث السابق

حازم الأنصارى في منظومته النحوية المشهورة معترفاً لسيبويه بالحق ومنددا بغلبة الكسائى دون نصفة وعدالة . وعرض لها السيوطى فى الأشباه والنظائر أول الفن السابع (فن المناظرات والمجالسات الخ) فى الجزء الثالث

وأئن ظفر الكسائى بسيبويه فى هذه المناظرة ظلما لقد ثئر له منه على يد اليزيدى فى المناظرة الآتية التى اندحر فيها الكسائى

بين الكسائى واليزيدى

قال العسكرى (اجتمع الكسائى واليزيدى عند الرشيد ، فجرت بينهما مسائل كثيرة ، فقال له اليزيدى : أتجيز هذين البيتين ؟

ما رأينا خربا نقـ ـقر عنه البيض صقرُ
لايكون العير مهرا لا يكون المهر مهر

فقال الكسائى يجوز على الأقواء وحقه لا يكون المهر مهرا ، فقال له اليزيدى فانظر جيداً ، فنظر ثم أعاد القول ، فقال اليزيدى لا يكون المهر مهرا محال فى الاعراب ، والبيتان جيدان ، وإنما ابتدأ فقال المهر مهر ، وضرب بقلنسوته الأرض وقال أنا أبو محمد : فقال له يحى بن خالد خطأ الكسائى مع حسن أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء أدبك ، أتكتنى قدام أمير المؤمنين وتكشف رأسك ؟ فقال إن حلاوة الظفر وعز الغلبة أذهبا عنى التحفظ) [1]

١ راجع كتاب التصحيف والتحريف ما وهم فيه الكسائى ، وذكرت هذه المناظرة أيضا في معجم الأدباء ترجمة الكسائى وفى وفيات الأعيان ترجمة اليزيدى وفى شرح درة الغواص الوهم ٣٠ ، والخرب ذكر الحبارى ، ونقر نقب البيض لخروج الفرخ ، والشطر الأول من البيت الثانى تمثيل للايضاح و (لا يكون) فى أول الشطر الثانى تأكيد لفظى وما بعده تأكيد معنوى ، وفى أمالى الزجاجى مناظرات اخرى جرت بينهما ، وكذا فى الأغانى أخبار اليزيدي جـ ١٨ طبع الساسي ، والأشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرات والمجالسات الخ جـ ٣

من مناظرات الطور الثالث

ومن أشهر المناظرات فيه مناظرات المبرد وثعلب ولنكتف بواحدة منها

بين المبرد وثعلب

اختلف المبرد وثعلب بحضرة الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الذى كان ينفق معظم وقته فى البحوث العلمية وكان يهوى المناظرات، فكثر ما جمع لها بين علماء الفريقين البصرى والكوفى، فى قول امرىء القيس

لها متْنتان خظاتا كما   أكبّ على ساعديه النمِر [1]

فقال ثعلب إنه خظتا كما يقال غزتا إلا أنه رد الألف التى كانت ساقطة فى الواحد لتاء التأنيث الساكنة لما تحركت التاء لأجل ألف التثنية، ومسوغ ذلك ضرورة النظم، وقال المبرد إنه خظاتان فحذف نون المثنى للاضافة إلى ما بعده، فثعلب يرى أن الكلمة فعل وأن الألف الثانية فيها اسم، والمبرد يخالفه فى الامرين فالكلمة اسم والألف الثانية حرف علامة المثنى، أما الألف الاولى عندهما فهى لام الكلمة سواء أكانت فعلا كما يرى ثعلب أم اسما كما يرى المبرد، ولما طال تلاحيهما بحضرة الامير قال ثعلب للأمير أيصح أن يقال مررت بالزيدين ظريفى عمرو؟ فقال لا والله ما يقال هذا، ثم التفت إلى المبرد فأمسك ولم يقل شيئاً ثم قام من المجلس

---

[1] المتنتان فى القاموس متنا الظهر مكتنفا الصلب، وخظاتا ان كانت فعلا فالفعل من باب سما وفى القاموس خظا لحمه اكتنز، وإن كانت اسما مثنى فالمفرد خظاة وفى الصحاح لحم خظاة بظاة مكتنز، وقوله كما أكب على ساعديه النمر يريد لها متنتان كساعدى النمر البارك فى صلابتهما، والبيت فى وصف فرسه وهو من قصيدة طويلة ذكرت أول الديوان المطبوع شرح أبى بكر عاصم، وشرح مقدار منها فى شرح شواهد المغنى للسيوطى الباب الأول حرف لا وفى خزانة الأدب شاهد ٧٢٠

مقهورا ، قال الزبيدى (القول ماقال المبرد وإنما سكت لما رأى من بله القوم وقلة معرفتهم وقوله مررت بالزيدين ظريفى عمرو جائز جداً)[١]

وقال ياقوت (لا أدرى لم لا يجوز هذا ؟ وما أظن أحدا ينكر قول القائل رأيت الفرسين مركوبى زيد ، ولا الغلامين عبدى عمرو ، ولا الثوبين دراعتى عمرو ، ومثله مررت بالزيدين ظريفى عمرو ، فيكون مضافا الى عمرو وهو صفة لزيد وهذا ظاهر لكل متأمل)[٢]

ومع استصواب الزبيدى لرأى المبرد واستظهار ياقوت له فالنفس لا تستريح إليه كما يظهر ذلك بأدنى تأمل

ومن العجب الذى يسترعى النظر أن هذا البيت نفسه قد وقع فيه الخلاف سابقا قبل المبرد وثعلب على هذا النحو بين الكسائى والفراء ، وكان رأى الكسائى فيه ما قال ثعلب في المناظرة ؛ ورأى الفراء فيه ماقال المبرد فيها غير أن الفراء اعتبر حذف النون فى المثنى لضرورة النظم لا للأضافة كما قال المبرد ، وعلى هذا ففى توجيه البيت أقوال ثلاثة ، وتخريج الفراء مقبول وإن لزمته ضرورة حذف النون فأن مقابله وهو تخريج الكسائى قد لزمه ضرورة عود لام الفعل فقد تساوى الرأيان والتكافؤ بينهما قائم ، وقد عرض لهما في البيت ابن يعيش فى شرح المفصل قسم الحروف مبحث

---

١ راجع طبقات الزبيدى ترجمة ثعلب وقد ذكرت فيها المناظرة بالتفصيل وفى نهايتها تلك العبارة التى بين رأيه الخاص فيها ، وقد نقل ذلك بحروفه السيوطى فى الأشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرات والمجالسات الخ

٢ راجع معجم الأدباء ترجمة ثعلب جه وقد ذكرت فيه المناظرة أيضا بالتفصيل وفي نهايتها رايه الخاص المذكور ، وقد ذكر السخاوى فى سفر السعادة عبارة ياقوت بنصها وفصها

تاء التانيث الساكنة وابن هشام فى المغنى الباب الأول مبحث (كل) وقد استشهد بالبيت الرضى فى شرح الشافية مبحث التقاء الساكنين على نمط رأى الكسائى ، وكتب على البيت شارح شواهده البغدادى فأوفاه حقه ونقل كل ما قيل فيه من خلاف بين الكسائى والفراء ومن مناظرة بين المبرد وثعلب مع الاسهاب المفيد فى الشاهد الثالث والثمانين ، وموطن العبرة في هذا المقام أن بيتا يحدث فيه خلاف بين السابقين مشهور متعالم تتناقله الكتب أخيرا ثم تجد في البيت نفسه مناظرة يخفق فيها أحد المتناظرين وتتناقلها كتب أخرى ، وبعدئذ يدع العلماء المسألة على أذلالها دون تمحيص فيها يتبين منه جلية الأمر ، ومن ثم ترى انفساح الميدان للأقاويل والخلافات ، وربما لو تكشفت الحقائق الاولى بصورة واحدة وتناولها كل من تناولها وهى هى دون نقص أو زيادة أو تحريف ، وتكشفت مع هذا أيضاً آراء العلماء بعضهم لبعض لتغير مجرى العلم فى كثير من المسائل ، وإنك لتأخذ من ذلك مثلا من الأمثال فى عدم الوقوف على حقائق المسائل ، إذ ليس فى وسع كل كاتب ومؤلف أن تكون كل الرغائب فى مكنة يده وتحت بصره فللكاتب بعدئذ العذر فيما يكتب أو يملى إذ يعتمد على معيار تفكيره ومنطقه ، وعلى كل حال فجزى الله السابقين عن أهل العلم خير الجزاء

هذا ، ويقرب من المناظرات شأنا وإن غايرها اتجاها ما يعرف عند المؤرخين بالمجالسات ولقد كان يجرى فيها التساؤل فيما دق من المسائل عرضا ، لذا حرص على تدوينها المتأدبون بل كتبت فيها أسفار خاصة كمجالس أبى مسلم ولنذكر واحدا منها مما جرى فى هذا الطور كضرب مثل

مجالسة الرياشي وثعلب

قال ياقوت (قال أبو العباس ثعلب كنت أسير إلى الرياشي لأسمع منه وكان نقى العلم فقال لى يوما وقد قرئ عليه

ما تنقم الحرب العوان ُ منّى　　بازل عامين حديث سنى

لمثل هذا ولدتنى أمى

كيف تقول بازلُ أو بازلَ فقلت أتقول هذا في العربية إنما أقصدك لغير هذا يروى بازلُ أو بازلَ أو بازلِ الرفع على الاستئناف والخفض على الاتباع والنصب على الحال فاستحيا وأمسك)[١] — وقد نقل هذه المجالسة ابن هشام فى المغنى فى الباب الأول مبحث أم . نعم استشهد ثانيا بهذه الأبيات في الباب الثامن القاعدة الأولى (إعطاء الشيء حكم ما أشبهه فى اللفظ) على إعطاء الحرف حكم مقاربه فى المخرج حتى يقعا رويين كما في الأبيات ، كما نقل هذه المجالسة السيوطى في الأشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرات والمجالسات الخ ، وإيضاح هذا الاعراب أن الرفع على أنه خبر أنا محذوفة والجملة مستأنفة والخفض على البدلية من ياء المتكلم بدل كل من كل إلا أنه

---

١ معجم الأدباء ترجمة ثعلب ، العوان . فى القاموس العوان كسحاب من الحروب التى قوتل فيها مرة والبازل اسم فاعل من بزل البعير إذا طلع نابه وذلك فى تاسع سنيه ويطلق أيضا على الرجل الكامل فى تجربته وعليه فلا تشبيه فى البيت والشعر لأبى جهل قاله يوم بدر أو تمثل به وكان مغرورا مأفونا اكذبه الله اذ كان فى هذه الموقعة هلاكه والأبيات مذكورة فى الكامل مع الرغبة ج ٦ ص ٢٢٧ وفى سيرة ابن هشام غزوة بدر

يرد على هذا أن بدل الظاهر من ضمير المتكلم لا يكون إلا حيث تكون الاحاطة والشمول نعم إذا جرينا على مذهب الاخفش المبيح للبدلية بدون شرط فلا بأس والنصب على أنه حال من ياء المتكلم

وبحسبنا هذا المقدار من المناظرات والمجالس ومن أراد أن يتزيد فعليه الرجوع الى الأشباه والنظائر للسيوطى ففى (الفن السابع فن المناظرات والمجالسات والمذاكرات والمراجعات والمحاورات والفتاوى والواقعات والمكاتبات والمراسلات) فى الجزء الثالث منها ما يشبع النهم

بقى علينا أن نعود إلى المقصود بالذات فنتكلم على ما يتعلق بمشاهير البصريين والكوفيين فى طبقاتهما وأسباب الخلاف بين الفريقين ، وتغاير اتجاههما ، وحكمة تخصص كل منهما باتجاهه ، ونتائج هذه الفروق ، والموازنة بين المذهبين ، فأن ذلك متصل بالأطوار الماضية

مشاهير البصريين والكوفيين

جدير بمن يريد أن يفقه النحو على الوجه المرضى أن يتعرف تاريخ النحاة القدامى ويقف على طبقاتهم التى انضووا إليها وترتيب هذه الطبقات بحسب الزمن منذ تدوينه إلى منتهى الاجتهاد فيه ، وحبذا لو استكمل نفسه بمعرفة طبقات المتأخرين إذ بذلك كله تنكشف له تطورات هذا الفن ويقر فى نفسه صحة انتساب القول لقائله ويدرك وجه الرد عليه ويتفهم حكمة الموافقة له وعلة مخالفته حتى لكأنه معهم يستمع بنفسه ويرحل من بلد إلى آخر معهم

ولا جرم أن المعلومات إذا ارتبطت بمعرفة مصادرها رجالا وزمانا

ومكانا تلقفتها العقول بالقبول ورسخت فى الحوافظ إذ نفذت إليها من سبيلها المنير ، فلا تختلط مسائله ولا تضطرب الآراء فيه على الطالب حتى يكون كضال في مهمه مشتبه الأعلام مغبر الأرجاء ، قال أبو الطيب بعد كلام طويل أنحى فيه باللائمة على من يجهل الرجال وترتيبهم وسرد كثيراً من الأمثلة فى ذلك مانصه (ولقد بلغنى عن بعض من يختص بهذا العلم ويرويه ، ويزعم أنه يتقنه ويدريه ، أنه أسند شيئاً فقال عن الفراء عن المازنى ، فظن أن الفراء الذى هو بأزاء الأخفش كان يروى عن المازنى ، وحدثت عن آخر أنه روى مناظرة جرت بين ابن الاعرابى والأصمعى ، وهما ما اجتمعا قط ، وابن الاعرابى بازاء غلمان الأصمعى وإنما كان يرد عليه بعد ، وحرىّ بمن عمى عن معرفة قوم أن يكون عن علومهم أعمى وأضل سبيلا)[١]

لهذا سنذكر علماء البصرة والكوفة فان هذا العلم إنما نشأ ونما وازدهر فيهما دون غيرهما من سائر الأمصار الاسلامية فلم يكن بالحجاز ولا الشام شيء يذكر من النحو واللغة بجانب مافى العراق ، أما الحجاز فأن بنى أمية قد أغدقوا على أهل المدينة ومكة العطايا المتدفقة من خزائن الشام خشية قيام من بهما من الهاشميين وأبناء الصحابة بالمطالبة بالخلافة ووسعوهم بالحلم حتى أخلدوا إلى التمتع بلذائذ الدنيا ونبغ فيهم المغنون وأهل القصف وصدفوا عن النظر إلى هذا العلم ، واستمر ذلك دأبهم في خلافة العباسيين ، وأما الشام فان دمشق صارت دار الخلافة والملك ، وقد عرفت آنفاً أن وضع هذا العلم في البصرة ونشوءه فى البصرة والكوفة ،

---

(١) مراتب النحويين ونقل فى المزهر أول النوع الرابع والاربعين

قال أبو الطيب (ولا علم للعرب إلا فى هاتين المدينتين ، فأما مدينة الرسول فلا نعلم بها إماما فى العربية ، قال الأصمعى أقمت بالمدينة زمانا ما رأيت بها قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة ، وكان بها ابن دأب يضع الشعر وأحاديث السمر وكلاما ينسبه إلى العرب فسقط وذهب علمه وخفيت روايته « وهو عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب يكنى أبا الوليد وكان شاعراً وعلمه بالأخبار أكثر » ... وممن كان بالمدينة أيضاً علىّ الملقب بالجمل وضع كتاباً فى النحو لم يكن شيئاً .. وأما مكة فكان بها رجل من الموالى يقال له ابن قسطنطين شدا شيئاً من النحو ووضع كتاباً لا يساوى شيئاً)[1]

وفى الحق أن العراق (وبه البصرة والكوفة) يجب أن يتقدم البلاد الاسلامية فى هذا العلم إذ كان قبل الفتح الاسلامى موطن العجم ، وبعده قد انثال عليه المسلمون من كل صوب لأنه أخصب البلاد الاسلامية وأنضرها فى الصدر الأول تضامّت فيه أسباب رفاهية الحياة ورغد العيش ، فاستوطنه العرب والعجم ونعموا جميعاً بخيراته الوفيرة فظهرت أرزاء اللحن فاشية فيه ظهوراً لا مثيل له فى سائر البلاد مما تقاضى أهل العلم والمعرفة أن يتلافوا الأمر قبل تفاقمه

يضم إلى هذا أن العراقيين ذوو عهد قديم بالعلوم والتأليف ولهم خبرة فيهما متوارثة تليدة وفيهم شغف وميل إلى تعرف الوسائل التى تقوّم أود لسانهم وتنقلهم إلى مصاف إخوانهم العرب ، فمن هذا وذاك نبتت نابتة هذا الفن فى العراق وترعرعت فيه إذ ما كان على أهله بعد هذا الاقتضاء إلا أن يطبقوا قواعد هذا الفن الحديثة على منوال ما نسجوا عليه

(١) مراتب النحويين ونقل في المزهر المبحث السابق

قديماً فى تعاليمهم وينهجوا فيها على غرار ما ألفوه فى نظمهم وتلك خطة مستطاعة

وإننا حين نريد الحديث عن رجال هذا العلم فى العراق فإنما نريد بالعراق البصرة والكوفة لا بغداد ، لأنهما قد تأسستا فى فجر الاسلام فكان بهما مولد النحو ومهده ومدرجه ، أما بغداد فان تخطيطها في صدر الدولة العباسية التى اتخذتها مقر خلافتها كما اتخذت الدولة الأموية دمشق مقر خلافتها ، فتبوأت بغداد مكانة دمشق وصارت مدينة الخلافة والملك كما كانت سالفتها دمشق فلم يتقدم ببغداد الزمن حتى تشاطر أختيها البصرة والكوفة مزاولة هذا العلم ، قال أبو الطيب) وأما بغداد فمدينة ملك وليست بمدينة علم وما فيها من العلم فمنقول إليها ومجلوب للخلفاء وأتباعهم)[1]

وسنبدأ بذكر طبقات البصرة قبل الكوفة إذ أن البصرة كما عرفت استأثرت بهذا العلم زهاء مائة عام ثم تعاصرتا فكانت الاولى الكوفية والثالثة البصرية ، حتى الخامسة الكوفية ، والسابعة البصرية اللتان توطنتا بغداد ، ثم كان البغداديون والأندلسيون والمصريون والشاميون

والنظر فى تعاقب طبقة لأخرى يرجع إلى الهيئة العامة فيهما فربما أخذ واحد أو أكثر من طبقة عن واحد أو أكثر من طبقة سابقة ، لا أن يأخذ كل عن كل فالمنظور اليه المجموع لا الجميع ، ولكتاب التراجم فى فريقى البصريين والكوفيين مخالفات فى عد الطبقات نشأ عنها اختلاف فى وضع بعض الرجال ببعضها ، ولعل مبعث هذا التلاحق الزمنى وتقارب المعاصرة دون حد ظاهر فاصل بين كل طبقة وأخرى ، على أنه ليس لهذا

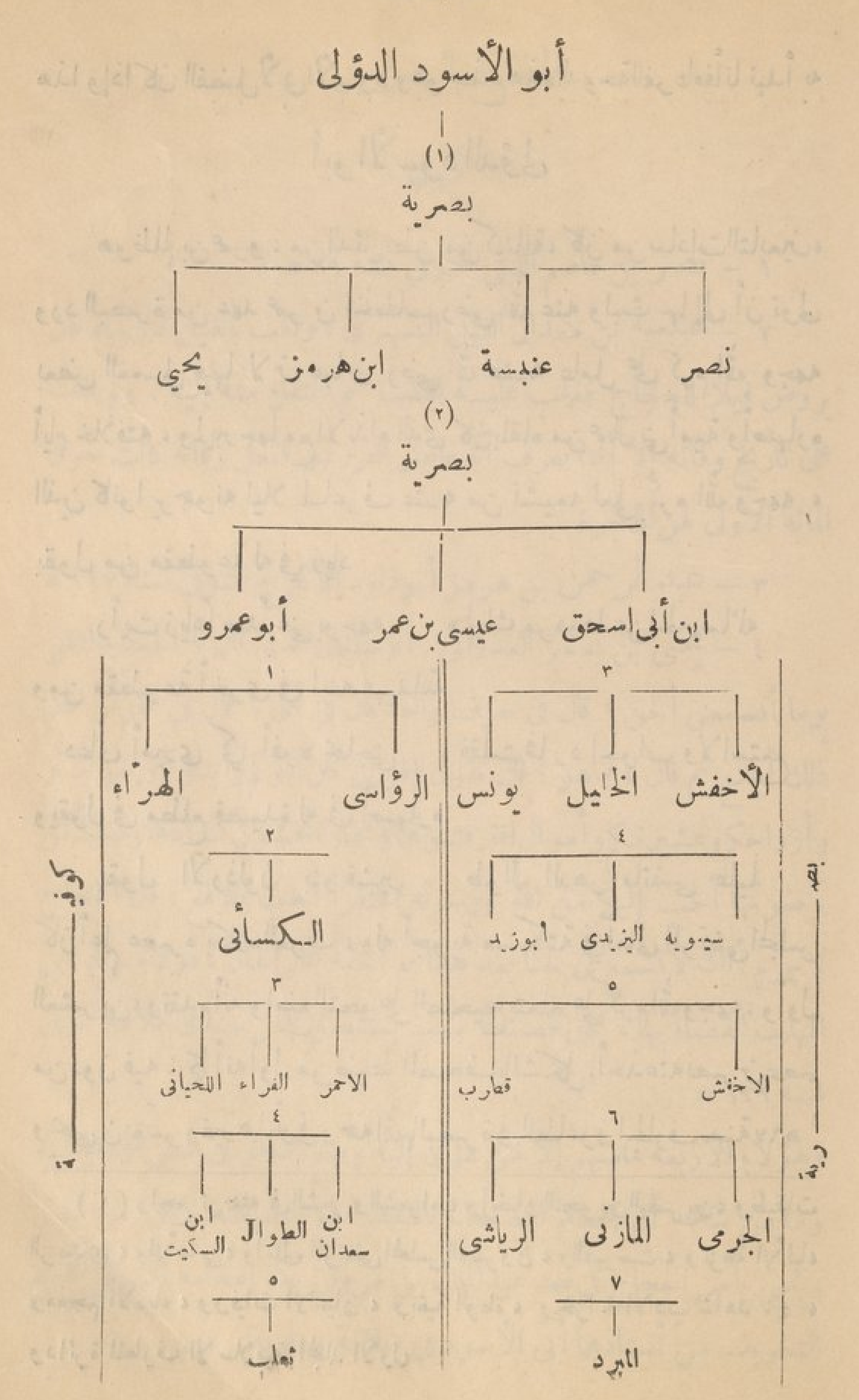
---

(١) مراتب النحويين ومنقولة فى المزهر المبحث الماضي

الاختلاف من أثر ، وأول من صنف فى الطبقات أبو العباس المبرد وضع كتابا فى علماء البصريين ، ثم ألف بعده ابن دريد كتابه أخبار النحويين ، ثم صنف بعده أبو الطيب اللغوى كتابه مراتب النحويين ، ثم ألف بعده السيرا فى كتابه أخبار النحويين البصريين ، ثم دون بعده الزبيدى كتابه طبقات النحويين واللغويين من البصريين والكوفيين ، ثم صنف بعده الأنبارى كتابه نزهة الألبا في طبقات الأدبا ، ثم ألف القفطى بعده كتابه أنباء الرواه فى أخبار النحاه ، ثم أطرد التأليف بعدئذ وظهرت كتب لا حاجة لذكرها ، وقد عولنا على ما اشتهر بينهم فى الطبقات كما اقتصرنا على مشاهير الرجال فى كل طبقة

ولقد التزمتُ مع العلماء الذين جرى التعريف عنهم في الكتب النحوية بلقب أو كنية مع التغافل عن الاسم الأصلى أن أذكر اسمهم الحقيقى مع ما اشتهروا به من كنية أو لقب حتى يسهل على الراغب الكشف على ما يحب الاطلاع عليه منها في كتب التراجم والمعاجم : فان أغلبها مرتب على حسب الحروف الأبجدية باعتبار الأسماء أنفسها بينما المعروف الشائع على الألسنة إنما هو هذه الألقاب وتلك الكنى ، وهكذا سأصنع مع جميع العلماء الذين سأعرض لهم فى الطور الرابع إن شاء الله

فكم يلاقى الطالب من النصب واللغوب إذا هو حاول تعرف تاريخ واحد من هؤلاء وهو لم يقف على اسمه الحقيقى فربما ضاع عليه من الوقت الذهبي آناء كان فى فسحة عن إضاعتها ، وكل طرفه وتصدع رأسه وهو ما يزال ينشد ضالته — وهاك جدولا فيه طبقات الفريقين ، تتبين منه إجمالا أسبقية البصريين ، وانفراد الفريقين بعد الاشتراك ، وأشهر العلماء منهما


أبو الأسود الدؤلى
(١)
بصرية
نصر
عنبسة
ابن هرمز
يحيى
(٢)
بصرية
ابن أبي اسحق
عيسى بن عمر
أبو عمرو
٣
الأخفش
الخليل
يونس
١
الرؤاسى
الهراء
٤
سيبويه
اليزيدى
أبوزيد
٢
الكسائى
٥
الاخفش
قطرب
٣
الاحمر
الفراء
اللحيانى
٦
الجرمى
المازنى
الرياشى
٤
ابن سعدان
الطوال
ابن السكيت
٧
المبرد
٥
ثعلب
كوفية
بصرية

هذا وإذا كان الفضل لأبي الأسود وهو جذع هذه الدوحة الفرعاء فأنا نبدأ به

أبو الأسود الدؤلي

هو ظالم بن عمرو ، من الدئل بطن من كنانة ، كان من سادات التابعين ، ورد البصرة من عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولبث بها إلى أن تولى بعض العمل فيها لابن عباس رضى الله عنه عامل على كرم الله وجهه أيام خلافته ، ولم يبرحها مع الايذاء الذى كان يلقاه من عمال بنى أمية وأصهاره الذين كانوا يرجمونه ليلا لما عرف عنه من تشيعه لعلى كرم الله وجهه ، يقول من مقطوعة له في زياد

رأيت زياداً صدّ عني بوجهه ولم يك مردودا عن الخير سائله

ومن مقطوعة أخرى في ابنه عبيد الله

دعاني أميرى كي أفوه بحاجتي فقلت فما رد الجواب ولا استمع

ويقول فى مطلع قصيدة له فى أصهاره

يقول الأرذلون بنو قشير طوال الدهر ماتنسى عليا

كان أعلم عصره بكلام العرب ، وله أجوبة مسكتة في أمالى المرتضى المجلس العشرين ، وتقدم أنه واضع النحو على الصحيح بتعليم على كرم الله وجهه ، وأول من دون فيه ، كما أنه أول من ضبط المصحف بالشكل . أخذ عنه نصر بن عاصم ويحيي بن يعمر وغيرهما ، توفى رحمه الله بالبصرة فى الطاعون الجارف سنة ٦٧ هـ [1]

---

(١) راجع ترجمته فى الشعر والشعراء ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات الزبيدى ، والأغانى ، وأمالى المرتضى المجلس العشرون ، والفهرست ، ونزهة الألباء ، ومعجم الادباء ، ووفيات الاعيان ، وبغية الوعاة ، وخزانة الادب شاهد ٤٠ ، ودائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول

طبقات البصريين

الأولى

١ - نصر بن عاصم الليثى المتوفي سنة ٨٩ هـ

٢ - عنبسة بن معدان الفيل المَهْرى ، ولقب بالفيل لأن أباه كان يروض فيلا للحجاج فغلب عليه اللقب ثم انتقل منه إليه ، ولم نقف على تاريخ وفاته إلا أننا نعرف أنه عاصر الفرزذق فلعل وفاته كانت حول المائة الأولى من الهجرة

٣ - عبد الرحمن بن هرمز أبو داود الأعرج المتوفى سنة ١١٧ هـ

٤ - يحى بن يعْمَر العدوانى : أبو سليمان الذى قال له الحجاج الثقفى يوما أتسمعنى ألحن ؟ قال فى حرف واحد قال في أى ؟ قال في القرآن قال ذلك أشنع ثم قال له ماهو ؟ قال تقول (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله) فتقرأ أحب بالرفع ، قال الحجاج لاجرم أنك لاتسمع لى لحنا بعد هذا ثم ألحقه بخراسان ، فولاه يزيد ابن المهلب القضاء بها ، كان فصيحاً بليغاً يستعمل الغريب فى كلامه توفى سنة ١٢٩ هـ

وهؤلاء الأربعة مامنهم إلا من عزى إليه وضع النحو فى بعض الروايات ، وما من شك أن إعجام المصحف بالنقط لدفع التصحيف كان من نصر ويحي بأمر الحجاج فى عهد عبدالملك بن مروان بعد إعجامه بالشكل لدفع التحريف من أستاذهما أبى الأسود فى خلافة معاوية

الثانيـــة

١ ابن ابى إسحق : هو أبو بحر عبد الله بن أبي اسحق زيد الحضرمى البصرى اشتهر بكنية والده وكان مولى آل الحضرمى، أخذ عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر ، وجد فى هذا العلم حتى بلغ الغاية فيه ، سئل عنه يونس فقال : هو والنحو سواء ، كان أول من عال النحو كما كان شديد التجريد للقياس والعمل به كما سلف ، وعاصره عيسى بن عمر الثقفى ، وأبو عمرو ابن العلاء ، وجمع بينه وبين أبى عمرو بلال بن أبى بردة عامل البصرة من قبل خالد القسرى والى العراق لهشام بن عبدالملك ، كان كثير السؤال للفرزدق (قال ابن هشام قد حضر يوما مجلس عبدالله فقال له كيف تنشد هذا البيت

وعينان قال الله كونا فكانتا   فعولان بالألباب ماتفعل الخمر

فأنشده فعولان فقال له عبدالله ما كان عليك لو قلت فعولين، فقال الفرزدق لو شئت أن أسبّح لسبحت ونهض فلم يعرفوا مراده فقال عبدالله لو قال فعولين لأخبر أن الله خلقهما وأمرهما ولكنه أراد أنهما تفعلان ماتفعل الخمر)[1]
ثم تدرج الأمر بعبد الله إلى إعنات الفرزق فى شعره نفسه إذ عابه فى قوله

وعض زمان يابن مروان لم يدع   من المال الا مسحتا أو مجلّف[2]

---

(١) راجع الاشباه والنظائر الفن السابع فن المناظرت والمجالسات الخ ، والبيت من قصيدة طويلة لذى الرمة

(٢) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة المقدمة نقد الشعر ، عض الزمان شدته ، والمسحت المستأصل ، والمجلف الباقى منه بقية ، والاشكال فى البيت مبنى على فتح الدال فى يدع ونصب مسحت ، وقد خرج العلماء رفع مجلف حينئذ على أوجه منها ماقال ابن يعيش فى شرح المفصل باب العلم المنقول ج ١ وباب الاعلال فى الواو

فقال له بم رفعت أو مجلف ؟ فقال له بما يسوءك وينوءك ، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا ، كما عابه فى قوله

مستقبلين شَمال الشام تضربنا بحاصب كنديف القطن منثور
على عمائمنا يُلْقَى وأرحلُنا على زواحفَ نُزْجى مخُها رير [1]

فقال إنما هو رير بالرفع وإن رفع أقوى . فوجد عليه الفرزدق وقال أما وجد هذا المنتفخ الخصيين لبيتى مخرجا في العربية ؟ أما إنى لو أشاء لقلت

على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحف نزجيها محاسير

ولكنى والله لا أقوله ، ثم هجاه بقوله

والياء لام بن ج ١٠ : إنه معطوف على المنصوب بملاحظة المعنى ، اذ كأنه قال بقى مسحت ، ومنها وجهان آخران ذكرهما الرضي فى شرح الكافية آخر عطف النسق ، أما على رواية كسر الدال فى يدع ورفع مسحت كما قال ابن جنى فى الخصائص باب القول على الاطراد والشذوذ فلا إشكال ومعنى يدع حينئذ يسكن ، وقد أحاط بنقل ما تقدم مع التفصيل والزيادة عدا نسبة القول لا بن يعيش البغدادى فى الخزانة شاهد ٣٥٧ ، والبيت من قصيدة طويلة من النقائض فى مدح عبد الملك مع أنه ليس فيها ما يتصل بالمدح إلا هذا البيت مع آخر قبله ، فان ما قبلهما نسيب وما بعدها فى كلال الابل والفخر بآبائه على جرير ، والقصيدة مذكورة فى جمهرة أشعار العرب باب الملحمات

(١) راجع الشعر والشعراء المبحث السابق ، وأخبار النحويين البصريين ترجمة عيسى ، الشمال الريح المعلومة ، والحاصب الريح التى تثير الحصباء ، والزواحف جمع زاحفة الابل التى أعيت فجرت فراسنها ، ونزجى نسوق ، ورير فاسد ذائب من الهزال . وقد تكلف بعض العلماء تصحيح الجر لرير بأن الاصل على زواحف رير مخها وهو كما ترى . ولذا اعترف الفرزدق مع المكابرة فقال نزجيها محاسير ، والمحاسير جمع محسور أي متعب . والبيتان من قصيدة فى مدح يزيد بن عبد الملك وهجاء يزيد بن المهلب

ولو كان عبـد الله مولى هجوته ولكن عبـد الله مولى مواليا[١]

فقال عبد الله عذره شر من ذنبه فقد أخطأ أيضاً والصواب مولى موال ، توفى سنة ١١٧ هـ

٢ ـ عيسى بن عمر الثقفى البصرى هو أبو سليمان مولى خالد بن الوليد أخذ عن ابن أبى اسحق وغيره وكان مولعاً بالغريب والتشادق ، استودعه بعض أصحاب خالد القسرى والى العراق لهشام وديعة فلما نزع خالد عن ولاية العراق وتقلدها يوسف بن عمر الثقفى استدعاه من البصرة لأخذ الوديعة فأنكرها ، ولما اشتدعليه ضرب السياط جعل يقول (والله إن كانت إلا أثيّابا في أسيفاط قبضها عشاروك) وروى أن الضارب له عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق قبل خالد بن عبدالله ، وقد لزمته علة من ذلك الضرب بقية حياته ، وهو صاحب الكتابين المشار اليهما سابقاً ، توفى سنة ١٤٩ هـ[٢]

٣ ـ أبو عمرو بن العلاء : هو زبان بن العلاء بن عمار التميمى المازنى قال ياقوت (واختلف في اسمه على أحد وعشرين قولا والصحيح أنه زبان

---

(١) راجع الشعر والشعراء ، وأخبار النحويين البصريين ، ونزهة الألبا ، والمولي الحليف ولايحالف إلا الذليل فالمعنى لوكان ذليلا لهجوته ولكنه أذل من الذليل لانه حليف الحضرميين وهم حلفاء بنى عبدشمس ، والتخطئة فى البيت معروفة فى النحو باب مالاينصرف راجع سيبويه جـ ٢ ص ٥٨ وشرح المفصل والرضي على الكافية راجع الخزانة شاهد ٣٥

(٢) راجع ترجمته فى مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات الزبيدى ، والفهرست ، ونزهة الألبا ، ومعجم الادباء ، ووفيات الاعيان ، وبغية الوعاة ، وخزانة الادب شاهد ٩ وقد ذكرت عبارته الغريبة أيضا فى غير المصادر السابقة راجعها فى مقدمة أدب الكاتب ، وعيون الاخبار كتاب العلم والبيان التشادق والغريب مجلد ٢

لما روى أن الفرزدق جاء معتذراً إليه من هجو بلغه عنه فقال له أبو عمرو

هجوتَ زبان ثم جئت معتذراً   من هجو زبان لم تهجو ولم تدع

فاعتذر إليه الفرزدق ومدحه بمقطوعة منها قوله

مازلتُ أفتح أبوابا وأغلقها   حتى أتيت أبا عمرو بن عمار [١]

أخذ النحو عن نصر بن عاصم وغيره ، واشتهر بالقراءات والعربية وأيام العرب ولهجات القبائل ، ومن الطريف لهذه المناسبة أن عيسى بن عمر جاءه متعجبا من تجويزه (ليس الطيب إلا المسكُ) بالرفع فقال له أبو عمرو نمت يا أبا عمر وأدلج الناس ، ليس فى الأرض حجازى إلا وهو ينصب ، وليس فى الأرض تميمى إلا وهو يرفع ثم أرسل اليزيدى وخلفا الأحمر للتثبت من العرب فكان كما أخبر أبو عمرو فأخرج عيسى خاتمه من يده وقال : ولك الخاتم ، بهذا والله فقت الناس [٢]

لكنه مع هذا لم يخلف أثراً مكتوبا ذلك أنه لما تنسك أحرقها وتفرد للعبادة ، توفى رحمه الله سنة ١٥٤ هـ [٣]

---

(١) البيت من شواهد سيبويه فى جـ ٢ على حذف التنوين من عمرو ص ١٤٨ وعلى دخول أفعلت على فعلت ص ٢٣٧ وعلى الاول استشهد به ابن يعيش فى باب العلم وعلى الثانى أدب الكاتب كتاب الابنية معانى أبنية الافعال والرضى على الشافية راجع الشواهد رقم ١٦ والبيت من ثلاثة أنشأها له لما صعد إلى غرف ووصل إليه

(٢) هذه الحادثة الطريفة مفصلة فى ذيل الآمالى ص ٣٩ ، وفى المغنى الباب الاول مبحث ليس ، وفى الاشباه والنظائر الفن السابع

(٣) راجع ترجمته فى مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات الزبيدى ، والفهرست ، ونزهة الألبا ، ومعجم الأدباء ، ووفيات الأعيان (العين) وفوات الوفيات ، وشرح شواهد شرحى الشافية للبغدادى رقم ١٦

الثالثـــة

١ الأخفش الأكبر : أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد مولى قيس ابن ثعلبة من أهل هجر ، أول الأخافشة الثلاثة المشهورين أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وطبقته ولقى الأعراب فأخذ عنهم قال الرضى فى شرحه على الكافية باب أسماء الأفعال . الظروف (وسمع أبو الخطاب من قيل له إليك فقال إليّ) وتوفى سنة ١٧٧ ﻫ

٢ ـ الخليل بن أحمد : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى الازدى ولد بالبصرة وشب على حب العلم ، فتلقى عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفى وغيرهما ، ثم ساح فى بوادى الجزيرة العربية وشافه الاعراب فى الحجاز ونجد وتهامة إلى أن ملأ جعبته ثم آب إلى مسقط رأسه البصرة واعتكف فى داره دائبا على العلم ليله ونهاره هائماً بلذته الروحية فنبغ في العربية نبوغا لم يسبق إليه وبلغ الغاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو قال الزبيدى (فهو الذى بسط النحو ومد أطنابه وسبب علله وفتق معانيه وأوضح الحجاج فيه حتى بلغ أقصى حدوده وانتهى إلى أبعد غاياته ثم لم يرض أن يؤلف فيه حرفا أو يرسم منه رسما ترفعاً بنفسه وترفعاً بقدره إذ كان قد تقدم إلى القول عليه والتأليف فيه ، فكره أن يكون لمن تقدمه تاليا ، وعلى نظر من سبقه محتذيا ، واكتفى فى ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ولقنه من دقائق نظره ونتائج فكره ولطائف حكمته فحمل سيبويه ذلك عنه وتقلده وألف فيه الكتاب الذى أعجز من تقدم قبله كما امتنع على من تأخر بعده) [١]

---

١ راجع مختصر كتاب العين ونقل هذا الكلام فى المزهر النوع الاول المسألة السادسة عشرة

فلاغرو انه لولا تعهد الخليل النحو فى نشأته لبعد عنه طور النضوج والكمال ، فللخليل فضل النهوض به كما لأبى الاسود فضل تكوينه ، نعم قد اتفقت كلمة العلماء على أن الخليل واضع فن الموسيقى العربية ، وواضع علم العروض والقافية ، وأول من دون معجما فى اللغة بتأليفه (كتاب العين) وله بعدئذ مأثرة الشكل العربى المستعمل الآن ، وله مؤلفات أخرى فى غير اللغة أيضاً ، كان رحمه الله فى فاقة وزهد لايبالى الدنيا ، بينما الناس محظوظون بها من علمه وكتبه ، وجه إليه سليمان بن على عم أبى العباس السفاح ووالى فارس والأهواز رسولا لتأديب ولده فأخرج الخليل إلى الرسول خبزاً يابساً وقال مادمت أجده فلاحاجة بى إلى سليمان فقال الرسول فما أبلغه عنك؟ فقال أبياتاً مطلعها

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة   وفى غنى غير أنى لست ذامال

توفى رحمه الله بالبصرة متأثراً بصدمة في دماغه من سارية سنة ١٧٥ هـ على الأصح [1]

٣ ـ يونس هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبى مولى بنى ضبة ، أخذ عن أبى عمرو وغيره وواجه العرب فسمع منهم حتى غدا مرجع الأدباء والنحويين فى المشكلات ، وكانت له حلقة دراسة فى المسجد الجامع بالبصرة يؤمها العلماء والأدباء وفصحاء الأعراب وله مذاهب خاصة في النحو ، منتشرة فى كتبه ، من ذلك قول الرضى فى الكلام على ما الحجازية (ونقل

---

(١) راجع ترجمته فى مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات الزبيدي ، والفهرست ، ونزهة الألبا ، ومعجم الادباء ، ووفيات الاعيان ، وبغية الوعاة ، ودائرة المعارف الاسلامية

عن يونس أنه يجوز إعمالها مع انتقاض نفيها بألا) وله مصنفات كثيرة فى غير النحو ، قضى حياته ولم يتزوج ولم يتسر ، وأخباره مستفيضة في كتب التراجم ، توفى بالبصرة سنة ١٨٢ هـ [١]

الرابعـــة

١ - سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان مولى بنى الحارث بن كعب ، ولقب بسيبويه (رائحة التفاح) لأن أمه كانت ترقصه بذلك فى صغره ، ولد بالبيضاء (بلد بفارس) من سلالة فارسية ، ونشأ بالبصرة ورغب فى تعلم الحديث والفقه ، إلى أن لحقه التأنيب ذات يوم بشأن حديث شريف من شيخه حماد البصرى قال ابن هشام (وذلك أنه جاء إلى حماد ابن سلمة لكتابة الحديث فاستملى منه قوله ﷺ ليس من أصحابى أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء ، فقال سيبويه ليس أبو الدرداء ، فصاح به حماد لحنت ياسيبويه إنما هذا استثناء ، فقال سيبويه والله لأطلبن علما لا يلحننى معه أحد ، ثم مضى ولزم الخليل وغيره) [٢]

فكما أخذ عن الخليل أخذ عن يونس وعيسى بن عمر وغيرهم وبرع فى النحو حتى بزّ أترابه فيه ، فاحتفى به علماء البصرة التى صار إمامها غير مدافع ، وأخرج للناس كتابه الذى أكسبه فخار الأبد فانه شاهد صدق على علو كعبه في هذا الفن

---

(١) ترجمته فى المصادر السابقة

(٢) راجع المغنى الباب الاول مبحث ليس

كتاب سيبويه

جمع سيبويه فى كتابه ماتفرق من أقوال من تقدمه من العلماء كأبى الخطاب الأخفش والخليل ويونس وأبى زيد وعيسى بن عمر وأبى عمرو بن العلاء وغيرهم فى علمى النحو والصرف إذ كان النحو فى ذلك الحين يطلق عليهما واسمه يعمهما ، وأكثرهم نقلا عنه الخليل الذى كان لايمل لقاءه ، وأنابه فى رواية الفن عنه ، فكان كتاب سيبويه سجلا لآراء الخليل فى النحو ، ولذا كثيراً مايقول فيه سألت الخليل وذلك مستفيض فى الكتاب ، وسأذكر بعض أمثلة للنقل عن غير الخليل

روى عن أبى الخطاب فقال (حدثنا به أبو الخطاب عن شاعره) [١] وعن يونس فقال (وزعم يونس فقال أنه سمع رؤبة يقول ماجاءت حاجتك فرفع) [٢] وروى عنهما فقال (وذلك قولك هذا عبد الله منطلق حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب) [٣] وكثر نقله عن يونس حتى نقل عنه أبوابا برمتها فقد نقل عنه فصلين من التصغير فقال (وجميع ماذكرت لك فى هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذى يليه قول يونس) [٤] لأنه كان يطمئن إليه فكثيراً ما كان يسأله للتثبت عما سمعه من غيره قال (وزعم عيسى بن عمر أن ناسا من العربَ يقولون إذن أفعل ذاك فى الجواب ، فأخبرت يونس بذلك ، فقال لاتبعدنّ ذا ، ولم يكن ليروى إلا ماسمع) [٥] وروى عن أبى زيد فقال (حدثنى من أثق بعربيته)

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٠ — (٣) راجع جـ ١ ص ٢٥٨

(٢) راجع جـ ١ ص ٢٥ — (٤) راجع جـ ٢ ص ١٠٩

(٥) راجع جـ ٢ ص ٤١٢

فاذا اختلفت أقوال العلماء فانه يحكيها ويوازن بينها ثم يحكم بالترجيح ففى باب تحقير بنات الياء والواو إلخ عند الكلام على تصغير أحوى قال (وأما عيسى فكان يقول أحى ويصرف وهذا خطأ ... وأما أبو عمرو فكان يقول أحىٍ ... وأما يونس فيقول هذا أحىُ كما ترى وهو القياس والصواب) وفى باب مايحذف من أواخر الأسماء فى الوقف وهى الياءات قال (وسألت الخليل عن القاضى فى النداء فقال اختار ياقاضى لأنه ليس بمنون كما أختار هذا القاضى ، وأما يونس فقال ياقاض وقول يونس أقوى)

وقد ضم الى أقوال هؤلاء العلماء ما استخرجه بنفسه من القواعد اعتمادا على سماعه من العرب الخلص قال (سمعنا العرب الفصحاء يقولون انطلقتُ الصيف) [1] وقال (وسمعنا بعض العرب الموثوق به يقال له كيف أصبحت ؟ فيقول حمدُ الله وثناء عليه) [2] وقال (إن هـذا البيت أنشدناه أعرابى من أفصح الناس وزعم أنه شعر أبيه) [3]

كون سيبويه كتابه من أقوال العلماء ومما استنبطه هو بنفسه ، فكان جماع الفن . شاملا كل مايحتاج إليه طالبه مع الترتيب والتبويب ، ولكل عصر طبيعته المتسقة معه ـ فترتيب الكتاب على غير المألوف في كتبنا المتداولة بين أيدينا ، والأسراف فى عناوين أبوابه جاوز الحد فقد بلغت عشرين وثمانمائة ، مع الغموض الذى لايفصح عن المقصود لأول وهلة ومع التداخل فى كثير من الأبواب ، فمن ذلك على سبيل المثال باب البدل فقد قال (هذا باب من الفعل يستعمل فى الاسم ثم تبدل مكان ذلك الاسم إلخ ، هذا باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول الخ

---

(١) جـ ١ ص ١١١ (٢) جـ ١ ص ١٦١ (٣) جـ ٢ ص ٥٢

باب المبدل من المبدل منه ، باب بدل المعرفة من النكرة إلخ ، باب من البدل أيضاً) [١] - وبعض عباراته الاصطلاحية حلت بدلها عبارات أخرى عندنا ، ونظرة أولية إلى مستهله فى ترتيب أبوابه وعناوينها واصطلاحاتها كافية فى ذلك ، قال (هذا باب علم ما الكلم من العربية ، باب مجارى أواخر الكلم من العربية ، باب المسند والمسند إليه ، باب اللفظ للمعانى ، باب ما يكون فى اللفظ من الأعراض ، باب الاستقامة من الكلام والأحالة ، باب ما يحتمل الشعر ، باب الفاعل إلخ)

فلم يك سيبويه فى كتابه جماعا لآراء السابقين فحسب ، بل له شخصية قوية ظهرت فى ابتداع بعض القواعد ، وفى ترتيب الكتاب حاوياً عناصر الفن كلها ، وتبويبه واضعاً كل شيء وما يتصل به معه ، وحسن التعليل للقواعد ، وجودة الترجيح عند الاختلاف ، واستخراج الفروع من القياس الذى امتلأ به الكتاب ، فكثيراً مايقول والقياس كذا أو والقياس يأباه ، ويقول (سألت الخليل عن قول العرب ما أميلحه فقال : لم يكن ينبغى أن يكون في القياس لأن الفعل لا يحقر وإنما يحقر الأسماء) [٢] وفى الحرص على الاعتزاز بالشواهد الوثيقة لدعم الاحكام التى قررها .

شواهده

عنى سيبويه فى كتابه بالشواهد لتثبيت الأحكام والأذعان بها من القرآن الكريم ونثر العرب والشعر ، ولم يجنح إلى الاستدلال بالحديث

---

(١) فى ج ١ على الترتيب ٧٥ ، ٧٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٣٩٣

(٢) ج ٢ ص ١٣٥

الشريف شأن أسلافه ومعاصريه ، ثم صارت سنة جارية بعده في المتقدمين والمتأخرين لم يبتدع خلافها غير ابن مالك الذى اعتدّ بالاستشهاد بالحديث، وسنذكر وجهته في ذلك عند ترجمته .

فالقرآن الكريم قد بلغ ما ذكره فى الكتاب من آيه ما يربى على ثلثمائة آية ، قال المازنى اعتذاراً عن تعليم الذمى الكتاب فى نظير أجر كبير : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلثمائة وكذا آية من كتاب الله عز وجل ولست أرى أن أمكن منها ذميا ، وأكثر الآيات مسوقة للاستدلال على الحكم الذى يقرره من ناحية الاستعمال العربى وهى بين يدى القارىء فلا حاجة إلى ذكر مثال منها ، وفي غير الكثير منها قد تذكر بعض آيات استئناسا لناحية المعنى فى الأحكام ، قال سيبويه (وقد يكون علمت بمنزلة عرفت لا تريد إلا علم الأول ، فمن ذلك قوله تعالى ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، وقال سبحانه وآخرين منهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فهى ههنا بمنزلة عرفت)[1] وقد تذكر بعض آيات أخرى عندما يكون ظاهرها مخالفاً للحكم الذى ذكره لتخريجها على ما يوافقه ، قال سيبويه (وأما قوله عز وجل الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، وقوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، فان هذا لم يبن على الفعل ولكنه جاء على مثل قوله تعالى مثل الجنة التى وعد المتقون ثم قال بعدُ فيها كذا وكذا فانما وضع المثل للحديث الذى بعده ، وذكر بعدُ أخبار وأحاديث فكأنه على قوله ومن القصص مثل الجنة أو مما يقص عليكم مثل الجنة فهو محمول على هذا الاضمار ونحوه والله أعلم ، وكذلك الزانية والزانى

(١) راجع جـ ١ ص ١٨

كأنه لما قال سورة أنزلناها وفرضناها قال في الفرائض الزانية والزانى أو الزانية والزاني فى الفرائض ، ثم قال فاجلدوا فجاء بالفعل بعد أن مضى فيهما الرفع إلخ) [١] ــ وهكذا

والشواهد النثرية المعين الذى لا ينضب فى الاستشهاد لكثرتها والظفر بها عند تلمس الدليل فهى منطق العربى فى غدواته وروحاته يرسلها متى شاء وحيث كان وفيما يبتغى ويريد ، ويدخل فيها الأمثال السائرة ، يسمعها سيبويه من العلماء الذين يتلقى عنهم أو يأخذهامشافهة من العربى وهاك شيئاً منها : قال سيبويه (ومثل قولهم من كان أخاك قول العرب ما جاءت حاجتَك) [٢] وقال أيضاً (وسمعنا من يوثق به من العرب يقول اجتمعت أهل اليمامة الخ) [٣] ومن الأمثال ماقال (كما جعلوا عسى بمنزلة كان فى قولهم عسى الغوير أبؤسا) [٤] ــ وهكذا

والشواهد الشعرية كثيرة كذلك فقد قالوا إن فيه ألفاً وخمسين بيتاً ، غير أنه لم يعن رحمه الله بنسبة الشعر المذكور إلى قائليه ، سواء ما استشهد به العلماء الحاكى عنهم وما استشهد به هو ، لأن بعض الشعر قد روى لشاعرين أو أكثر وبعضه قديم العهد لا يعرف قائله ، فاعتمد على شيوخه فيما استشهدوا به ونسب الانشاد اليهم ، وعلى نفسه فيماسمعه بأذنه ، ولم يتخذ أحد من العلماء إغفاله للنسبة سبيلا للطعن عليه على حين أنه أخرج للناس كتابه والعلماء كثير ، والعناية بهذا العلم وتهذيبه وكيدة ، ولعل ذلك لأن العلماء في ذلك الحين كانوا على علم بها لقرب العهد

---

(١) جـ ١ ص ٧١ (٢) جـ ١ ص ٢٤

(٣) جـ ١ ص ٢٦ (٤) جـ ١ ص ٢٤

فأن العلماء بعدئذ تطلعوا إلى معرفة الشعراء وبحثوا عنهم قال الجرمى (نظرت فى كتاب سيبويه فاذا فيه ألف وخمسون بيتاً ، فأما ألف بيت فعرفت أسماء قائليها فأثبتها ، وأما خمسون فلم أعرف أسماء قائليها) ، ويروى مثل هذا الخبر عن المازنى وهما متعاصران ، فالنسبة المذكورة الآن فى الكتاب حادثة بعد سيبويه إما من الجرمى أو المازنى ، وسميت الأبيات الخمسون بين العلماء بأبيات سيبويه الخمسين المجهولة القائل ، ونسبة الشعر للشاعر الصادرة من الجرمى أو المازنى لم تشمل الألف كلها فى الكتاب المطبوع بين أيدينا ، ولا أدرى سبباً فى ذكر القائل فى البعض دون البعض ، فقد كان فى تعيين النسبة للألف كلها إعلان كاف عن الخمسين المجهولة ، فليس وراء المعلوم إلا المجهول ، والمهم إنما هو الوصول لمعرفة هذه الأبيات المجهولة الخمسين ، وقد استعنت خزانة الأدب للبغدادى فى الوصول إليها فعلمت منها بالنص اثنين وثلاثين ، وسأذكرها لك مع الاشارة فى الهامش إلى موطن كل منها فى سيبويه وفى خزانة الأدب ، غير أن بيتاً منها قد اهتدى البحاثة الشنقيطى إلى اسم قائله فى كتابه « الحماسة السنية » وهو قوله .

.·. أفبعد كِندة تمدحنّ قبيلا [1]

فان قائله امرؤ القيس وهذا عجز البيت والبيت كله

قالت فُطيمة حل شعرك مدْحَه   أفبعد كندة تمدحن قبيلا

ومعنى البيت : حل تخفيف حلّيء من حلأه إذا طرده عن الماء ، ومدحه بدل اشتمال ، فرادها أن لا يمدح أحداً بعد كندة ، دل على ذلك

(١) راجع الكتاب جـ ٢ ص ١٥١ وخزانة الأدب شاهد ٩٤٣

المصراع الثاني ، والبيت مطلع قصيدة نادرة الوجود أوردها كلها الشنقيطي مع ذكر السبب، وذلك في القسم الثاني، آخر الكلام على البرزنجي وعلى هذا فالأبيات المجهولة في كتاب سيبويه تسعة وأربعون، والأبيات المجهولة التي أذكرها أحد وثلاثون ، وها كها بالترتيب على نسق الكتاب .

أبياته المجهولة القائل

ما في الجزء الأول

هل تعرف الدار على تِبْراكا ... دار لسُعدى إذه من هواكا [1]

أستغفر الله ذنبا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل [2]

وقائلة خولانُ فانكح فتاتهم ... وأكرومة الحَيَّيْنِ خلو كما هيا [3]

إنَّ عَلَيَّ اللهَ أنْ تُبايِعا ... تُؤخذَ كرها أو تجيءَ طائعا [4]

وكأنه لَهَقُ السَّراةِ كأنه ... مَا حاجِبَيْه مُعيَّنٌ بسَواد [5]

هل أنت باعثُ دينار لحاجتنا ... أو عبدَ رب أخا عون بن مخراق [6]

ضعيفُ النكاية أعداءَهُ ... يخال الفِرارَ يُراخي الأجل [7]

كلُوا في بعض بطنكم تعفوا ... فإنَّ زمانكم زمنٌ خميصُ [8]

من لَدُ شَوْلاً فإلى إتلائها [9]

---

(١) راجع ص ٩ والخزانة شاهد ٨٣
(٢) راجع ص ١٧ والخزانة شاهد ١٧٥
(٣) راجع ص ٧٠ والخزانة شاهد ٧٧
(٤) راجع ص ٧٨ والخزانة شاهد ٣٧٢
(٥) راجع ص ٨٠ والخزانة شاهد ٢٧٠
(٦) راجع ص ٨٧ والخزانة شاهد ٦١٠
(٧) راجع ص ٩٩ والخزانة شاهد ٥٩٧
(٨) راجع ص ١٠٨ والخزانة شاهد ٥٧٥
(٩) راجع ص ١٣٤ والخزانة شاهد ٢٥٢

دعوت لما نابنى مسوراً — فلبى فلبى يدى مسور [١]

فلا تلحنى فيها فأن بحبها — أخاك مصاب القلب جم بلابله [٢]

ووجه مشرق النحر — كأن ثدياه حقان [٣]

ياليت أيام الصبا رواجعا [٤]

على أننى بعد ماقد مضى — ثلاثون للهجر حولا كميلا
يذكرنيك حنين العجول — ونوح الحمامة تدعو هديلا [٥]

من أجلك يا التى تيمت قلبى — وأنت بخيلة بالود عنى [٦]

يا لقوم من للعلى والمساعى — يا لقوم من للندى والسماح
يا لعطافنا ويا لرياح — وأبى الحشرج الفتى النفاح [٧]

فلا أب وابنا مثل مروان وابنه — إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا [٨]

. . . . — لاهيثم الليلة للمطى [٩]

بكت جزعا واسترجعت ثم آذنت — ركائبها أن لا إلينا رجوعها [١٠]

. . . . — حنت قلوصى حين لا حين محن [١١]

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا — فاذهب فمابك والأيام من عجب [١٢]

دعى ماذا علمت سأتقيه — ولكن بالمغيب نبئينى [١٣]

---

(١) راجع ص ١٧٦ والخزانة شاهد ٩٣ — (٢) راجع ص ٢٨٠ والخزانة شاهد ٦٤٨

(٣) راجع ص ٢٨١ والخزانة شاهد ٨٧١ — (٤) راجع ص ٢٨٤ والخزانة شاهد ٨٤١

(٥) راجع ص ٢٩٢ والخزانة شاهد ٢١٦ — (٦) راجع ص ٣١٠ والخزانة شاهد ١٢٨

(٧) راجع ص ٣١٩ والخزانة شاهد ١٠٨ — (٨) راجع ص ٣٤٩ والخزانة شاهد ٢٦٣

(٩) راجع ص ٣٥٤ والخزانة شاهد ٢٦١ — (١٠) راجع ص ٣٥٥ والخزانة شاهد ٢٥٥

(١١) راجع ص ٣٥٨ والخزانة شاهد ٢٥٨ — (١٢) راجع ص ٣٩٢ والخزانة شاهد ٣٥٣

(١٣) راجع ص ٤٠٥ والخزانة شاهد ٤٤٤

غيرَ أنا لم تأتنا بيقين ... فنُرجي ونكثرُ التأميلا [1]

هذا سراقةُ للقرآن يدرسه ... والمرءُ عند الرُشا إن يَلْقها ذيب [2]

إن الكريم وأبيكَ يَعتمِلْ ... إن لم يجد يوماً على من يتكل [3]

وكنت أُرى زيداً كما قيل سيداً ... إذا أنه عبدُ القفا واللهازم [4]

ولست أبالى بعد يوم مطرف ... حتوفَ المنايا أكثرت أو أقلت [5]

ما فى الجزء الثانى

لقد رأيتُ عجباً مُذْ أمسا ... عجائزاً مثلَ السعالى خمسا [6]

وهيجَ الحى من دار فظل لهم ... يوم كثيرٌ تناديهِ وحيهَلُه [7]

. . . . وهي تنوش الحوض نوشا من علا [8]

فأقبل على رهطى ورهطك نبتحث ... مساعينا حتى ترى كيف نفعلا [9]

هذا ما يختص بالأبيات المجهولة القائل فى الكتاب - أما الألف الباقية فقد ارتضاها جمهور العلماء، سواء منها ما نسب الى قائله وما لم ينسب اليه، وقليل منهم اعترض بعض الأبيات المنسوبة لقائلها بما يؤدى إلى عدم صحة الاستشهاد بها على ما ساقها دليلا عليه سيبويه لتحريف أو تصحيف خفى عليه في الرواية للشاهد، وقليل منهم تعقب بعض الأبيات

---

(١) راجع ص ٤١٩ والخزانة شاهد ٦٦٥ ... (٢) راجع ص ٤٣٧ والخزانة شاهد ٨٢

(٣) راجع ص ٤٤٣ والخزانة شاهد ٨٢٧ ... (٤) راجع ص ٤٧٢ والخزانة شاهد ٨٤٦

(٥) راجع ص ٤٩٠ والخزانة شاهد ٩١٠ ... (٦) راجع ص ٤٤ والخزانة شاهد ٥٢٢

(٧) راجع ص ٥٢ والخزانة شاهد ٤٦٢ ... (٨) راجع ص ١٢٣ والخزانة شاهد ٧٧٣

(٩) راجع ص ١٥١ والخزانة شاهد ٩٤٤

غير المنسوبة لقائلها واعتبرها مفتعلة مصنوعة ، وهذا كله عدا الأبيات المزيدة على شواهد سيبويه فلم تذكر في أصل الكتاب معها . وقد شرحها الأعلم أيضاً ناسباً كل شاهد زائد في الباب المذكور فيه لمن أنشده من العلماء الذين زادوه على شواهد الكتاب في خلال نظرهم فيه — فهذه أصناف ثلاثة ، وهاك بيانها :

بعض الابيات التى خطأوا روايتها

كثر ماطعن بعض العلماء على بعض الأبيات المنسوبة للقائل طعناً يقضى بعدم الاستدلال بها ، وفي مقدمة هؤلاء ابن قتيبة والمبرد والعسكرى ، وإنى لذاكر من ذلك أبياتاً ثلاثة على سبيل التمثيل خوف الاطالة . فمن ذلك .

١ ـ قول عُقيبة بن هبيرة الأسدى

معاوىَ إننا بشر فأسجح ‌ ‌ ‌ فلسنا بالجبال ولا الحديدا

أديروها بنى حرب عليكم ‌ ‌ ‌ ولا ترموا بها الغرض البعيدا[1]

استشهد سيبويه بالبيت الأول على جواز الاجراء على الموضع فأن قوله (الحديدا) معطوف على محل المجرور قبله في قوله (بالجبال) لأن الباء زائدة .

لقد خطأ ابن قتيبة في أواخر مقدمة طبقات الشعراء هذه الرواية مدعيا أن الصواب الجر كبقية القصيدة ، والبيت الثانى من بيتى سيبويه لا صلة له بالأول منهما ، وتابعه المبرد في ذلك ، وكذا العسكرى فى « التصحيف والتحريف » .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٤ ، ٣٥٢ ، ٣٧٥ ، ٤٤٨

لكن العلماء المنتصرين لسيبويه وفى مقدمتهم الانبارى فى كتابه (الانصاف) قالوا إن البيت روى مع أبيات منصوبة ومع أبيات مجرورة، واستشهاد سيبويه منوط بالرواية الأولى فصح الاعتماد عليه، ولهذا استشهد به الرضى على الكافية راجع الخزانة في الشاهد الرابع والعشرين بعد المائة، والغريب بعد هذا كله أن ابن هشام في المغنى الباب الرابع فى الكلام على أقسام العطف عند الكلام على العطف على التوهم مثل له بهذا البيت وخطأ العلماء فى زعمهم أن سيبويه استشهد به على العطف على المحل إذ يقول (وقد استنبط من ضعف فهمه من إنشاده هذا البيت هنا أنه يراه عطفاً على المحل) — فتأمل فيما ترى أنار الله بصيرتك

٢ — ومن ذلك قول نهشل بن حرّىّ

لِيُبْكَ يزيدُ ضارعٌ لخصومة ... ومختبط مما تطيح الطوائح[1]

استشهد به سيبويه فى باب « ما يحذف منه الفعل الخ » على أن رافع ضارع محذوف للعلم به من سابقه.

وقد تعقب الأصمعى رواية البيت كذلك قائلا إن الصواب نصب يزيد بالفعل قبله والفعل مبنى للمعلوم لا للمجهول فضارع فاعل له لا للمحذوف، وقد نقل عن الأصمعى هذا التصحيح ابن قتيبة فى أواخر مقدمة طبقات الشعراء، وتبعهما العسكرى فى « التصحيف والتحريف »

لكن العلماء الآخرون أجازوا رواية سيبويه فاقتفاه في الاستدلال بها « فى باب الفاعل » الزمخشرى فى المفصل، والرضى في الكافية، وابن هشام في التوضيح، والأشمونى فى شرح الألفية.

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٤٥ و ص ١٨٣

٣ ـ ومن ذلك قول الأخطل

كُروا إلى حرتيكم تعمرونها كما تكر الى أوطانها البقر [١]

استشهد سيبويه بهذا البيت فى باب (من الجزاء ينجزم فيه الفعل إذا كان جواباً لأمر إلخ) على جواز رفع المضارع وهو تعمرونها بعد الطلب وهو (كروا) لعدم قصد الجزائية ، وتبعه فى الاستشهاد به الزمخشرى فى المفصل ، والأشمونى في شرحه على الألفية

لم ينبه أحد من العلماء قط على ما فى البيت من خطأ ابتنى عليه زعم الاستدلال بالبيت إذ مدار الاستشهاد به على أن (كروا) فعل أمر بدليل الخطاب في حرتيكم .

والحقيقة أن الفعل ماض وأن صواب الشطر الأول « كَروا إلى حرتيهم يعمرونهما » على الحكاية للغائبين ، فالبيت من قصيدة فى متناول أيدى الجميع ، ويبدو لى أن هذا التحريف غير معمود اليه وإنما سرى لسيبويه من الراوى المحرف ، وأكاد أعتقد أن هذا البيت فى تحريفه لا مثيل له فى الكتاب ، والعجب العاجب عدم الالتفات لما فيه من الاعلام السابقين

بعض الأبيات التى قيل أنها مصنوعة

فما قالوا إنه مصنوع :

١ حَذِر أموراً لا تضير وآمن ماليس منجيه من الأقدار [٢]

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤٥١

(٢) راجع جـ ١ ص ٥٨ ، وراجع خزانة الادب شاهد ٦٠٥ ففيه كل ما قيل ف البيت ، ومعنى البيت مختلف فيه ، قال ابن السيد والأشبه عندى أن يكون أراد ان الانسان جاهل بعواقب الامور يدبر ليخونه التدبير

استشهد به سيبويه على عمل (فعِل) من أبنية المبالغة ، وتبعه من بعده كابن يعيش فى شرح المفصل ، والرضى فى شرح الكافية وغيرهما لكن قال النقدة يروى عن اللاحقى أنه قال (إن سيبويه سألنى عن شاهد فى تعدى فَعِل فعملت له هذا البيت)

وقد تصدى للرد عن سيبويه فى الطعن الوارد على هذا البيت الكثير من العلماء ، قال الأعلم فى شرحه لهذا الشاهد (وإن كان هذا صحيحاً فلا يضر ذلك سيبويه لأن القياس يعضده) ، وقال هرون ابن موسى (وإنما أراد اللاحقى بقوله فوضعت له هذا البيت ، فرويته له) ، وقال ابن يعيش فى شرح المفصل (فان سيبويه رواه عن بعض العرب وهو ثقة لاسبيل الى رد ماروا‌ه) ، وبعدئذ فلا مجال للطعن على سيبويه

٢ ـ هم القائلون الخير والآمرونه ۝ إذا ماخشوا يوما من الأمر معظما

٣ ـ ولم يرتفق والناس محتضرونه ۝ جميعاً وأيدى المعتفين رواهقه

قال المبرد (وقد روى سيبويه بيتين محمولين على الضرورة وكلاهما مصنوع ، وليس أحد من المفتشين يجيز مثل هذه الضرورة لماذكرت من انفصال الكناية ، والبيتان اللذان رواهما سيبويه . هم القائلون الخير الخ) ١

---

(١) راجع الكامل مع الرغبة ج ٤ ص ٤٢ وما بعدها ، والبيتان فى سيبويه ج ١ ص ٩٦ ومعنى البيت الاول انهم يقولون الخير ويأمرون به وقت خشيتهم الامر العظيم من حوادث الدهر فلا يمنعهم خوف الضرر عن الامر بالمعروف ، والثانى انه لم يرتفق اى يتكيء على المرفق — وأيدى المعتفين طلاب المعروف — رواهقه غاشية له قريبة منه ، وذلك كناية عن اهتمام ممدوحه بقضاء حاج الناس .

المراد من الكناية الضمير ، وأول من استعملها فى ذلك سيبويه ، وتوجيه طعن المبرد على سيبويه ، أن الضمير لا يتصل بالوصف المثنى أو المجموع إلا إذا تجرد من النون اللاحقة في آخره حتى يحل محلها الضمير المتصل المضاف اليه ، وذلك للتناوب بين النون والضمير ، فاذا اقترنت بالوصف النون وجب انفصال الضمير عنه حينئذ ، والنتيجة أن الجمع بينهما ممنوع ، فكيف استباح سيبويه ذكر بيتين اجتمع فيهما النون والضمير المتصل للضرورة مع أنهما مصنوعان

والذى يقتضى العجب أن المبرد يتجنى على سيبويه فى هذا الانتقاد فان سيبويه نفسه قد صرح مع البيت الأول أنه مصنوع وكذا فى الثانى ، ونقل ذلك عنه ابن يعيش فى شرح المفصل مبحث الاضافة اللفظية ، وكذا الرضى على الكافية ، وقد استعرض اعتراض المبرد على البيتين وكل ما قيل فى دفع الاعتراض عليهما البغدادى فى الخزانة فى الشاهدين : السادس والتسعين والسابع والتسعين بعد المائتين

٤ إذا ما الخبز تأدمه بلحم فذاك أمانةَ الله الثريد [1]

استشهد بالبيت مرتين الأولى على رفع مابعد إذ والثانية على نصب أمانة بفعل مقدر ، وتابعه فى الاستشهاد به على الثانية الزمخشرى فى المفصل عند الكلام على حروف القسم ، وابن يعيش فى شرح المفصل فى أوائل الكلام على القسم ،

لكن قال النقدة إن البيت مصنوع ، والله أعلم بالحقيقة .

---

(١) جـ ١ ص ٤٣٤ ، جـ ٢ ص ١٤٤

الأبيات المزيدة على الشواهد

يرى المتأمل فى شرح شواهد سيبويه للأعلم أبيات مضافة إلى أبيات سيبويه ، وقد تناولها الأعلم بالبيان لمعناها وموطن الشاهد فيها على غرار شرحه لأبيات الكتاب ، غير أنه قبل ذكرها يعزوها لمنشدها في الباب المتحدث فيه ويعرض للغرض منها فى الاستشهاد ، ما خلا بيتين فيؤخذ منه نسبتهما لسيبويه لإطلاقه الانشاد له على وفق طريقته فى شواهده. والأبيات المزيدة بلغت أحد عشر أكثرها من إنشاء الأخفش فالمازنى ثم الجرمي والمبرد ، ولهذا يحسن بعد ذكر البيتين المظنون نسبتهما لسيبويه سرد ماأنشده الأخفش فى الكتاب مستقلا ، وكذا المازنى ، وبعدهما أراعى ترتيب الكتاب فى المبرد والجرمى

البيتان المنسوبان له وهما فى الجزء الثانى

أتيت مهاجرين فعلمونى　　ثلاثة أحرف متتابعات

وخطوا لى أبا جاد وقالوا　　تعلم صعفضا وقريسيات ١

الأخفش فى الجزء الأول

فبيناه يشرى رحله قال قائل　　لمن جمل رخو الملاط نجيب ٢

وما مثله في الناس إلا مملكا　　أبو أمه حى أبوه يقاربه ٣

---

(١) ص ٣٦　　(٢) ص ١٤　　(٣) ص ١٤

ألم يأتيـك والأنباء تنمى بما لاقت لبون بنى زياد ١
فزججتهـا بمزجّـة زج القلوص أبى مزاده ٢

المازنى فى الجزء الأول

أتهجر ليلى بالفراق حبيبها وما كان نفسا بالفراق تطيب ٣

وفى الجزء الثانى

إن الفردق صخرة عادية طالت فليس تنالها الأوعالا ٤
فما سُبق القيسى من ضعف حيلة ولكن طفت علماء غُرلة خالد ٥

المبرد فى الجزء الأول

ثأرنا بها قتلى وما فى دمائها وفاء وهن الشافيات الحوائم ٦

الجرمى فى الجزء الثانى

أرمى عليها وهى فرع أجمع وهي ثلاث أذرع واصبع ٧

وبعد فمما لا ريب فيه بين العلماء قاطبة أن سيبويه لم يحتج فى كتابه إلا بأشعار من يستشهد بشعرهم من الجاهلين والمخضرمين والاسلاميين فلم يتجاوزهم الى المحدثين ، ولقد كان ذلك ديدنه فى تعليمه ودراسته

---

(١) ص ١٥ (٢) ص ٨٨ (٣) ص ١٠٨
(٤) ص ٣٥٦ (٥) ص ٤٢٤ (٦) ص ٩٤
(٧) ص ٣٠٨

وحجاجه ، نعم روى أنه عاب على بشار صدر المحدثين كلمات له فى أبيات وبلغ عيبه لها بشاراً ، فقال يهجوه

أسبويه يا بن الفارسية ما الذى　　تحدثت عن شتمى وما كنت تنبذ
أظلت تغنى سادراً فى مساءتى　　وأمك بالمصرين تعطى وتأخذ

فتوقى شره بعدئذ ، وكان إذا سئل عن شىء فأجاب عنه ووجد له من شعر بشار شاهداً احتج به استكفافا لشره

ومن الحق البين أن الكتاب يحتاج إلى دراسة طويلة عميقة فى البحث يضيق المقام عن استيفائها ، وما أجدرها بسفر خاص .

تقدير الكتاب

لقد دهش الناس عند ظهور الكتاب فجأة على صورته الرائعة الغريبة من سيبويه الشاب ، فتسرب إلى نفوسهم الظن فى أمانته العلمية ، قال يونس (أظن هذا الغلام كذب على الخليل) فقيل له وقد روى عنك أيضا فاستحضر الكتاب ورأى ما نقله عنه صحيحاً ، فقال إنه صدق فى جميع ما قال . .

عظم شأن الكتاب فى البصرة حتى صار علماً بالغلبة ، فكان إذا قيل فى البصرة فلان يقرأ الكتاب فلا يفهم السامع سوى كتاب سيبويه ، بل سموه إكباراً له قرآن النحو ، وهكذا كان الكتاب أعجوبة الدهر الخالدة فانه منذ ألف استفرغ عناية العلماء به فى الطواف حوله فمن شارح له ومن شارح لشواهده ومن منتقد له ، واستخذوا حينا وضع كتاب

---

(١) راجع الاغانى أخبار بشار جـ ٣ ص ٢١٠ طبع الدار

جديد بعده ، ولهذا كان يقول المازنى (من أراد أن يصنف كتاباً واسعاً في النحو بعد سيبويه فليستحى)

لم يقف العلماء فيه على عثرات شأن المؤلفات الضافية لا فى أسلوبه ولا في القواعد المسطورة فيه ، مع أن الكتاب كبا كورة فى النحو ومع كثرة الناظرين فيه ، وحسبه فى أسلوبه أن يتلقف ابن الطراوة غلطة فيه ثم لم تسلم له ، تلك هى أن سيبويه فى باب (ما تجرى عليه صفة ما كان من سببه وصفة ما التبس به إلخ) [١] أجاب بكلمة نعم على استفهام بقوله ألست ، ولخص ابن هشام في المغنى ذلك للمناسبة في الباب الأول مبحث نعم ، فقال (وزعم ابن الطراوة أن ذلك لحن .. وعلى ذلك جرى كلام سيبويه والمخطىء مخطىء) - ويكفيه فى قواعده أن الزجاج لم يعثر إلا على غلطتين فيها ، إحداهما اعتباره بناء أى الموصولة على الضم مع الاضافة وحذف صدر الصلة قال ابن هشام في المغنى الباب الأول مبحث أىّ (قال الزجاج ماتبين لى أن سيبويه غلط إلا فى موضعين هذا أحدهما فانه يسلم أنها تعرب إذا أفردت فكيف يقول ببنائها إذا أضيفت)

ومنذ ألف الكتاب مافارقه النحو وما تخلف هو عنه بل كانا يقيمان معاً ويرحلان معاً ، فطوف معه وانتقل من البصرة إلى الكوفة ثم بغداد ثم الأندلس والشام ومصر ، وسنذكر نبذة عنه إن شاء الله فى الطور الرابع عند الكلام على علماء الأندلس ، تتبين منها إقبال الأندلس عليه وتقديرها له ، وبعبارة أخرى احتفاء المغاربة به بعد المشارقة

ولقد قدر لهذا العبقرى أن تكون منيته فى أمنيته ، حببت إليه

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٢٧

التوجه إلى بغداد لمنازلة الكسائى الذى كان ينفس عليه ما نال من جاه كبير ومال وفير ، ثقة منه بالظفر عليه ، فتلاقى القرينان وجرت بينهما تلك المناظرة المشؤومة التى سلف الكلام عليها ، فخاب الأمل وفارق سيبويه بغداد مقهوراً وعز على نفسه أن يعود إلى البصرة بعد هذا الخزى والخذلان ، فاستقدم تلميذه أبا الحسن الأخفش فى طريقه إلى بلده فى فارس وبث إليه حزنه ، وما كاد يرد بلده حتى اشتدت علته فمات فى ريعان شبابه قبل جل شيوخه رحمه الله سنة ١٨٨ هـ وأخباره مستفيضة فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ ، وفى خزانة الأدب شاهد ٥٧ نبذة عن الكتاب

٢ — اليزيدى : هو أبو محمد يحى بن المبارك بن المغيرة العدوى مولى بنى عدى ، نشأ بالبصرة وتلقى عن أبى عمرو وابن أبى اسحق والخليل ويونس وغيرهم ، ثم اشتهر فضله فيها وعرف باللغة والنحو وأخبار الناس ، وعرضت فتنة بالبصرة اقتضت اختفاءه عنها ، ثم ظهر بعد في بغداد عند يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى فأدب أولاده ونسب اليه ولقب باليزيدى من هذا الحين ، وسرى هذا اللقب فى أولاده وأحفاده من بعده ، ولم يلبث أن وصله يزيد بالرشيد فاختصه بأدب المأمون كما كان الكسائى يؤدب الأمين ، وصار اليزيدى يدرس فى مساجد بغداد كما يدرس الكسائى ، فتولدت بين الشيخين المنافسة وتطلع كل منهما لغلب الآخر فحدثت المناظرات بينهما ، وكان اليزيدى مظفراً فى أغلبها وقد أسلفنا القول على إحداها ، ولما مات الكسائى قبله لم يتمصر فى رثائه ، كان اليزيدى مع علمه أديباً شاعراً له مجموعة شعرية فيها شعر كثير فى مدح

النحاة البصريين وهجاء الكوفيين ، وسنذكر بعضاً منها فى الكلام على المذهب الكوفى بمشاءة الله تعالى، وله مؤلفات في متنوع العلوم ، منها مختصر فى النحو ، وقد بورك له فى نسله فكان العلم والفضل فى أبنائه وحفدته ، توفى رحمه الله بخراسان سنه ٢٠٢ ه [١]

٣ - أبو زيد . هو سعيد بن أوس الأنصارى الخزجى ، نشأ بالبصرة وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر وغيرهما ، ثم رحل إلى العرب فى البوادى ، وكان يعاصره فى البصرة الأصمعى وأبو عبيدة معمر ابن المثنى ، وهؤلاء الثلاثة كانت بيدهم مقاليد اللغة والأدب والرواية ، أما النحو فلم يبلغوا فيه شأو أسلافهم من البصريين ، على أنهم فيما بينهم بعدئذ متفاوتون فيه ، فأعلمهم أبو زيد فالأصمعى فأبو عبيدة ، كان أبو زيد صدوق الرواية ، وكفى أن يلتزم سيبويه فى النقل عنه قوله (سمعت الثقة) كما كان غير متأثر بالعصبية البلدية كسائر البصريين، فروى عن الكوفيين . قال السيرافى فى كتابه أخبار النحويين البصريين (ولا نعلم أحداً من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئاً من علم العرب إلا أبا زيد فأنه روى عن المفضل الضبى) ، له مصنفات كثيرة متنوعة ، وفى كتبه المصنفة في اللغة من شواهد النحو عن العرب ما ليس لغيره ، وله كتاب تخفيف الهمزة على مذهب النحو ، وأخباره مستفيضة فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ ، توفى سنة ٢١٥ ه

---

(١) ترجمته فى مراتب النحويين ، وأخبار النحويين البصريين ، وطبقات الزبيدى ، والاغانى ، والفهرست ، ونزهة الالبا ، ووفيات الاعيان ، وبغية الوعاه ، وخزانة الادب شاهد ٨٩٧

الخامسة

١ ـ الأخفش . هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة مولى بنى مجاشع ابن دارم بطن من تميم ، أوسط الأخافشة الثلاثة المشهورة ، فقبله أبو الخطاب الأخفش الأكبر شيخ سيبويه الذى سلفت ترجمته وبعده أبو الحسن الأخفش الأصغر تلميذ المبرد وستأتى ترجمته ، وأشهرهم ذكرا فى النحو فلذا ينصرف اليه الحديث عند ذكر الأخفش مجرداً من الوصف فى كتب النحو ، فان قصد غيره وجب ضم الأكبر أو الأصغر إليه على وفاق المطلوب ، ولد ببلخ وأقام بالبصرة لطلب العلم وتلاقى مع سيبويه عن جل شيوخه ثم أخذ عنه بعد المشاركة مع كبر سنه عنه فكان أنحى تلاميذه ، وكان ضنيناً بكتاب سيبويه لنفاسته حتى ظن به ادعاؤه لنفسه لأن سيبويه لم يقرأه على أحد ولا قرأه عليه أحد ماعداه قال : ما وضع سيبويه فى كتابه شيئاً إلا عرضه على وكان يرى أنه أعلم به منى وأنا اليوم أعلم به منه ، فتشاور تلميذا الأخفش : الجرمى والمازنى على الحيلولة بينه وبين ما ظن فيه بترغيبه فى المال إذ كان الجرمى مثريا فقرآه عليه وظهر الكتاب ، فليس للكتاب طريق إلا الأخفش ، فأليه يرجع الفضل في استبقائه كما يرجع للكتاب الفضل فى إقبال العلماء على الأخفش .

لما قفل سيبويه من بغداد بعد خذلانه في المناظرة الماضية استشخص تلميذه الأخفش فى طريقه إلى الأهواز لما سبق أنه ولى وجهه عن البصرة خزيا وشكا إليه بثه وحزنه مماهاضه ، فتحرش الأخفش بالكسائى ووصل بغداد فى الغلس وصلى خلف الكسائى الغداة فى مسجده ، ثم سأله أمام تلامذته الفراء والأحمر وغيرهما وخطأه فى إجابته حتى هم التلامذة بالوثوب

عليه فمنعهم الكسائى وقال له بالله أما أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة ؟ فقال نعم ، فقام اليه وعانقه وأجلسه بجنبه وأكرم مثواه . فاستحال تحرشه محبة له وأقام عنده ينعم بالحياة السعيدة الجديدة . وبقى في جواره ببغداد بقية حياته ، وصار مؤدب أولاده وقرأ له كتاب سيبويه سرًا ، وقد تغيرت لذلك عصبية الأخفش حتى وافق الكوفيين كثيرا فى آرائهم فكان أكثر البصريين موافقة للكوفيين ، وكتب النحو ملأى بالمسائل التى وافقهم فيها ، وإنى ذاكر لك بعضاً منها على سبيل التمثيل

من المسائل التى وافق فيها الأخفش الكوفيين

١ — إعراب فعل الأمر وجزمه بلام الأمر المقدرة على أنه مقتطع من المضارع المجزوم بها قال ابن هشام (وزعم الكوفيون وأبو الحسن أن لام الطلب حذفت حذفاً مستمرا في نحو قم واقعد ، وأن الأصل لتقم ولتقعد فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة) [1]

٢ — جواز رفع الوصف فاعلا ظاهرا من غير اعتماد للوصف وكذا الظرف قال الرضى (والأخفش والكوفيون جوزوا رفع الصفة للظاهر على أنه فاعل لها من غير اعتماد على الاستفهام أو النفى نحو قائم الزيدان كما يجيزون في نحو فى الدار زيد أن يعمل الظرف بلا اعتماد) [2]

٣ — جواز زيادة من فى غير الايجاب مع المعرفة قال الرضى (وغير الأخفش والكوفيين شرط فيها شرطين كونها فى غير الموجب ودخولها فى النكرات ، والكوفيون والأخفش لا يشترطون ذلك استدلالا بقوله

---

(١) راجع المغنى الباب الأول مبحث اللام اللام العاملة للجزم

(٢) شرحه على الكافية باب المبتدأ والخبر ، تقسيم المبتدأ

تعالى يغفر لكم من ذنوبكم)[١]

كما تغيرت نزعته البصرية نزعة السماع إلى النزعة الكوفية نزعة القياس : فعول على قياسه النظرى فى كثير من المسائل التى لم يأبه فيها بالفريقين وهاك بعضاً منها

من المسائل التى انفرد فيها الأخفش بالقياس

١ ـ جواز وقوع أنّ بعد لعل قياساً على ليت قال الزمخشرى (وقد أجاز الأخفش لعل أن زيداً قائم قاسها على ليت)[٢]

٢ ـ تجويزه رفع المضارع بعد حتى المسبوقة بالنفى قياساً على الايجاب واعتبار النفى داخلا على الكلام برمته قال ابن هشام (وأجاز الأخفش الرفع بعد النفى على أن يكون أصل الكلام إيجاباً ثم أدخلت أداة النفى على الكلام بأسره لا على ما قبل حتى خاصة الخ)[٣] قال الدماميني (فكأنه إنما أجاز بالقياس لا بالسماع) وقد سبق إلى هذا النقل الرضى

٣ ـ جواز منع الصرف لأفعل الصفة مع قبوله التاء نحو أرمل قياساً على أحمر ، قال الأشمونى (وأجاز الأخفش منعه لجريه مجرى أحمر لأنه صفة وعلى وزنه)[٤]

٤ ـ قياسية مجىء اسم فعل الأمر من الرباعى على فَعْلال قال الرضى (وعند الأخفش فعلال أمراً من الرباعى قياس)[٥]

---

(١) شرحه على الكافية حروف الجر ، من

(٢) متن المفصل القسم الثالث الحروف ، لعل

(٣) راجع المغنى الباب الاول ، حتى ، الجارة

(٤) شرحه على الالفية لقول الناظم « ووصف أصلى ووزن أفعلا الخ »

(٥) شرح الكافية أسماء الافعال .

٥ ـ تصغيره اللاتى واللائى على لفظهما قال الرضى (وقد صغرهما على لفظهما قياساً لا سماعاً ، وكان لا يبالى بالقياس في غير المسموع الخ)[١]

وبعد فالمخالفات التى خرج فيها عن الفريقين معتمداً على قياسه النظرى غير متقيد فيها بقانون السماع كثيرة جداً ، ولهذا يقول الرضى (وأجاز الأخفش الكسر أيضاً فى « الٓمٓ الله » قياساً لا سماعاً كما هو عادته فى التجرد بقياساته على كلام العرب الذى أكثره مبنى على السماع)[٢]

على أنه كان لتحلله من التقليد أثره فى آرائه ، فكثر ما كان له في المسألة الواحدة رأيان فصاعدا ، قال ابن جنى (وقد كان أبو الحسن ركابا لهذا النبج آخذاً به غير محتشم منه ، وأكثر كلامه فى عامة كتبه عليه ، وكنت إذا ألزمتُ عند أبى على رحمه الله أن أقول لأبى الحسن شيئاً لا بد للنظر من إلزامه إياه ، يقول لى مذاهب أبى الحسن كثيرة إلخ)[٣]

له مؤلفات كثيرة منها في النحو المقاييس ، والأوسط ، توفى ببغداد سنة ٢١١ هـ على الأشهر

٢ ـ قُطْرُب : هو أبو على محمد بن المستنير ، نشأ بالبصرة وتلقى عن عيسى بن عمر وسيبويه وغيرهما إلا أن اتصاله بسيبويه أكثر ، كان كلما خرج سيبويه من بيته سحراً وجده على بابه فقال له إنما أنت قطرب ليل فأطلق عليه ولصق به ، حذق الجدل والكلام ومال إلى مذهب المعتزلة النظامية ، له تصانيف كثيرة ، منها فى النحو كتاب العلل ، وترجمته مستفيضة فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ ، توفى ببغداد عام ٢٠٦ هـ

---

(١) شرح الشافية التصغير

(٢) شرح الشافية ، التقاء الساكنين ، الأصل فى تحريك أول الساكنين الكسر .

(٣) الخصائص باب (فى اللفظين عن المعنى الواحد يردان عن العامل متضادين)

السادسة

١ ـ الجَرْمى : هو أبو عمر صالح بن إسحق مولى بنى جَرم من قبائل اليمن ، نشأ بالبصرة فتعلم عن شيوخها النحو واللغة وسمع من يونس والأخفش الأوسط ولم يلق سيبويه ، وزامله فى عصره وتلقيه المازنى ، وإليهما انتهت الرياسة النحوية ، وسبق أنهما ذوا الفضل فى إظهار الكتاب على يد شيخهما الأخفش ، كان الجرمى أديباً شاعراً ديناً صحيح العقيدة ، وله مناظرة مع الفراء ، ومصنفاته كثيرة ، منها فى النحو مختصره المشهور لدعائه له بالبركة ، وكتاب الفرخ (فرخ كتاب سيبويه) ، ورد بغداد وأقام فيها حتى قضى نحبه سنة ٢٢٥ هـ

٢ ـ التوَّزى : هو أبو محمد عبد الله بن محمد مولى قريش التوزى نسبة لتوَّز (بلد بفارس) . أخذ عن الجرمى كتاب سيبويه ، واشتهر باللغة والأدب فكان أعلم بالشعر من المازنى والرياشى ، توفى ببغداد سنة ٢٣٨ هـ

٣ ـ المازنى : هو أبو عثمان بكر بن محمد مولى بنى سَدوس ، ولد بالبصرة وتربى فى بنى مازن بن شيبان فنسب اليهم ، وأخذ عن أبى عبيدة وأبى زيد والأخفش وغيرهم ، مع مشاركة رفيقه الجرمى ، كما تقدمت الاشارة لذلك ، ومالبث أن صار علَم البصرة الخفاق ، وقال الناس لم يكن بعد سيبويه أعلم من المازنى بالنحو ، ساعده على نبوغه قوة بيانه وأدبه ، فكان له الفلج فى الحجاج وقد تغلب على الأخفش مع تلقيه عنه ، استقدمه من البصرة أمير المؤمنين هرون الواثق إليه فى (سامرا) مقر الخلافة آنذاك لما أنشد مخارق قول الحرث بن خالد المخزومى

أظُلَيم إن مصابكم رجلا أهدى السلام تحية ظلمُ (١)

بنصب رجل ، ورأى علماء الكوفة حوله رفعه مع تمسك مخارق بانشاده رواية عن المازنى ، فلما قدم المازنى أوجب النصب مدللا عليه فى حديث طويل ، فأصاب نجحا عظيما عند الواثق ، ثم حمله الواثق على اختبار العلماء فوقفوا من المازنى على علم جم ، ورغبه الواثق فى البقاء فاعتذر وعاد أدراجه إلى البصرة مرعى الجانب من الواثق ثم من أخيه المتوكل بعده ، والمازنى على طول باعه أبى التصنيف فى النحو إذ كان يقول الكلمة المتقدمة فى كتاب سيبويه (من أراد أن يصنف كتابا واسعا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى) نعم ألف كتابا فى علل النحو ، وكتاب التصريف ، وله كتب أخرى فى غير النحو ، ومن شعره

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأى النساء وإمرة الصبيان

أما النساء فانهن عواهر وأخو الصبا يجرى بكل عنان

توفى رحمه الله بالبصره سنة ٢٤٩ هـ على الأشهر

٤ ـ أبو حاتم السجستانى : هو سهل بن محمد نشأ بالبصرة وأخذ عن أبى زيد والأصمعى وأبى عبيدة ، وقرأ كتاب سيبويه مرتين على الأخفش ثم نبه شأنه فانتفع الناس بدراسته إلا أنه لم يكن حاذقا بالنحو ، له مصنفات مختلفة منها إعراب القرآن ، وكتاب الادغام توفى سنة ٢٥٠ هـ

---

(١) البيت المذكور من شواهد النحاة فى المصدر الميمى ، وحادثته مع مانجم عنها من الحظوة عند الخليفة مفصلة فى الاغانى أخبار الحرث ، وفى المغنى الباب الخامس آخر الجهة الاولى ، وفى وفيات الاعيان ، وكذا معجم الادباء ترجمة المازنى مع تفصيل الاسئلة التى وجهها المازنى ، ونقل كل ذلك فى شرح درة الغواص عند الوهم ٦٠.

٥ - الرياشي هو أبو الفضل العباس بن الفرج مولى محمد بن سليمان الهاشمي ، ولقب بالرياشي لان أباه كان عبداً لرجل من جذام اسمه رياش فانتقل اللقب من أبيه بعد الشهرة إليه ، نشأ بالبصرة وأخذ النحو عن المازني وسمع منه كتاب سيبويه ، واللغة عن الاصمعي ، ثم صار من كتاب النحاة واللغويين ، له تصانيف ليست منها كتب نحو ، قتل وهو يصلي الصبح قائماً في الفتنة المشؤومة (موقعة الزنج) بالبصرة سنة ٢٥٧ ﻫ

السابعة

١ - المبرد : هو أبو العباس محمد بن يزيد من بني ثمالة (بطن من أزدشنوءة) ولد بالبصرة وأخذ عن الجرمي والمازني وأبي حاتم وغيرهم إلا أن أغلب تلقيه عن المازني ، ثم نبه قدره في البصرة وانتهت اليه الرياسة حتى قال الناس ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه ، فأما سبب تلقيبه بالمبرد فقال ياقوت (وإنما لقب بالمبرد لانه لما صنف المازني كتاب الالف واللام سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب ، فقال له المازني قم فأنت المبرد « المثبت للحق » فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء) ، آراؤه في النحو مستفيضة في الكتب .

كان غير متقيد برأى المذهبين البصري والكوفي متى بدا له رأى آخر ، فمن ذلك على سبيل التمثيل منه تقديم خبر ليس عليها قال ابن جني (وذلك كانكار أبي العباس جواز تقديم خبر ليس عليها فأحد ما يحتج به عليه أن يقال له إجازة هذا مذهب سيبويه وأبي الحسن وأصحابنا كافة ، والكوفيون أيضا معنا ، فاذا كانت إجازة ذلك مذهبا للكافة من البلدين وجب عليك يا أبا العباس أن تنفر عن خلافه الخ) [١]

---

(١) الخصائص باب (في الاحتجاج بقول المخالف) ج ١ ص ١٩٦

ومن آرائه الغريبة تجويزه ظهور كان بعد أما في نحو أما أنت منطلقا انطلقتُ قال الرضى (وأجاز المبرد ظهور كان على أن ما زائدة لا عوض ولا يستند ذلك الى سماع) - كما أنه كان كثيرا ما يخطىء بعض الاساليب لسعة أفقه فى الاطلاع، فمن ذلك على سبيل المثال إنكاره وقوع الضمير المتصل بعد لولا، مثل لولاى ولولاك ولولاه ونحوها؛ فقد ذكر بعد كلام رد به تخريجى سيبويه والأخفش لها ما نصه (والذى أقوله إن هذا خطأ لا يصلح إلا أن تقول لولا أنت كما قال الله عز وجل: لولا أنتم لكنا مؤمنين) [1]، وتعقبه لسيبويه مشهور، وقد ذكرنا شيئا منه فى الكلام على الكتاب

استشرفت نفسه بغداد فاتصل بالخلفاء والأمراء ينافس ثعلبا إمام الكوفيين ذا المكانة في بغداد فوقعت بينهما العداوة والبغضاء، بلغه يوما أن ثعلبا نال منه فقال فى ذلك مغيظا

رب من يعنيه حالى　　　وهو لا يجرى ببالى
قلبه ملآن منى　　　وفؤادى منه خالى

وجرت بينهما مناظرات تكلمنا على واحدة منها سابقاً ظفر فيها ثعلب، ودام النفور بين الأمامين حتى لقى المبرد ربه فرثاه ثعلب، ولقد خلف مصنفات فى علوم متنوعة برهنت على أدبه الجم وعلمه الغزير. منها فى النحو المقتضب، وشرح شواهد سيبويه والردعليه، وله فى تاريخ النحاة طبقات النحويين البصريين وأخبارهم، وقد نوهنا في كلمة سابقة عن كتابه الكامل، والتعريف الكافى عنه يتطلب بسطا لا يسعه المقام؛ وترجمته مبسوطة فى كتب الأدب والتراجم والتاريخ توفى ببغداد سنة ٢٨٥ هـ

---

(١) راجع الكامل مع الرغبة جـ ٨ ص ٤٩ والكلام مستوفى فى الخزانة شاهد ٣٩٥

طبقات الكوفيين

الأولى

١ - الرؤاسى هو أبو جعفر محمد بن الحسن ، مولى محمد بن كعب القرظى ، لقب بالرؤاسى لكبر رأسه ، نشأ بالكوفة وورد البصرة فأخذ عن أبي عمرو بن العلاء وغيره من علماء الطبقة الثانية البصرية ، ثم قفل إلى الكوفة واشتغل فيها بالنحو مع عمه معاذ وغيره ، فتكونت الطبقة الأولى الكوفية ، ثم صنف كتابه (الفيصل) فى النحو ، وقد مر في الكلام على الطور الثانى أن الخليل بعث إلى الرؤاسى يطلبه فأرسله إليه ، وأن سيبويه نقل فى كتابه عنه كما نقل عن البصريين غير أنه كان يقول عنه (وقال الكوفي) دون تصريح باسمه ، فالى الرؤاسى يرجع بدء النحو فى الكوفة دراسة وتأليفاً فهو رأس الطبقة الأولى الكوفية، وكتابه أول مؤلف في النحو بالكوفة ، توفى بالكوفة فى عهد الرشيد .

٢ — معاذ الهراء :هو أبو مسلم ، لقب بالهراء لبيعه الثياب الهروية وهو عم الرؤاسى ومولى القرظى أيضاً، أقام بالكوفة واشتغل مع ابن أخيه فى النحو غير أن ولوعه بالأبنية غاب عليه حتى عده المؤرخون واضع الصرف ، ولم يوقف له على مصنف ، عمر طويلا وتوفى عام نكبة البرامكة سنة ١٨٧ هـ .

الثانية

١ - الكسائى : هو أبو الحسن على بن حمزة مولى بنى أسد فارسى الأصل ، سئل عن تلقيبه بالكسائى فقال (لأنى أحرمت فى كساء) وقيل فى السبب غير هذا ، نشأ بالكوفة وتعلم النحو على كبر ، ذلك لانه

حادث قوما من الهبّاريين لحنوه فعز على نفسه وطفق يتعلم النحو ، فأخذ عن معاذ الهراء ما عنده ثم توجه تلقاء البصرة فتلقى عن عيسى بن عمر والخليل وغيرهما ولما أعجب بالخليل قال له من أين أخذت علمك هذا ؟ قال من بوادى الحجاز ونجد وتهامة، فجاب هذه الوادى وقضى وطره ثم انحدر إلى البصرة فألفى الخليل قضى نحبه وخلفه يونس فجلس في حلقته ومرت بينهما مسائل اعترف له يونس بها ، من ذلك ما قال المبرد (وروى أن يونس ابن حبيب قال لابى الحسن الكسائى كيف تنشد بيت الفرزدق فأنشده

غداةَ أحلّت لابن أصرم طعنة حُصَيْنٍ عبيطاتِ السدائف والخمرُ

فقال الكسائى لماقال غداة أحلت لابن أصرم طعنة حصين عبيطات السدائف تم الكلام ، فحمل الخمر على المعنى أراد وحلت له الخمر فقال له ما أحسن ما قلت)[1]

ثم عاد إلى الكوفة ينشر علمه ، والكوفة متعطشة إلى نحو مضارع نحو البصرة ، وفى الكسائى نشاط فى الدراسة والتصنيف فتقوى المذهب الكوفى وبدأ يناهض البصرى على يد الكسائى الذى دوّى ذكره حتى وصل مسمع أمير المؤمنين المهدى فى بغداد، فاستقدمه لحادثه خاصة ورأى فيه عالما خريتا لقنا، فاستبقاه فى بغداد وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد فاحتضنه الرشيد بعد الخلافة ليؤدب ولديه الامين والمأمون، ثم صعد به جده وصار من الجلساء المؤانسين، ومن هنا ساد المذهب الكوفى وتكاثرت أتباعه وعز علماؤه ، فعز على علماء البصرة شأنهم وجاءوا بغداد يناهضونهم فكانت

---

(١) راجع الكامل مع الرغبة ج ٤ ص ٥٩ وما بعدها ، ومثل ذلك فى شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ٣٢ ، ج ٨ ص ٧٠

المناظرات الماضية ، وكان الكسائى ذا تُدْرَه الكوفيين فى أغلبها ، له مصنفات كثيرة، منها في النحو مختصر . وعلى يد الكسائى تكاثرت الفوارق بين المذهبين لاختلاف الاتجاهين، وسنعقد مبحثاً خاصاً نفصل ذلك فيه بمشيئة الله تعالى ، وأخباره ذائعة مشهورة ، وبقى الكسائى أثيراً عند الرشيد حتى توفى بالرّى سنة ١٨٩ هـ

الثالثـــة

١ ـ الأحمر . هو أبو الحسن على بن الحسن المعروف بالأحمر ، كان جنديا من رجال النوبة على باب الرشيد ، ثم سمت نفسه إلى العلم فكان يترصد فى الطريق الكسائى عند حضوره للرشيد ويسير فى ركابه وبحاشيته جيئة وذهاباً يستفيد منه المسألة بعد الأخرى حتى عد فى أصحاب الكسائى ، فلما أصيب الكسائى بالوَضح وكره الرشيد ملازمته أولاده فأشار عليه باختيار نائب عنه ، فاستخلف الأحمر إبقاء على مجده واطمئناناً منه على خضوع الأحمر له وعاهد الأحمر على أن يلقنه يوما فيوما مايؤدب به أولاد الخليفة ، وكان الأحمر يقظاً فطنا فأجاد التعلم والتعليم حتى بز أصحاب الكسائى وتبوأ مكانته ونعم برُفَهْنية العيش ، وقد أملى شواهد نحوية ، واجتمع عليه الناس ، وصنف كتاب التصريف ، ومات بطريق الحج سنة ١٩٤ هـ

٢ ـ الفرّاء . هو أبو زكريا يحي بن زياد مولى بنى أسد لقب بالفراء (لأنه كان يفرى الكلام) ، ولد بالكوفة من أصل فارسى وتلقى عن الكسائى وغيره وتبحر فى علوم متنوعه ، فكان فذاً فى معرفة أيام العرب وأخبارها وأشعارها والطب والفلسفة والنجوم ، وتقصى أطراف علم النحو حتى قيل فيه (الفراء أمير المؤمنين في النحو) وهو الذى قال (أموت

وفى نفسى شيء من حتى لأنها ترفع وتنصب وتخفض) ، طمع فى نوال الخلفاء فانحدر إلى بغداد ولج فى الاتصال بالمأمون حتى وصله ثمامة بن أشرس، فخاطه الخليفة برعايته ورغب إليه أن يؤدب ابنيه كما اقترح عليه أن يؤلف كتاباً يجمع أصول النحو وهيأ له داراً خاصة فيها وسائل النعيم متكاملة، فأخرج له كتاب (الحدود) بعد سنتين ، ومازال الفراء وجيهاً عند المأمون مغبوط المنزلة بين الأمة يؤلف ويفيض علمه حتى توفي سنة ٢٠٧ هـ فى طريق مكة .

٣ ـ اللحيانى. هو أبو الحسن على بن المبارك من بنى لحيان، أخذ عن الكسائى وغيره، وله كتاب النوادر، توفي سنة ٢٢٠ هـ .

الرابعة

١ ـ ابن سعدان . هو أبو جعفر الضرير محمد بن سعدان ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن أبى معاوية الضرير وغيره ثم اشتهر بالعربية والقراءات، صنف كتاباً فى النحو وتوفى سنة ٢٣١ هـ

٢ ـ الطُوال هو أبو عبدالله محمد بن أحمد نشأ بالكوفة، وسمع من الكسائى وغيره ، وقدم بغداد، مات سنة ٢٤٣ هـ

٣ ـ ابن السكيت . هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ، لقب أبوه بالسكيت لطول سكوته ، نشأ ببغداد وسمع من الفراء وغيره ونبغ فى النحو وغيره من علوم العربية ومصنفاته كثيرة ، منها كتاب القلب والابدال ، وفعل وأفعل ، وإصلاح المنطق ، والألفاظ ، خرج إلى سامرا فاتخذه المتوكل مؤدب ولديه المعتز والمؤيد ، ولشهرته بالتشيع سألة المتوكل يوما أيما أحب اليك أبناى أم الحسن والحسين ؟ فأجابه بما أغضبه ، فأمر

الأتراك فسلوا لسانه وداسوا بطنه ، فمات سنة ٢٤٣ هـ

٤ ـ ابن قادم . هو أبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم أخذ عن الفراء وحذق النحو وتعليله ، واتصل بالعباسيين فأدب المعتز قبل الخلافة ، وله مؤلفات منها فى النحو الكافي ، والمختصر . توفى ببغداد سنة ٢٥١ هـ

الخامسة

١ ـ ثعلب . هو أبو العباس أحمد بن يحى المعروف بثعلب مولى بنى شيبان ، ولد ببغداد فى عصرها الذهبي وتلقى عن ابن الاعرابى وابن سلام وابن قادم والجمحى وسلمة ابن عاصم وغيرهم ، غير أنه كان للنحو من بين علوم اللغة العربية النصيب الأوفى من عنايته ، واعتماده فيه كان على سلمة بن عاصم ، وهبه الله حافظة واعية مكنته أن يستظهر مايقرأه فحفظ كتب الكسائى والفراء ، واستطاع أن يقرأ بنفسه كتاب سيبويه فتزعم رياسة النحو للكوفيين إلا أنه كان لايجيد القياس ، اتصل بالخلفاء والأمراء كأسلافه الكوفيين فأدب ابن المعتز وابن طاهر ، وجمعت بغداد بينه وبين أبى العباس المبرد زعيم البصريين الذى نافسه شرف الرياسة العلمية والزلفى عند الخلفاء والأمراء فكانت بينهما مناظرات ذكرنا سابقاً واحدة منها فاز فيها ثعلب ، ولكل منهما شيعته وحزبه وسعى بينهما القتاتون ، وكان المبرد يتطلب لقيا ثعلب كثيراً فيراوغه ويتلكأ عن إجابته . ولثعلب مجالسة مع الرياشي سلفت أيضا ، وله نادرة طريفة تتعرف منها نفاسة علم النحو وأنه أحرى العلوم كلها بالرعاية رأيت إرجاءها الآن لتكون مسك الختام لهذا الكتاب ، له رحمة الله عليه مصنفات شتى ، منها فى النحو اختلاف النحويين ، والموفق ومايتصرف ومالا ينصرف ، وحد النحو ، وأخباره

مفصلة فى كتب الادب والتراجم والتاريخ ، وكانت وفاته ببغداد من صدمة دابة له فى الطريق لم يسمع وقع حوافرها وراءه لصممه سنة ٢٩١ﻫ

أسباب الاختلاف بين البصريين والكوفيين

إقليم العراق العربى من أسبق الأقاليم مدنية وعمراناً لخصب تربته ووفرة مياهه واعتدال جوه، تعاقبت عليه قدماً متحضر والامم من البابليين والآشوريين والفرس، كما انحدر اليه العرب من بكر وربيعة وكانت منهم إمارة المناذرة بالحيرة، ولما أشرقت عليه شمس الاسلام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنشأ فيه المسلمون البصرة سنة ١٥ ﻫ ثم الكوفة بعدها بستة أشهر على أصح الروايات ، وسرعان ما ازدهر البلدان وتحولت إليهما حضارة بابل والحيرة وهوت إليهما أفئدة من المسلمين وزخراً بالعلماء والقواد وتقاسما مدنية العراق ، حتى كان إذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة وكانوا يطلقون أحيانا عليهما العراقين

ومع أن البلدين يضمهما سياج العراق فقد غرست النزعة السياسية بينهما بزرة الضغن لماهبط علىّ كرم الله وجهه الكوفة واتخذها مقر خلافته وقدمت أم المؤمنين عائشة البصرة على رأس جيش فيه طلحة والزبير طلبا لثأر عثمان رضى الله عنه، فكانت موقعة « الجمل » المعروفة بينهما موقعة بين البلدين : ولعل السر فى مجاوزة الامام علىّ البصرة مع أنها على حرف البادية وتكبده مشاق السفر إلى الكوفة مع توغلها فى العراق ما عرف عن الكوفة من ميل أهلها إلى الطاعة ديانة دون البصرة التى اشتهر أهلها بالعصيان والشقاق والعصبية ، ولكثرة اليمنيين بها المخلصين للهاشميين

المصدورين من القرشيين ، ومن حين هذه الموقعة اختلف هواهما فالبصرة عثمانية والكوفة علوية ، وازداد هذا الاختلاف بتعاقب الأيام قال أعشى همدان عبدالرحمن — على لسان الكوفة

فاذا فاخرتمونا فاذكروا   مافعلنا بكم يوم الجمل[١]

جاءت دولة بنى أمية فكان ضلعها مع البصرة التى ظاهرتها وناصرتها ، والكوفة على تبرم وحنق مستجنين فى قلبها بضغط الأمويين عليها ، وفى الدولة قسوة ورجالها صرامة ، ثم قامت الدولة العباسية على أنقاضها وكان مبدأ ظهورها فى الكوفة ، فأن أبا العباس السفاح أول خلفائها إنما تمت له البيعة فيها بفضل تشيعها ومظاهرتها للهاشميين ، ولقد حفظ العباسيون لها تلك الصنيعة وعطفوا عليها وكافئوها ، فانقلب الأمر فى البلدين ، وعزت الكوفة بعد ذل وأفل نجم البصرة بعد تألق (وتلك الأيام نداولها بين الناس) .

كل ذلك مما أوسع شقة الخلاف بين البلدين حتى تألب كل على الآخر وقلب له ظهر المجن وفى كتاب (البلدان) لأبى عبد الله أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه الشىء الكثير مما تراميا به من الأقوال وتباريا فيه من المفاخرات — نسوق هذا لتعرف متى ولد سبب الاختلاف الذى جرهما إلى تطاول بعضهما على بعض ، وحبب اليهما إيثار المخالفة فى المسائل العلمية على الموافقة فيها ، إذما بدأت المنافسة العلمية النحوية بينهما إلا بعد أن عملت عوامل الخلاف عملها ، ووضعت السدود الحصينة التى تحول دون الوفاق بينهما وتسلطت الأثرة عليهما .

---

(١) البيت من قصيدة له راجع الأغاني أخبار أعشي همدان ج ٦ ص ٥٥

وكان ذلك كما سبق فى أول الطور الثانى على عهد الخليل والرؤاسى بعد اجتماعهما أولا فى الأخذ عن الطبقة الثانية البصرية ، بعد تكوين هذا الفن ونشوئه في البصرة .

المذهب البصرى

لقد كان من حسن الحظ للنحو أن كانت البصرة مولده و مهده لأنها اختصت بما حُرِمته الكوفة التى ناهضتها بعد ذلك .

أولا – أن العرب النازحين إليها من القبائل العريقة في اللغة الفصحى استطابوها فاتخذوها دارهم وأكثرهم من قيس وتميم الذين بقوا على عربيتهم

ثانيا – أنه كان على كثب منهم (المرْبد) الذى قد اتخذه العرب سوقا فى الجهة الغربية منها مما يلى البادية بينه وبينها نحو ثلاثة أميال ، يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه ، وقد صارت هذه السوق فى الاسلام صورة معدلة لعكاظ الجاهلية ، فكانت فيه النوادى الأدبية والمجامع الثقافية ، تألفت فيه حلقات الانشاد والمفاخرة والمنافرة والمعاظمة ومجالس العلم والأدب ، فكان الشعراء يؤمونه ومعهم رواتهم ، وكانت لفحولهم حلقات خاصة فيه ، قال الأصفهانى (وكان لراعى الابل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها) [١] كما كان العلماء والأدباء والأشراف ينزلون فيه للمذاكرة والرواية والوقوف على ملح الأخبار ، واللغويون يأخذون عن أهله ويدونون ما يسمعون ، والنحويون يسمعون فيه ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم . وكثيراً ما نجد التنويه عنه فى تراجم النحاة واللغويين .

---

(١) راجع الأغانى أخبار جرير جـ ٨ ص ٢٩ طبع الدار

ثالثا — موقعها الجغرافى فانها على طرف البادية مما يلى العراق وأدنى المدن إلى العرب الأقحاح الذين لم تلوث لغتهم بعامية الامصار ، فعلى مقربة منها بوادى نجد غرباً والبحرين جنوباً ، والأعراب تفد إليهم منهما ومن داخل الجزيرة العربية بكثرة . كل أولئك يسر لعلماء البصرة حينما قاموا بتدوين القواعد أن يجدوا طلبتهم وينالوا رغبتهم ، ففى هذه الثلاثة مدد من اللسان العربى الفصيح لا ينفد ، وهم فى بصرتهم مقيمون لا يتجشمون بعدئذ أسفاراً ولا يجوبون قفاراً ، إذ لم تشتد الحاجة أولا للرحلة في مدى الطبقتين الأولين من طبقاتهم ، لأنهم لم يبلغوا الغاية في تجريد القياس وتعليل النحو وتفريعه ولم تضطرب الروايات فى هذا الحين ، ومادة اللغة قوية .

ولا ريب أن نشوء النحو بالبصرة إنما كان تلبية لداعى المحافظة على صيانة اللغة العربية مما نزل بها منذرا بالخطر المدلهم الذى لو ترك وشأنه لدرجت كما درج غيرها من اللغات ، كما كان واجباً على من دخل في الاسلام من غير أبناء العرب أن يتعلمه ليتعرف لغة القوم الذين صار منهم حتى يتم الاندماج بينهما وتستحكم أواصر الوحدة فيهما « إنما المؤمنون إخوة » والفضل فى ذلك راجع إلى أبى الاسود الذى توطنها مع تشيعه للعلويين ومناوأة البصريين للعلويين وشيعتهم ؛ إلا أن سلطان هذا العلم استرعاهم فأقبلوا اليه يزفون وتحلقوا حوله وتدارسوا مسائله حباً فى المعرفة لذات المعرفة ورغبة فى العلم لذاته غير طامعين فى مغنم أو حريصين على شىء من حطام الدنيا ، وأغلبهم من الموالى الذين سعد بهم هذا العلم منذ بزغ فجره لأنهم من أمم مرنت على مزاولة العلوم والفنون بحسب لغاتها ، فشدوا عضد أبى الاسود فى التدوين وكانوا له خير معين .

كان لتعاون تلك البيئة التي تموج بمختلف العرب الذين يمثلون أغلب القبائل المعترف بينهم بسلامة سلائقها كما كانت تعج بالرواة والحفظة والنقدة وهذا الداعي العلمي الخالص ـ الأثر الطيب في سلوك البصريين في قواعدهم ونظمهم العلمي ، فحولهم الاساليب العربية متوافرة تجود لهم بشواهد القواعد دون مجهود يلحقهم ولا منافس لهم يستعجلهم ويقطع عليهم سلسلة الاستقراء حتى ينقوا بما يدونون متئدين مطمئنين إلا شيء واحد ، ذلك هو منادي العلم المحض ، فكان لزاما لذلك أنه لم تدون قواعدهم إلا مدعومة على عناصر ثلاثة :

١ ـ سلامة من أخذوا عنه من العرب المقطوع بعراقتهم في العروبة وصونهم فطرهم من تسرب الوهن إليها من رطانة الحضارة حتى لم يأخذوا إلا عن سكان البوادي ، بل كانوا يتحرزون عنهم إذا لحوا عليهم ضعفا اعتراهم ، فكانوا يختبرونهم أحيانا قبل التقبل لما يروون عنهم قال ابن جنى (ومن ذلك ما يحكى أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبي خَيْرة لما سأله فقال كيف تقول استأصل الله عرقاتهم ففتح أبو خيرة التاء فقال له أبو عمرو هيهات أبا خيرة لانَ جلدك)[١]

٢ ـ والثقة برواية ما سمعوه عنهم من طريق الحفظة والأثبات الذين بذلوا النفس والنفيس في نقل المرويات عن قائليها معزوة إليهم

٣ ـ والكثرة الفياضة من هذا المسموع التي تخول لهم القطع بنظائره وتسلمهم إلى الاطمئنان عليه في نوط القواعد به ، وإلا اعتبروه مرويا

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٤١٣ ، وأبو عمر وهو أبو عمرو بن العلاء ، وأبو خيرة هو نهشل بن يزيد راجع هذه الحكاية في ترجمة أبي عمرو في نزهة الألبا

يحفظ ولا يقاس عليه إلا إذا لم يرد من نوعه ما يخالفه ، فلا بأس من اعتباره مبنى للتقعيد عليه ، ومن هنا ارتضى العلماء رأى سيبويه الذى ألحق فيه فعولة بفعيلة في النسب فى حذف حرف المد وقلب الحركة فتحة اعتماداً على سماعه فى النسب إلى شنوءة شنئيا وعدم سماع مايخالفه نسبياً من هذه الزنة — ولذا قال ابن جماعة فى حاشيته على الجاربردى (فهو جميع المسموع منها فصار أصلا يقاس عليه)

تلك حالة السابقين منهم وهم بذلك خطوا الخطة التى ترسمها خلفهم بعدهم عندما كانت المنافسة بين البلدين ، وأخذت الكوفة تنحاز لنفسها وتهيىء لها طريقاً آخر ، بل زاد عندئذ البصريون نشاطاً ومثابرة على السير فى مناهجهم ، إذ قد بدأ وقتذاك اختبال الألسن ودخل إلى الطباع الفساد وخلص شيء من ذلك إلى الأجيال الناشئة فى الحضر ، فاختلف المصران على بعضهما وتمكنت منهما العصبية ، وأخذ كل في الطعن على الآخر .

كل ذلك حمل كثيراً من البصريين على التطواف فى الجزيرة العربية ولم يقنعهم مابين ظهرانيهم ، فارتحل من رجال الطبقة الثالثة الخليل ويونس وغيرهما ومن الرابعة أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعى وأخذوا عن القبائل ، وإن توافر على الأصمعى ميله إلى غير النحو والصرف من علوم اللغة العربية فأخذوا عن القبائل البعيدة من أطراف الجزيرة والباقية فى سرتها من جفاة الأعراب وأهل الطبائع المتوقحة ، وتحاموا سكان الأطراف الحضريين المخالطين لغير العرب ، وربما كان أوفى كتاب استقرأ القبائل من المصنفين كتاب الألفاظ والحروف للفارابى ، وقد نقل كلامه بنصه السيوطى فى المزهر (النوع التاسع الفصل الثانى في معرفة الفصيح من

العرب) فأجهد هؤلاء العلماء أنفسهم وشرقوا وغربوا وتحملوا ذلك الشهور والأعوام وما بالوا ما نالهم من نصب أو مخمصة تفانياً فى التثبت بأنفسهم من سلامة ما يروون عن العرب فشافهوهم في أوديتهم وسمعوا منهم فى أخبيتهم ومراعيهم وأسواقهم ومجتمعاتهم ، وقدموا للعلم خدمة جلى ويدا لاتنسى . فمن هؤلاء أخذت علوم العربية وفي أيامهم دونت ، وجُل مافى أيدى الناس منها إنما كان بفضلهم ، سأل الكسائى الخليل من أين أخذت علمك ؟ فقال من بوادى نجد والحجاز وتهامة ويقول الأصمعى (سمعت صبية بحمى ضَرِيَّة يتراجزون فوقفت وصدونى عن حاجتى وأقبلت أكتب ما أسمع فأقبل شيخ فقال أتكتب كلام هؤلاء الأقزام الأدناع)[1]

وما زالت الرحلة للجزيرة العربية سنة متبعة عند العلماء إلى أواسط القرن الرابع ، ثم فسدت سلائق العرب فيها ، فاكتفى العلماء بآثار أسلافهم التى حوتها الكتب ، وإنما كان العلماء بعد ذلك يسألون بعض الأعراب المتوسمين بشيء من جفاء البادية ممن لم تنسخ فيهم الفطرة نسخاً ليستريحوا إلى ذلك لا ليأخذوا به وهذا بالنسبة إلى البادية ، أما الحضر فضعفت الثقة بشعرائه من منتصف القرن الثانى تقريباً يقول الأصمعى (ختم الشعراء بابن هَرْمة والحكم الخُضْرى وابن ميّادة وطُفيل الكنانى ومَكين العذرى)[2]

بالغ البصريون في التحرى والتنقيب عن الشواهد السليمة ، وأبلوا في ذلك ما شهد لهم به الدهر ، فتجافوا عن كل شاهد منحول ومفتعل . وآية ذلك أول كتاب لهم وهو كتاب سيبويه ، وقد اعترفت له شهادة العلماء

---

(١) المزهر النوع السادس ، ضرية بلدة ، والأقزام القصار ، والأدناع السفلة

(٢) راجع ترجمة ابن هرمة في الشعر والشعراء ، وفى الاغانى

فيه من شيوخه وأترابه والذين بعده ، فكانت أقيستهم وقواعدهم قريبة الصحة لكفالة مقدماتها بسلامتها ، فلا غرابة بعدئذ أن جعلوها الحكم بينهم فيما يرد من الكلام غير مكترثين بما جاء مخالفاً لها مما لا ظهير له ولا مثيل فى كثرة الاستعمال والتداول ـ فهم بعدئذ أمامه إما أن يؤولوه تأويلا يتفق وقواعدهم وإما أن يستنكروه لكثرة ما اندس من الرواة وذوى الأهواء فى اللغة وإما أن يتلمسوا الضرورة إذا كان فى نظم ـ فان اعتاص كل ذلك عليهم فانهم يضطرون إلى جعله جزئياً شاذاً يوضع فى صف المحفوظات التى لا يقاس عليها ، وفى كتب النحو مايقفك على كل هذا ، ولنضرب لك بعض أمثلة مما ورد مخالفاً لأقيستهم فتخلصوا منها بمثل ذلك قضت أقيستهم

١ – ألا يعمل الوصف إلا معتمداً على نفى ، أو استفهام ، أو موصوف ولو معنى لفظاً أو تقديراً ، فيرد عليهم قول الطائى .

خبير بنو لهب فلاتك ملغيا　　　مقالة لهبى إذا الطير مرت

فيؤولونه بأن الوصف خبر مقدم والمطابقة على حد « والملائكة بعد ذلك ظهير » .

٢ – وجوب تذكير الفعل مع جمع المذكر السالم وتأنيثه مع المؤنث السالم ، فيرد عليهم فيهما (آمنت به بنو اسرائيل) وقول عَبْدة بن الطبيب

فبكى بناتى شجوهن وزوجتى　　　والظاعنون إلى ثم تصدعوا [١]

فيتخلصون بأن هذين الجمعين لم يسلم فيهما نظم الواحد فكانا لجمعى التكسير .

٣ – عدم نيابة الظرف أو الجار والمجرور أو المصدر عن الفاعل مع

---

(١) البيت من قصيدة فى المفضليات

وجود المفعول به فيرد عليهم (ليُجزى قوما بما كانوا يكسبون) وقول جرير

ولو ولدت قُفَيرة جرو كلب   لسب بذلك الجرو الكلابا [١]

فيقولون النائب فى الآية ضمير الغفران ، والبيت ضرورة ، وغير هذا

٤ - وجوب تنكير التميز فيعترض عليهم بقول رشيد اليشكرى

رأيتُك لما أن عرفت وجوهنا   صددت وطبت النفس ياقيس عن عمرو

فلا يجدون إلا الضرورة

٥ - عدم جواز تأكيد النكرة فيرد عليهم قول عبد الله بن مسلم الهذلى

لكنه ساقه أن قيل ذا رجب   يا ليت عدة حول كله رجبا [٢]

فيقولون الرواية عدة حولى ، أو للضرورة

٦ - عدم إظهار أن بعد كى فيعترض عليهم بقول الشاعر

أردت لكيما أن تطير بقربتى   فتتركها شنا ببيداء بلقع [٣]

فيقولون لا يعرف قائله ، أو لضرورة الشعر ، أو غير ذلك

٧ - عدم عمل أن محذوفة فى غير مواطنها المعروفة فيرد عليهم .

خذ اللص قبل يأخذك ، وتسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، وأمثال هذا

فيقولون إن ذلك شاذ يحفظ ولا يجارى فى الاستعمال

كل ذلك إنما سرى لهم من التعويل على قواعدهم ، بل لقد بلغ بهم

---

(١) قفيرة أم جد الفرزدق ، والبيت من شواهد الرضى راجع الخزانة شاهد ٥١ ومن القصيدة المشهورة

(٢) البيت من قصيدة فى معجم البلدان « أحزاب » ، وفى رغبة الآمل على الكامل ج ٧ ص ٢١٤ وما بعدها .

(٣) البيت من شواهد شرح المفصل والرضى راجع الخزانة شاهد ٦٥٣

الاعتزاز بها إلى الاعتراض على العربى المطبق على الاستشهاد بقوله كما رأيت فيما تقدم من اعتراض ابن أبى اسحق على الفرزدق — وأغرب من ذلك تعقب تلميذه عيسى بن عمر قول النابغة.

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرُقش فى أنيابها السم ناقع[١]

إذ قال قد أساء النابغة إنما هو ناقعا — وقد خطأ الأصمعى وأبو عمرو ذا الرمة فى قوله :

حراجيجُ ماتنفك إلا مُناخة على الخسف أو نرمي بها بلدا قفرا[٢]

لأن أفعال الاستمرار بمعنى الايجاب فلا يصح الاستثناء فى خبرها

ويقول سيبويه (واعلم أن أناسا من العرب يغلطون فيقولون إنهم أجمعون ذاهبون وإنك وزيد ذاهبان)[٣]

ضجر الشعراء من النحاة ، ولهذا قال عمار الكلبي لما عيب عليه بيت من شعره

---

(١) البيت من شواهد سيبويه جـ ١ ص ٢٦١ والمغنى الباب الخامس الجهة السادسه النوع الثاني ، والبيت من قصيدة مشروحة فى خزانة الأدب شاهد ١٥٥

(٢) ذكر التخطئة الزمخشرى فى المفصل ، والرضى على الكافية راجع الخزانة شاهد ٧٣٦ ، والمغنى مبحث « إلا » ، والبيت من شواهد سيبويه على رفع « نرمى » جـ ١ ص ٤٢٨ ، وهو من قصيدة يقال لها أحجية العرب

(٣) راجع الكتاب جـ١ ص ٢٩٠ وقد نقلها بنصها الزمخشرى فى المفصل مبحث الحروف المشبهة بالفعل ، وكذا ابن مالك ، لكن ابن هشام حمل الغلط فى كلام سيبويه على التوهم وقد فهم ابن مالك الغلط على ظاهره راجع المغنى الباب الرابع اقسام العطف العطف على التوهم عطف المرفوع

ماذا لقينا من المستعربين ومن   قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا [١]

ومرجع هذه النزعة الى عيسى بن عمر وشيخه ابن أبى اسحاق من متقدمى البصريين ، دون غيرهما من معاصريهما ، فان يونس بن حبيب وشيخه أبا عمرو كانا يتحرزان عن تخطئة العرب ويعتمدان قوله وإن خالف القياس ، وقد غلبت النزعة الأولى الثانية على البصريين بعد سيبويه وصارت لهم منهاجا ، وانتقلت الثانية إلى الكوفيين ، ثم اتخذوها إحدى دعائم القواعد كما ترى .

المذهب الكوفى

لقد عرفت أن الكوفيين تأخروا عن البصريين في هذا العلم حقبة طويلة ، وذلك لانصرافهم أولا عن التلقى عنهم ربأ بأنفسهم عن الأخذ منهم ، وماعتموا أن شغلهم الشعر ورواياته والأدب وطرائفه ، فاستأثروا بهذا وتنفلوا به على البصريين مدة طويلة لم يشاركوا فيها البصريين النظر إلى علم النحو .

تنبه الكوفيون بعدئذ وصحوا من سباتهم وأرادوا مساهمة البصريين فيه بعد أن عرفوه منهم وشق عليهم أن تماع شخصيتهم فى البصريين إن لم يكن لهم نحو خاص وبينهما مابينهما من دواغل وإحن ، دعاهم ذلك الى تنظيم نحوهم على نمط خاص لا ينتحون فيه اتجاه البصريين ، ولديهم

---

(١) مطلع قصيدة فى الخصائص باب « في أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض الخ » ج١ ص ٢٤٨ ، وفى معجم الأدباء ترجمة ابن جنى مع ذكر البيت المعيب ، وفى فضائل خراسان أخبار الأخفش

فى معتقدهم من الوسائل ما يهيىء لهم نيل مأمولهم ، فاستمعوا من الأعراب الثاوين بالكوفة ، وقد كانوا أقل عدداً وأضعف فصاحة ممن كانوا بالبصرة وإن كان منهم لفيف من بنى أسد وغيرهم إلا أن أغلبهم اليمانون ، وأهل اليمن فى عين أهل التمحيص ممن لا يستند إليهم ، لخلاطهم الحبشة والهند والتجار الذين يفدون إليهم من مختلف الأمصار ، ولم تقم سوق (الكُنَاسة) بالكوفة التى كانوا يرتفقون منها حاجهم مقام (المِرْبد) بالبصرة مهبط الشعراء والخطباء من العرب المياسير والأعراب العُقْف المنتجعين للأرزاق

هذا مع قُصُوِّهم عن جزيرة العرب ينبوع معين هذا العلم ، وحيلولة صحراء السماوة بينهم وبينها ، فلم تكن لهم فيها إلا رحلات قليلة لبعد الشقة وثقل المؤونة كرحلة الكسائى المعروفة وهو زعيم طبقتهم الثانية التى تحاذى الرابعة البصرية ، أما طبقتهم الأولى فلم تكن لها رحلات ، على حين أن الطبقة الثالثة البصرية التى تقابلها أبلت فى الرحلات بلاء حسنا عاد على اللغة العربية بالأثر الذى لا يبلى .

على أنه لم يقف ذلك دون رواج الشعر فيما بينهم ، والشعر على كل حال ذو النصيب الأوفى فى تدوين القواعد بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله لتماسكه ومصابرته لأحداث الزمان ، بل قد فاقوا البصريين فى علمه بفضل الأوراق المطمورة من عهد النعمان بن المنذر ، قال حماد الراوية الكوفى (أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب فى الطنوج «الكراريس» ثم دفنها فى قصره الأبيض فلما كان المختار بن أبى عُبَيد الثقفى قيل له إن تحت القصر كنزاً فاحتفره ، فأخرج تلك الأشعار . فمن ثم أهل الكوفة

أعلم بالشعر من أهل البصرة) [١]

ولقد كانوا قبل العثور على هذه الأوراق مسوقين إلى الشعر عن رغبة ملحة وغريزة فيهم متأصلة منذ حل العرب الكوفة ، يؤيد ذلك أن علياً كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج ، على أن يستعدوا لقتال أهل الشام ثم تخاذلوا عنه ، لم ير أبلغ فى ذمهم من صفة التشاغل بالشعر ، فقال فى خطبته حين خطبهم (إذا تركتم عدتم إلى مجالسكم حلقاً عزين تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار تربت أيديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل) .

إن العثور على الأوراق السالفة الذكر صادف هوى من نفوسهم فازدادوا بها إقبالا على الشعر ، وزخر بحره عندهم وقذف فيه بالملح والطرف إلا أن النحل والافتعال طغيا عليه ، حتى التبس الأمر على الناس وأسند القول الى غير قائله ، قال أبو الطيب (الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم) [٢]

حقاً لقد كان ذلك إذ كان من رواتهم حماد المذكور الذى جر عليهم

---

(١) الخصائص باب (فيما يرد عن العرب مخالفا لما عليه الجمهور ج ١ ص ٣٩٣ وكان من خبر المختار انه وثب بالكوفة سنة ٦٦ هـ فى عهد عبد الله بن الزبير طلبا لثأر البيت العلوى وأخرج منها عامله ، فوجه اليه ابن الزبير اخاه مصعبا فقتله سنة ٦٧ هـ وهو من رؤوس الفتن فى الاسلام

(٢) مراتب النحويين ص ١١٩ ونقل فى المزهر النوع الرابع والأربعين

التلبيس في المرويات والازدياد عليهامن مختلقاته، وقد كان ضليعاً في الشعر وآداب العرب إلا أنه رقيق الأمانة ، قال فيه المفضل الكوفي (قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً، فقيل له وكيف ذلك أيخطىء في روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان كذلك فان أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك)[١]

بل إن خلفا الأحمر البصري قد زاد ذلك ضغثاً على إبالة فقد كان كذلك مضرب المثل في محاكاته من ينسب إليهم الشعر ، روى عنه الكوفيون كثيراً من الشعر ، (وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه قد أكثر الأخذ عنه وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد ، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم)[٢].

ومع أنه بصري فلم يعرف عنه أنه لبّس على البصريين وروى لهم شعراً منحولا ، وربما كان منشأ ذلك العصبية البلدية التي تملي على المتأثر بها ارتكاب مالا يجمل في المسائل العلمية ، وقيل إنه فعل ذلك انتقاما

---

(١) هذه الكلمة في الأغاني ترجمة حماد ، وفي معجم الأدباء في كل من ترجمة حماد وترجمة المفضل ، وفي خزانة الادب شاهد ٧٧٤

(٢) المزهر النوع الرابع والاربعين

لنفسه إذ ذهب إلى الكوفيين أولا للتلقى عنهم فبخلوا عليه بشعرهم ، قال أبو زيد (حدثنى خلف الأحمر قال : أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا على به ، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ عنهم الصحيح ، ثم مرضت فقلت لهم ويلكم أنا تائب إلى الله هذا الشعر لى ، فلم يقبلوا منى ، فبقى منسوباً الى العرب لهذا السبب)[١]

إن المصادفة التى جمعت بين هذين الوضاعين لكفيلة بتوريث الكوفيين توهيننا لمذهبهم فليس فى الرواة جميعاً على كثرتهم ومحاولة بعضهم الصنع من يدانى حماداً وخلفا ، فهما طبقة فى التاريخ كله يعرف ذلك من له إلمام بالأدب .

أبصر ذلك البصريون فصدفوا عن شواهد الكوفيين واطرحوها ظهريا ، الا ما كان من فرد واحد عن فرد واحد فقد سلف لك في ترجمة أبى زيد البصرى أنه انفرد بالرواية عن المفضل الضبى الكوفى ، بينما الكوفيون يتلقون بالقبول رواياتهم ويعتمدون على شواهدهم

على أنه ما كاد الكسائى وهو ناشر المذهب الكوفى وصاحب الفضل فيه يمن ببغداد حتى استمع الى الأعراب الذين فيها وحولها وهم أوشاب من مختلف القبائل غير العريقة في العروبة ، ومنهم أعراب الحُطَمِيات الذين قدموا بغداد وضربوا خيامهم فى قُطْرُبُل (قرية من متنزهات بغداد اشتهرت باللهو والخمر) فاعتد بكلامهم واستشهد به وهم من زعانف العرب الذين اختبل لسانهم ، فازداد مذهبه ضعفا على ضعف قال أبو زيد (قدم

---

(١) هذه الكلمة فى وفيات الاعيان (ترجمة ابى زيد)

علينا الكسائى البصرة فلقى عيسى والخليل وغيرهما وأخذ منهم نحواً كثيراً ، ثم سار إلى بغداد فلقى أعراب الحُطَمِيات فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن فأفسد بذلك ماكان أخذه بالبصرة كله) [١]

ولولاهم مافاز الكسائى وانخذل سيبويه في المناظرة البغيضة ، فان الكسائى إنما اعتمد على لغتهم واحتج بكلامهم وكانوا له مظاهرين ، ولذلك قال اليزيدى .

كنا نقيس النحو فيما مضى — على لسان العرب الأول
فجاء أقوام يقيسونه — على لُغى أشياخ قُطربل
فكلهم يعمل فى نقض ما — به يصاب الحق لا يأتلى
إن الكسائى وأصحابه — يرقون في النحو الى أسفل [٢]

وقد اقتفى الكوفيون طريق الكسائى ، فعولوا على شعر الاعراب بعد أن امتزجوا وتأشبوا بالمتحضرين ولان جفاؤهم ، ومن أجل هذا كان البصريون يغتمزون الكوفيين فيقول الرياشى البصرى (نحن نأخذ اللغة عن حَرَشة الضباب وأكلة اليرابيع وهؤلاء أخذوا اللغة عن أهل السواد أصحاب الكواميخ وأكلة الشَّواريز) [٣]

---

(١) راجع أخبار النحويين البصريين ترجمة أبى زيد ، والتصحيف والتحريف ما وهم فيه الكسائى ، ومعجم الأدباء ترجمة الكسائى

(٢) راجع شعر اليزيدى فى ترجمته فى أخبار النحويين البصريين ، ومعجم الأدباء ، وفى التصحيف والتحريف (ما وهم فيه الكسائى)

(٣) حرشة جمع حارش صائد الكلب والكواميخ جمع كامخ نوع من الأدم ، والشواريز جمع شيراز اللبن الثخين ، راجع ترجمة الرياشى

من ذلك كله ترى أنه لم تتهيأ لهم بيئة تصلح أن تكون منبعاً لنمير هذا الفن كبيئة البصريين بمن فيها وفى أرباضها وما دنا منها من العرب الخلص ، يضاف إلى هذا مااستفزهم للعمل حثيثاً فى إبراز فن لهم يضارع الفن البصرى غيرة منهم وحنقاً على البصريين، فأصاخوا إلى كل مسموع لهم وقاسوا عليه فعثرت بهم عجلة الرأى ، ولم يدققوا تدقيق البصريين بل تدرجوا مطاوعة لمناديهم إلى الاكتفاء بالشاهد الواحد ولو خالف الأصل المعروف المتفق عليه بين الفريقين ، قال الأندلسى (الكوفيون لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شىء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين)[1]

وقد يتساهلون مع هذا فى التثبت من معرفة القائل، وربما استشهدوا بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر ولا يعلم قائله كدليلهم على جواز دخول اللام فى خبر "لكن" بقول المجهول :

. . . . ولكننى من حبها لعميد [2]

وأول من سن لهم طريقة التسامح إلى أبعد مدى شيخهم الكسائى (وذلك أن الكسائى كان يسمع الشاذ الذى لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلا ويقيس عليه حتى أفسد النحو)[3]

---

(١) الاقتراح ص ١٠٠

(٢) باب إن وأخواتها من شواهد الزمخشرى فى المفصل ، والرضى راجع الخزانة شاهد ٨٦٥ ، والمغنى مبحث (لكن)

(٣) معجم الادباء ترجمة الكسائى

وسترى عند حكمة تخصص كل من المذهبين إشادة الكسائى بالقياس ، وكثر ما انحدر الكوفيون فناطوا القاعدة بالقياس دون ورود لمطاق شاهد ، فمن ذلك :—

أمثلة للقياس الكوفى

١ ـ تجويزهم مجىء العدد للتكرار على وزنى فُعال ومَفْعَل ممنوعا من الصرف للوصفية والعدل من خمسة إلى تسعة مع أن المسموع عن العرب فى ذلك من واحد لأربعة ، لكنهم قاسوا فى الباقى عليها قال الرضى (والمبرد والكوفيون يقيسون عليها الى تسعة نحو خُماس ومخمس وسداس ومسدس والسماع مفقود) [1]

٢ ـ وكذلك أجازوا تثنية أجمع وجمعاء وتوابعهما قياساً على جمعها ، قال الرضى (وقد أجاز الكوفيون والأخفش لمثنى المذكر أجمعان أكتعان أبصعان أبتعان ، ولمثنى المؤنث جمعاوان كتعاوان بصعاوان بتعاوان ، وهو غير مسموع) [2]

٣ ـ تجويزهم الجزم بكيف مطلقاً قال الرضى (والكوفيون يجوزون جزم الشرط والجزاء بكيف وكيفما قياساً ، ولا يجوزه البصريون إلا شذوذاً) [3]

٤ ـ تجويزهم النصب بأن مضمرة فى غير المسائل المعدودة قياساً قال الرضى (وقد تنصب مضمرة شذوذاً .. والكوفيون يجوزون النصب فى مثله قياساً) [4]

---

(١) شرح الكافية غير المنصرف (٢) شرح الكافية التأكيد

(٣) شرح الكافية باب الظروف « كيف » (٤) شرح الكافية آخر نواصب المضارع

٥ ـ ومثل ماتقدم تجويزهم عطف المفرد بلكن بعد الايجاب نظير بل بعده ، قال الرضى (أجاز الكوفيون مجىء لكن العاطفة للمفرد بعد الموجب أيضاً نحوجاءنى زيد لكن عمرو حملاعلى بل،وليس لهم به شاهد) [١]

٦ ـ ومثل ذلك تجويز إضافة (كذا) إلى مفرد أو جمع قياساً على العدد الصريح ، قال ابن هشام (خلافا للكوفيين أجازوا فى غير تكرار ولا عطف أن يقال كذا ثوب وكذا أثواب قياساً على العدد الصريح) [٢]

إن الكوفيين بعملهم هذا قد فتحوا باباً واسع الفوّهة على أنفسهم، فهم إذ أقاموا لكل مسموع وزناً والمسموع فى اختلافه لا يقف عند نهاية، واعتمدوا بعد هذا على القياس النظرى عند انعدام الشاهد انعداما كليا ، قد اضطروا إزاء هذا أن وضعوا قواعد كثيرة خالفوا فيها البصريين ، بل قد وضعوا جريا على سنّهم للشىء الواحد متى ورد على صور متغايرة قواعدَ بقدر صوره فكثر عندهم التجويز للصور المتخالفة كما قلّ عندهم ما كثر عند البصريين من التأويل والشذوذ والاضطرار والاستنكار ـ وعلى سبيل الايضاح نوجه نظرك إلى ما ذكرنا من الشواهد السبعة التى عقبنا بها اعتراضنا على المذهب البصرى وقد رأيت كيف تخلص منها البصرى ، أما الكوفى فقداعتمدها وضم مايستفاد منها الى قواعد مذهبه وجعلها دعائم أقيسة أخرى تضاف إلى أقيسته ، ولا جناح في تعدد الأقيسة وإن اعترت نوعاخاصاً فى المعنى فما ذلك عنده إلا ذريعة من ذرائع التنويع فى التعابير و بقدرها تكون الأقيسة،وفى ذلك من السرف والارهاق

---

(١) شرح الكافية حروف عطف النسق

(٢) المغنى الباب الأول (كذا)

لطالب النحو ما فيه ـ لكنا بعد ذا لا نقصد رمى هذا المذهب بالضعف فى كل قواعده وإلا كان تجنيا عليه . فقد ظهر عند الموازنة بين المذهبين فيما اختلفا فيه تفضيله فى بعض مسائل ذات بال ، والحق أحق أن يتبع ، ولترى ذلك مجلوا نسوق إليك أربع قواعد لهم على سبيل الارشاد إلى صحة ما نقول

١ ـ عدم لزوم إبراز الضمير مع الوصف الجارى خبراً على غير ما هو له حالا أو أصلا مع أمن اللبس والشواهد على ذلك كثيرة قال الأعشى ميمون

وإن امرأ أسرى إليكِ ودونه ... من الأرض موماة وبيداء سملق
لمحقوقة أن تستجيبى لصوته ... وأن تعلمى أن المُعان موفق[١]

وقد حاول البصريون إجابات كلها لا تقوم على قدم ، منها أن المصدر المنسبك من أن والفعل نائب فاعل لمحقوقة وتأنيثها حينئذ جائز لأن نائب الفاعل الاستجابة فلا ضمير فى الوصف ، وغير ذلك ولهذا قال ابن مالك فى كافيته

وإن تلا غير الذى تعلقا ... به فأبرز الضمير مطلقا
فى المذهب الكوفى شرط ذاك أن ... لا يؤمن اللبس ورأيهم حسن

٢ ـ صحة الفصل بين المتضايفين فى السعة بمنصوب المضاف مفعولا به أو ظرفا أو بالقسم ولا شك فى ورود ما يصحح هذه القاعدة فقد وردت الشواهد في النثر للثلاثة ، ولنكتف بشاهد على الفصل بالمفعول به ، قرأ ابن عامر أحد السبعة قوله تعالى (وكذلك زين لكثير من المشركين قتلُ

---

(١) استشهد بهما الرضى على الكافية لمذهب الكوفيين راجع الخزانة شاهد ٣٨٧ وهما من قصيدة فى مدح المحلق الكلابى شرح بعضها فى الخزانة الشاهد المذكور وشاهد ٢٠٤ و ٥٢١ ، وكلها في رغبة الآمل على الكامل جـ ١ ص ٤٠ وما بعدها . .

أولادَهم شركائِهم) وقد ردها الزمخشرى الذى وافق البصريين قال الصبان (ولا عبرة برده مع ثبوتها بالتواتر) فالحق مع الكوفيين ولذا يقول ابن مالك

فصلَ مضاف شبه فعل ما نصب مفعولا أو ظرفا أجز ولم يعب
فصل يمين . . . . . .

٣ - عمل اسم المصدر عمل فعله ، وشواهده أكثر من أن تحصى قال ﷺ « من قبلة الرجل امرأ ه الوضوء » وقال القطامى

أكفراً بعد رد الموت عنى وبعد عطائك المائة الرتاعا[1]

ليس أمام البصريين إلا الاستنكار لرواية الحديث ، والضرورة للنظم ، والتمسح بهذين مجلبة إلى الأعنات و"تضييق ، ولقد أجاد ابن مالك إذ قال

. . . . . ولاسم مصدر عمل

٤ - جواز العطف على الضمير المخفوض بدون عود الخافض فى السعة قرأ حمزة وغيره قوله تعالى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ » بجر الأرحام - لقد ضاق الخناق على البصريين ، والرضى بعد الترديد لماعساه أن يدافع به البصريون لم ير بدّا من أن يقول (والظاهر أن حمزة جوز ذلك بناء على مذهب الكوفيين لأنه كوفى ولا نسلم تواتر القراءات السبع)[2]

وفى هذا الدفاع شطط ، ومن ذلك جنح ابن مالك إلى رأى الكوفيين فقال

وعود خافض لدى عطف على ضمير خفض لازما قد جعلا

---

(١) البيت من شـواهد الرضى راجع الخزانة شاهد ٥٩٩ وهو من قصيدة طويلة فى مدح زفر الـكلابى

(٢) شرحه على الـكافية عطف النسق

وليس عندى لازما إذ قد أتى   في النظم والنثر الصحيح مثبتا

حتى فى تعبيره بخافض بدل جار كما هو معروف ، ولولا خوف الأطالة لوافيناك بشواهد كثيرة تفضى إلى الاطمئنان لهذه القواعد كوضح النهار ومعها دفاع البصريين الذى لم يضرها ، والواقع أن البصريين كانت محاولاتهم فى نقضها غير مجدية ومجردة عن النصفة فقد تعسفوا غاية التعسف بما لا ترضاه العدلة ، ولا يستقيم فى المنطق (وما كلّ مرة تسلم الجرة)

من هذا البيان يتضح لك معرفة طريقة كل من المذهبين الخاصة به ، وبقى أننا نجيب على ما قد يدور بخلد الناظر من السؤال عن الحكمة فى تخصص كل باتجاهه ولم لم يعكس الأمر ؟ فنقول :

حكمة تخصص كل من المذهبين باتجاهه

إن ذلك يعتمد فى الحقيقة أولا وبالذات على اختلاف نزعتهما الطبيعية ، فهى التى توجه كلا منهما حسب ماتقتضيه وتوجبه ، ونزعتهما متغايرة لتغاير الموقع الطبيعى للبلدين .

ذلك أن البصرة قد أنشئت على طرف البادية في صقع عاش فى الحرية البدوية الآماد الطويلة فلم يمتد إليه نفوذ أجنبي يلين من شكيمته ، والعرب النازلون فيها لم يعرهم مايبدل صلابة عقليتهم العربية وقد تجلى ذلك فى كل ما يتصل بهم من علوم وغيرها ، أما الكوفة فقد أنشئت على مدنى من (الحيرة) قاعدة المناذرة قديما فى صقع كان تحت إشراف الأكاسرة خانعاً لأمرتهم ، دبت اليه الروح الفارسية فى علومها وأنظمتها من حرية التفكير والعُنو لسلطان العقل والدأب على التوسع فى الابتكار وانفساح الميدان

للآراء ، تسربت هذه الروح فيمن توطنها من العرب وأقام فيها ، فكانت نزعة الكوفة في عمومها تخالف نزعة البصرة في عمومها أيضاً ، ولا جرم أن هذا الاختلاف إنما كان بفعل الطبيعة البلدية التي لا يرد قضاؤها في النفوس والعقول والعلوم والدرْبة وما إلى ذلك ؛ فكان حتما مقضياً أن يسلك البصري في أصول مذهبه مسلك الشدة والمحافظة على المأثور وأن ينهج الكوفي في أصول مذهبه طريق السهولة والرواية ؛ ومن ثمة اختلف مبنى المذهبين في قواعدهما على ماتقدم تفصيلا ، والتزام البصري هذا التشديد أمل منه أن يسود اللغة نظام مطرد بقوانين محدودة مستقاة من الأساليب العربية الصحيحة المتضافر على أمثالها - إذ ما من ريب أن اللغة العربية لغات قبائل شتى تغايرت في بعض ألفاظها ولهجاتها وتميزت في شيء من تراكيبها - ذلك أن العربي غير مقيد بضوابط وضعية لا يتخطى حماها ، بل يرسل الكلام حسب مشيئته في أي غرض كان غير خاضع لنظام يسيطر عليه وقد ينزع في غير قوسه ، لتأثره بعامل أجنبي يعرض له فيجانف جادة الطريق في بعض الأحيان ، وقد مر في المذهب البصري تعقب ابن أبي إسحاق للفرزدق ، وعيسى بن عمر للنابغة ، وأبو عمرو لذي الرمة ، وعيبهم لعمار الكلبي مع شعره ، وتغليط سيبويه للعرب في الجملة المذكورة ثمة ، قال أبو علي الفارسي في تعليل أغلاط العرب (إنما دخل هذا النحو كلامهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ولا قوانين يستعصمون بها وإنما تهجم بهم طبائعهم على ماينطقون به فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد) [1]

---

(١) المزهر أول النوع الخمسين ، معرفة أغلاط العرب

رأى ذلك البصرى وقد رغب رغبة صادقة فى وضع قواعد عامة لأنواع الأعراب فى جزئيات الكلام عند الاستعمال يجب أن تطبق ويسار على منهاجها بدقة وحزم ويتحامى بها عن الأساليب المبهرجة ، فلم يجد بداً أن يقف عند الشاهد المذعن بصحته المتكاثرة نظائره ضاربا صفحاً عما عداه من المرويات الضعيفة أو الشاذة أو المنحولة مما يؤدى اعتمادها إلى الفوضى والاضطرابات وعدم الوقوف عند غاية ، وذلك كله من البصرى نزوع إلى شنشنته الأولى — أما الكوفي فقد حمله على مسلكه احترامه لكل ماورد مسموعا من العرب وكفى ، والتيسير للناس أن يستعملوا استعمالاتهم على مقتضى ما أثر عنهم ، فلا ضير على القائل متى حاكي أىّ استعمال كان ، وما القواعد إلا وليدة اللغة فهى ذات السلطان عليها دون العكس — هذا مع الترخيص بالقياس على مقتضى الرأى إذا فقد الشاهد ، وما كان ذلك من الكوفى إلا تأثراً بنزعته الطبيعية أيضاً

بذلك ترى أنه قد اتخذ كل من المذهبين سبيلا له خاصة عرف بها حتى صار لكل طابع يخالف طابع الآخر فكان نتيجة ضرورية لهذا أمران (الأول) أن ما كثر من الأمور الأربعة التى تخلفت عن القياس عند البصرى حسب المقتضيات من التأويل والشذوذ والاضطرار والاستنكار قد قلت عند الكوفي

(الثانى) أن الأقيسة التى اعتمد عليها البصرى فى تدوين مذهبه على العكس من ذلك فهى قليلة عنده بالنسبة إلى الأقيسة التى تكوّن منها المذهب الكوفى ، ومن ثمّ قيل إن مذهب البصريين مذهب السماع ومذهب الكوفيين مذهب القياس ، ولذا يقول الكسائى

إنما النحو قياس يتبع　　وبه فى كل أمر ينتفع [1]

وفى المسألة الزنبورية الماضية في المناظرة ما يشهد بذلك، فسيبويه يتمسك بالرفع ويأبى النصب لأنه الأعراب المستفيض فى التراكيب الواردة على سننه، ويجيز الكسائى النصب للقياس عنده

تلك هى الحالة العامة فى المذهبين بالنظر إلى جمهوريهما، ولا ينافى ذلك أن بعض البصريين قد يميل إلى المذهب الكوفى فى بعض المسائل لما انقدح في ذهنه، وقد عرفت في ترجمة الأخفش أنه أكثر البصريين موافقة للكوفيين وأن منشأ ذلك راجع إلى توطنه بغداد فى جوار الكسائى الذى احتفى به وأكرم مثواه طيلة حياته الأخيرة، كما أن بعض الكوفيين قد يرى المذهب البصرى في بعضها أيضاً لمثل ذلك، وربما خرج على الرأيين بعض من الفريقين وابتكر مذهباً له خاصاً بل قد يتشعب الخلاف بين رجال الفريق وحده. على أنه لم يقف الخلاف بين الفريقين عند المسائل العلمية بل سرت عدواه الى التسمية في المصطلحات العلمية الكثيرة جداً - والحقيقة أن ذلك ليس من صالح العلم فى شىء، فربما جر على المتعلم الأرهاق والنصب، فانه إذا اطلع على كتب البصريين وعرف قواعد باب باسمه مثلا ثم قرأ كتب الكوفيين وأراد الباب نفسه فلا ريب أنه محتاج إلى اسمه عندهم حتى يهتدى اليه، وفى ذلك مضيعة للوقت، وهاك بعض أمثلة من هذا

يقول البصرى النعت والكوفى الصفة - والبصرى البدل والكوفى الترجمة - والبصرى الظرف والكوفى الصفة أو المحل - والبصرى حروف

(١) البيت مطلع قصيدة مذكورة فى معجم الادباء ترجمة الكسائي ج ١٣

الجر والكوفى حروف الاضافة ـ والبصرى الجر والكوفى الخفض ـ والبصرى المصروف وغير المصروف والكوفى المجرى وغير المجرى ـ والبصرى واو المعية والكوفي واو الصرف ـ والبصرى ضمير الشأن والكوفى ضمير المجهول ـ وهكذا

والمربى على هذا فى العجب اختلافهم فى التعليل ـ نطق العربى بسكران ممنوعا من التنوين فيقول البصرى للشبه بألفى التأنيث والكوفى لزيادة الألف والنون ـ وفى معنى الكلمة نطق العربى باسم الفعل فيتفرق البصريون والكوفيون فى مدلوله وموقعه على أقوال شتى

لقد شغف القوم بالخلاف وثوران المراء بينهم فيما جل من العلم ومادق ، ولذا يقول فيهم على سبيل التندر يزيد بن الحكم الثقفى

إذا اجتمعوا على ألف وواو　　وياء ثار بينهم جدال [١]

ولم يك عجيبا وغريباً أن يتبرم أبو غسان دماذ صاحب أبى عبيدة لما سمع رأى البصريين فى نصب المضارع بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء والواو وأو دون اعتبار هذه الأحرف ناصبة كما يقول الكوفيون فيكتب الى شيخ البصرة أبى عثمان المازنى قصيدة مطلعها

تفكرتُ فى النحو حتى مللت　　وأتعبت نفسى له والبدن

ثم يستعرض فيها رأى البصريين السابق ويختمها بقوله

---

(١) اى إذا اجتمعوا للبحث عن أحرف العلة ثار النزاع ، والبيت من شواهد النحاة على اعراب أسماء الحروف الهجائية إذا ركبت كما فى البيت ، راجع شرح المفصل جـ ٦ ص ٢٩ والرضي راجع الخزانة شاهد ٩ وروى الحريرى فى درة الغواص عن الأصمعى أنشدنى عيسى بن عمر بيتا هجا به النحويين راجع الوهم ١٧٥

فقد كدتُ يابكر من طول ما أفكر في بابه أن أُجن[١]

ولو أن الخلاف النحوى أغلق بابه بعد البصرى والكوفى على مابه في مناحيه المختلفة المضطربة لهان الخطب ، ولكنه تشعبت مسالكه بعدهما ، فكان المذهب البغدادى والأندلسى وغيرهما من المذاهب الشخصية الخاصة الملفقة مما أجهد النحوى وأنصبه ، على أنه فى خلال هذه المذاهب الرئيسية خرج الكثير من علمائها عليها فلم يقف عند إجماع ، وسبق فى ترجمة الأخفش والمبرد ماتعرفت منه خروجهما على المذهبين البصرى والكوفى ، وما عاب العلماء اتخاذ أحدهم مذهباً مستحدثاً متى كان مستنده قوياً ، فان المذاهب مبنية على ظنون قوية فقط ، قال ابن جنى (وإنما لم يكن فيه قطع لأن للانسان أن يرتجل من المذاهب مايدعو إليه القياس ، مالم يَلْوِ بنص أو ينتهك حرمة شرع إلخ)[٢]

ولقد مُنى هذا الفن من بين الفنون قديماً وحديثاً بكثرة الأقوال وتضارب الآراء ، ويشفع لذلك أن أساسه الأهم من استعمالات العرب لم يسلك اتجاهاً متوحداً معيناً ، فالقبائل التى اعتد بها وأخذت عنها الشواهد مختلفة فى كثير من الأساليب : يضم إلى ذلك إضطراب المرويات نفسها وورودها بألوان متغايرة قد تتباعد معانيها فى بعض الأحيان فينتقل البيت من مدح إلى ذم وبالعكس وهكذا ، وربما عمّى الأمر واشتبه الحال وهنا

---

(١) راجع القصيدة فى عيون الاخبار كتاب العلم والبيان (الاعراب واللحن) مجلد ٢ ، والنوادر للقالى ص١٨٦ ، والعقد الفريد الياقوتة فى العلم والادب (نوادر من النحو) ، وأخبار النحويين البصريين ترجمة المازنى

(٢) الخصائص باب (فى الاحتجاج بقول المخالف) جـ ١ ص ١٩٦

المرتع للتصحيف والتحريف ، والأمثلة في كل ذلك متعارفة مشهورة ، وتقدم لك بعض منها في شواهد سيبويه ، وسيرد عليك كثير منها في الكلام على شرح الأشموني وحاشية الصبان ، بما تعرف منه انتشار التصحيف والتحريف في كتب النحاة ، ووراء هذين الأمرين الفوضى المنتشرة في نسبة الشواهد لقائليها ، فقد ينسب الشاهد لاثنين فأكثر وقد يقع التوزيع للبيت فبعضه لقائل من بيت والبعض الآخر لقائل آخر ، لقد زاد الأمر عن حده وطفح الكيل أمام النحويين فلا غرابة أن يختلف النحاة حينئذ في أحكامهم لاختلاف التقادير بينهم في الشواهد فتكاثرت الأقوال حتى تقابلت وتناقضت ، وحق لكل أن يقول مايقول لأنه قد قيل ، ومن هنا يدرك صدق القائل : عجبت لنحوى يخطىء .

الواقع الذى لايمارى فيه اثنان أن علم النحو واسع المضطرب كثير القواعد متشعب التطبيق على الجزئيات الكلامية التى لا تحد بغاية ، وليس مقصودنا الآن هذا إنما زج بنا إليه الاستطراد ، وسنذكر كلمة خاصة في ذلك بمشيئة الله تعالى ، إنما الذى نعنى به بيان الأسباب التى أوحت إلى التخالف بين الفريقين فحسب ، ونمط التخالف بينهما ، وما نجم عن هذا التخالف من المسائل على أن يكون البحث محصوراً في المسائل العلمية لا فيما يتصل بالتسمية للأبواب ، ولا فيما يرتبط بالتوجيه لما وقع الخلاف فيه ، ولا فيما يعود إلى المدلول لبعض الأنواع ، فإن ذلك يقتضينا شيئاً كثيراً

فاذا كان البصرى قد تحفظ في أقيسته وتشدد ، والكوفي قد تحلل من القيود التى تقيد بها البصرى واحتفى بكل مسموع له على كثرة روايته للشعر عنه ، وكلفه بالشاذ منه ورواج المنحول عنده ، واكتفائه

بالشاهد الواحد أيا كان شأنه ، مع التعويل على القياس النظرى - أدركت سعة الفجوة بين الفريقين فى مسلكيهما .

نتائج المخالفة بين المذهبين

لقد ترتب على ما سلف أن اختلف البلدان فى فروع كثيرة جداً يخطئها العدّ ويعي الحاصر استقراؤها ، وذهب كل منهما ينصر مذهبه بأدلة نقلية وعقلية على وَفق منهجه ، واحتدم الخلاف بينهما فى ذلك طويلا ، وقد ألف في بعض هذه المسائل أسفار خاصة ، وأغلب الظن أن أول من كتب فى ذلك ثعلب ، ألف كتابه (اختلاف النحويين) ، ثم ترادفت المؤلفات فصنف ابن كيسان كتابه (المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون) ، ثم دون بعده أبو جعفر النحاس المصرى مؤلفه (المقنع فى اختلاف البصريين والكوفيين) ، ثم ألف بعده ابن درستويه كتابه (الرد على ثعلب فى اختلاف النحويين) ، وهذه الكتب لم نطلع عليها حتى نقدر ما فيها عن خبرة - وجاء بعد هؤلاء كمال الدين الأنبارى وجرد قلمه لتقصى طائفة كبيرة من هذه المسائل فدبج كتابه (الانصاف فى مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين) وأجاد فيه أيما إجادة ، فقد ذكر فيه ثمانى عشرة ومائة مسألة ، وفيها بعض مسائل صرفية ، وزيد فى بعض النسخ عليها ثلاث ، وأيد كل مسألة بأدلة الفريقين قياسية وسماعية مع البسط والتفصيل على نحو ما بين فقهاء الشافعية والأحناف ، ووقف منها موقف الفيصل العادل غير متعسف فى حكمه ولا متعصب فى قضائه ، فيؤيد البصرى مرة ويرجع

الكوفي أخرى (كما يقول فى مفتتح الكتاب) إلا أن المتتبع للكتاب من ألفه إلى يائه يرى آخراً أن الفوز الباهر للبصرى ، فانه إنما رجح الكوفى فى سبع مسائل منها فقط ، ولا أطيل عليك بما بسطه من أدلة الفريقين فيها ورده على البصرى ، فالكتاب بين الأيدى ، وأكتفى بذكرها مجردة معتمداً فى الارشاد إليها على أرقام المسائل باعتبار ترتيب الكتاب لتيسير معرفتها ، فها كها ـ قال الكوفيون

١٠ ـ (لولا) ترفع الاسم بعدها نحو لولا زيد لأكرمتك ، والبصريون بالابتداء

١٨ ـ لا يجوز تقديم خبر ليس عليها ، والبصريون يجوز

٢٦ ـ اللام الأولى فى لعل أصلية ، والبصريون زائدة

٧٠ ـ يجوز للضرورة ترك صرف المنصرف ، والبصريون لا يجوز

٩٧ ـ الياء والكاف فى لولاى ولولاك فى موضع رفع ، والبصريون خفض

١٠١ ـ الاسم المبهم نحو هذا أعرف من العلم ، والبصريون العلم أعرف

١٠٦ ـ جواز الوقف بالنقل على المنصوب المعرف باللام ، والبصريون لا

ولا يستطيع من له دربة علمية أن يتغاضى عن هذا الحكم القاسى من الأنبارى ، فغير خليق به أن ينصب نفسه حاكما بين المذهبين فى مسائل تنيف على المائة ، وقد أخذ على نفسه أول الكتاب ميثاق النصفة ثم تكون نهاية القضاء أن يؤيد الكوفى فى سبع منها فقط . ولولا أن المقام لا يتسع لاستدركنا عليه مسائل أخرى من مسائله التى رجح فيها البصرى مستندين إلى أدلة الحذاق من النحاة . ولعلك لم تنس المسائل الأربع السابقة التى ذكرت آخر الكلام على المذهب الكوفى فقد رجحت كفتهم فيها . وليس غرضنا أن نعدل المذهب الكوفى بالمذهب البصرى ،

وإنما الغرض درء الحيف وإعطاء كل ذى حق حقه

ولنرجع إلى موضوعنا ، فقد ألف بعد الأنبارى أبو البقاء العُكبَرى كتابه (التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) . ولم نعثر على هذا الكتاب إلا أن المعروف عن العُكبرى أنه كوفى النزعة كما يتضح جليا من مؤلفاته ، ومما لا مرية فيه أنه قد اطلع على كتاب الانصاف ، وشاهد هذا أنه فى شرحه لديوان أبى الطيب المتنبى قد ينقل عبارة الانصاف بنصها عند ذكر الخلاف بين الفريقين ، أو يلخصها تلخيصاً لا يذهب معه تعرف الأصل المأخوذ منه ، ولأذكر لك شيئاً من هذا على سبيل التمثيل فأضع أمامك ست مسائل من الانصاف مرقومة بأرقام الكتاب وبحذائها أبيات ستة للمتنبي نقل العكبرى فى شرحها عبارة الانصاف بحروفها أو ملخصها ، غير أنه لم ينسبها للأنبارى ، وها هى ذا على ترتيب الانصاف .

١٤ – (نعم وبئس) اسمان أم فعلان وشرح العُكبَرى لقول المتنبى

بئس الليالى سهرتُ من طربى شوقا إلى من يبيت يرقدها

٢٦ – (لعلّ) لامها الأولى أصلية أم زائدة وشرحه لقوله

لعل بنيهم لبنيك جند فأول قُرَّح الخيل المهار

٤٥ – (المنادى المفرد المعرف) مبنى أم معرب وشرحه لقوله

أيا أسداً فى جسمه روح ضيغم وكم أسد أرواحهن كلاب

٥٣ – (اسم لا النافية للجنس) معرب أم مبنى وشرحه لقوله

لا خلق أسمحُ منك إلا عارف بك راءَ نفسَك لم يقل لك هاتها

٧٨ – (كى) يجوز أن تكون حرف جر وشرحه لقوله

جوعان يأكل من زادى ويمسكنى لكى يقال عظيم القدر مقصود

٨٣ ـ (حتى) تنصب الفعل بنفسها أم لا وشرحه لقوله

أقَرَّ جـ لدى بها عليّ فلا أقدر حتى المات أجحدها

فبالضرورة لا بد أنه قد رجح كثيراً من آراء الكوفيين انتصاراً لمذهبه فى كتابه (التبيين) وحاج الأنبارى فيها ، وهكذا حال المسائل العلمية تتأرجح موازينها بين العلماء حسب التقادير المختلفة تبعاً لاختلاف النظر ، ثم ألف بعد العكبرى ابن إياز البغدادى كتابه (الأسعاف فى مسائل الخلاف) واستدرك مسائل زادها ، ولم نعثر على هذا الكتاب أيضاً ـ ورحم الله السيوطى فقد لخص فى الجزء الثانى من كتابه (الأشباه والنظائر) الفن الثانى القواعد الخاصة والضوابط إلخ (التدريب) ما فى كتابى (الانصاف والتبيين) بما بلغ اثنتين ومائة وأضاف اليها من زيادات الأسعاف مسألتين ـ مع الايجاز والافادة لأنه عنى بجمعها غير مكررة ، عارية من الأدلة والتمثيل ـ ولقد أحببت أن أنقل كلامه بحروفه ابتغاء لادراك مقدار كبير من هذه المسائل ، وهاهو ذا

سرد مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين

حسب ماذكره الكمال أبو البركات الأنبارى فى (كتاب الانصاف في مسائل الخلاف) وأبو البقاء العكبرى فى (كتاب التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين) ـ « الأول » الاسم مشتق من السمو عند البصريين وقال الكوفيون من الوسم « ٢ » الأسماء الستة معربة من مكان واحد وقال الكوفيون من مكانين (٣) الفعل مشتق من المصدر وقالوا المصدر مشتق من الفعل (٤) الألف والواو والياء في التثنية والجمع حروف إعراب وقالوا إنها إعراب (٥) الاسم الذى فيه تاء التأنيث

كطلحة لا يجمع بالواو والنون وقالوا يجوز (٦) فعل الأمر مبنى وقالوا معرب (٧) المبتدأ مرتفع بالابتداء والخبر بالمبتدأ وقالوا المبتدأ يرفع الخبر والخبر يرفع المبتدأ (٨) الظرف لا يرفع الاسم إذا تقدم عليه وقالوا يرفعه (٩) الخبر إذا كان اسما محضاً لا يتضمن ضميراً وقالوا يتضمن (١٠) إذا جرى اسم الفاعل على غير من هوله وجب إبراز ضميره وقالوا لا يجب (١١) يجوز تقديم الخبر على المبتدأ وقالوا لا يجوز (١٢) الاسم بعد لولا يرتفع بالابتداء وقالوا بها أو بفعل محذوف قولان لهم (١٣) إذا لم يعتمد الظرف وحرف الجر على شيء قبله لم يعمل فى الاسم الذى بعده وقالوا يعمل (١٤) العامل فى المفعول الفعل وحده وقالوا الفعل والفاعل معاً أو الفاعل فقط أو المعنى أقوال لهم (١٥) المنصوب فى باب الاشتغال بفعل مقدر وقالوا بالظاهر (١٦) الأولى فى باب التنازع إعمال الثانى وقالوا الأول (١٧) لا يقام مقام الفاعل الظرف والمجرور مع وجود المفعول الصريح وقالوا يقام (١٨) نعم وبئس فعلان ماضيان وقالوا اسمان (١٩) أفعل فى التعجب فعل ماض وقالوا اسم (٢٠) لا يبنى فعل التعجب من الألوان وقالوا يبنى من السواد والبياض فقط (٢١) المنصوب فى باب كان خبرها وفى باب ظن مفعول ثان وقالوا حالان (٢٢) لا يجوز تقديم خبر ما زال ونحوها عليها وقالوا يجوز (٢٣) يجوز تقديم خبر ليس عليها وقالوا لا يجوز (٢٤) خبر ما الحجازية ينتصب بها وقالوا بحذف حرف الجر (٢٥) لا يجوز طعامَك ما زيد آكلا وقالوا يجوز (٢٦) يجوز ما طعامَك آكل زيد وقالوا لا يجوز (٢٧) خبر إن وأخواتها مرفوع بها وقالوا لا تعمل في الخبر (٢٨) إذا عطفت على اسم إن قبل الخبر لم يجز فيه إلا النصب وقالوا

يجوز الرفع (٢٩) إذا خففت إن جاز أن تعمل النصب وقالوا لا تعمل (٣٠) لا يجوز دخول لام التوكيد على خبر لكنّ وقالوا يجوز (٣١) اللام الأولى فى لعل زائدة وقالوا أصلية (٣٢) لا النافية للجنس إذا دخلت على المفرد بنى معها وقالوا معرب (٣٣) لا يجوز تقديم معمول ألفاظ الاعراب عليها نحو دونك وعليك وقالوا يجوز (٣٤) إذا وقع الظرف خبر مبتدأ ينصب بفعل أو وصف مقدر وقالوا بالخلاف (٣٥) المفعول معه ينتصب بالفعل قبله بواسطة الواو وقالوا بالخلاف (٣٦) لا يقع الماضى حالا إلا مع قد ظاهرة أو مقدرة وقالوا يجوز من غير تقدير (٣٧) يجوز تقديم الحال على عاملها الفعل ونحوه سواء كان صاحبها ظاهراً أو مضمراً وقالوا لا يجوز إذا كان ظاهراً (٣٨) إذا كان الظرف خبر المبتدأ وكررته بعد اسم الفاعل جاز فيه الرفع والنصب نحو زيد فى الدار قائماً فيها وقائم فيها وقالوا لا يجوز إلا النصب (٣٩) لا يجوز تقديم التميز على عامله مطلقاً وقالوا يجوز إذا كان متصرفاً (٤٠) المستثنى منصوب بالفعل السابق بواسطة إلا وقالوا على التشبيه بالمفعول (٤١) لا تكون إلا بمعنى الواو وقالوا تكون (٤٢) لا يجوز تقديم الاستثناء في أول الكلام وقالوا يجوز (٤٣) كان في الاستثناء حرف جر وقالوا فعل ماض (٤٤) إذا أضيفت غير إلى متمكن لم يجز بناؤها وقالوا يجوز (٤٥) لا يقع سوى وسواء إلا ظرفاً وقالوا يقع ظرفاً وغير ظرف (٤٦) كم فى العدد بسيطة وقالوا مركبة (٤٧) إذا فصل بين كم الخبرية وبين تمييزها بظرف لم يجز جره وقالوا يجوز (٤٨) لا يجوز إضافة النيف الى العشرة وقالوا يجوز (٤٩) يقال قبضت الخمسة عشرة درهما ولا يقال الخمسة العشرة الدرهم

وقالوا يجوز (٥٠) يجوز هـذا ثالث عشر ثلاثة عشر وقالوا لا يجوز
(٥١) المنادى المفرد المعرفة مبنى على الضم وقالوا معرب بغـير تنوين
(٥٢) لا يجوز بناء مافيه أل في الاختيار وقالوا يجوز (٥٣) الميم المشددة فى اللهم
عوض من يا في أول الاسم وقالوا أصله يا ألله أمّـنا بخير فحذف ووصلت الميم
المشددة بالاسم (٥٤) لا يجوز ترخيم المضاف وقالوا يجوز (٥٥) لا يجوز
ترخيم الثلاثى بحال وقالوا يجوز مطلقاً أو إذا كان ثانيه متحركاً قولان
(٥٦) لا يحذف فى الترخيم من الرباعى إلا آخره وقالوا يحذف ثالثه أيضاً
(٥٧) لا يجوز ندبة النكرة ولا الموصول وقالوا يجوز (٥٨) لا تلحق
علامة الندبة الصـفة وقالوا يجوز (٥٩) لا تـكون من لابتداء الغاية
فى الزمان وقالوا تـكون (٦٠) ربّ حرف وقالوا اسم (٦١) الجر بعد واو
ربّ برب المقدرة وقالوا بالواو (٦٢) منذ بسيطة وقالوا مركبة (٦٣)
المرفوع بعد مُذ ومنذ مبتدأ وقالوا بفعل محذوف (٦٤) لا يجوز حذف
حرف القسم وإبقاء عمله من غير عوض إلا فى اسم الله خاصة وقالوا يجوز
فى كل اسم (٦٥) اللام في قولك لزيد أفضل من عمرو لام الابتداء وقالوا
لام القسم محذوفاً (٦٦) أيْمُن الله فى القسم مفرد وقالوا جمع يمين (٦٧)
لا يجوز الفصـل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول وقالوا يجوز (٦٨)
لا يجوز إضافة الشيء إلى نفسه مطلقاً وقالوا يجوز إذا اختلف اللفظان
(٦٩) كلا وكلتا مفردان لفظاً مثنيـان معنى وقالوا مثنيان لفظاً ومعنى
(٧٠) لا يجوز توكيد النكرة توكيداً معنوياً وقالوا يجوز إذا كانت محدودة
(٧١) لا يجوز زيادة واو العطف وقالوا يجوز (٧٢) لا يجوز العطف
على الضمير المجرور إلا باعادة الجار وقالوا يجوز بدونه (٧٣) لا يجوز

العطف على الضمير المتصل المرفوع وقالوا يجوز (٧٤) لا تقع أو بمعنى الواو ولا بمعنى بل وقالوا يجوز (٧٥) لا يجوز العطف بلكن بعد الايجاب وقالوا يجوز (٧٦) يجوز صرف أفضل منك فى الشعر وقالوا لا يجوز (٧٧) لا يجوز ترك صرف المنصرف فى الضرورة وقالوا يجوز «٧٨» الآن اسم في الأصل وقالوا أصله فعل ماض «٧٩» يرتفع المضارع لوقوعه موقع اسم الفاعل وقالوا بحروف المضارعة «٨٠» لا تأكل السمك وتشرب اللبن منصوب بأن مضمرة وقالوا على الصرف «٨١» الفعل المضارع بعد الفاء فى جواب الأشياء السبعة منصوب باضمار أن وقالوا على الخلاف (٨٢) إذا حذفت أن الناصبة فالاختيار أن لا يبقى عملها وقالوا يبقى (٨٣) كي تكون ناصبة وجارة وقالوا لا تكون حرف جر (٨٤) لام كى ولام الجحود ينصب الفعل بعدهما بأن مضمرة وقالوا باللام نفسها (٨٥) لا يجمع بين اللام وكى وأن وقالوا يجوز (٨٦) النصب بعد حتى بأن مضمرة وقالوا بحتى (٨٧) إذا وقع الاسم بين إن وفعل الشرط كان مرفوعا بفعل محذوف يفسره المذكور وقالوا بالعائد من الفعل إليه (٨٨) لا يجوز تقديم معمول جواب الشرط ولا فعل الشرط على حرف الشرط وقالوا يجوز (٨٩) إن لا تكون بمعنى إذ وقالوا تكون (٩٠) إذا وقعت إن الخفيفة بعد ما النافية كانت زائدة وقالوا نافية (٩١) إذا وقعت اللام بعد إن الخفيفة كانت إن مخففة من الثقيلة واللام للتأكيد وقالوا إن بمعنى ما واللام بمعنى إلا (٩٢) لا يجازى بكيف وقالوا يجازى بها (٩٣) السين أصل وقالوا أصلها سوف حذف منها الواو والفاء (٩٤) إذا دخلت تاء الخطاب على تاء الفعل جاز حذف الثانية وقالوا الأولى «٩٥» لا يؤكد

فعل الاثنين وفعل جماعة المؤنث بالنون الخفيفة وقالوا يجوز (٩٦) ذا والذى وهو وهى بكمالها الاسم وقالوا الذال والهاء فقط (٩٧) الضمير فى لولاى ولولاك ولولاه فى موضع جر وقالوا فى موضع رفع (٩٨) الضمير في نحو إياى وإياك وإياه إيّا وقالوا الياء والكاف والهاء (٩٩) يقال فاذا هو هى وقالوا فاذاهو إياها (تمام المائة) أعرف المعارف المضمر وقالوا المبهم (١٠١) ذا وأولاء ونحوها لا يكون موصولا وقالوا يكون (١٠٢) همزة بين بين غير ساكنة وقالوا ساكنة

وقد فات الأنبارى مسائل خلافية بين الفريقين استدركها عليه ابن إياز فى مؤلف * منها الأعراب أصل فى الأسماء فرع فى الأفعال عند البصريين وقال الكوفيون أصل فيهما ، ومنها لا يجوز حذف نون التثنية لغير الاضافة وجوزه الكوفيون

موازنة بين المذهبين

لا إخالك بعد أن تستحضر ما عرضناه عليك إلا مرجحاً كفة مذهب البصريين ، ولسنا فى حاجة إلى البسط بعد ما فات ، غير أنا هنا نلم التشعيب الفائت ليتركز في الذهن ويبقى فى الذاكرة ، فنقول إن مذهب البصريين إنما رجح لأنه نشأ على ملاحظة أمور ثلاثة لا يراها الكوفيون

١ - أنهم يؤثرون السماع على القياس فلا يصيرون اليه إلا إذا أعوزتهم الحاجة ، وحملهم على هذا سهولة اتصالهم بجمهرة العرب ، ولكثرتهم حولهم قد تعصبوا فى رواياتهم فلا يحملونها إلا عن موثوق بفطرته ، أما الكوفيون فعلى عكسهم فضلوا القياس على السماع في كثير من مسائلهم لتنائيهم عن خلص العرب ، ولذا تساهلوا فى رواياتهم فتلقوها عن أعراب

لا يرى البصريون سلامتهم .

٢ - أنهم احتاطوا فى أقيستهم فلم يدونوها إلا بعد توافر أسباب الاطمئنان عليها بخلاف الكوفيين الذين تفككوا من قيودهم ولذا يقول السيوطى (اتفقوا على أن البصريين أصح قياساً لأنهم لا يلتفتون إلى كل مسموع ولا يقيسون على الشاذ) [١] .

٣ - أنهم لا يعولون على القياس النظرى عند انعدام الشاهد إلا فيما ندر جداً ، أما الكوفيون فطالما جنحوا إليه ، وسلفت لك أمثلة من هذا النوع - فهذه الأمور الثلاثة التى تولد عنها الاختلاف بين الفريقين في المسائل الجمة تضافرت فى النهوض بمذهب البصريين على الكوفيين ، إذ لا ريب أن السماع فى اللغة ركن أول لأنها ليست فلسفة يتحكم فيها ميزان العقل والدراية ، والتشدد في القياس الذى يؤذن بصحة نظائره حتم لازم ، وإلغاء القياس النظرى فى اللغة مستقيم مع الواقع ، هذا حال المذهبين فى مجملهما وإن ظفر مذهب الكوفيين فى بعض المسائل

وقد ذكرنا لك أربعاً منها فى الكلام على المذهب الكوفى ، وسبعاً منقولة عن الأنبارى فى نتائج المخالفة بين الفريقين .

وما مثل الفريقين عند التقريب الا كمثل الطبيب والمتطبب ، فالبصريون كالطبيب الذى عانى المهنة حدثا وحذقها مدركا فأحكمها وأفاد المجتمع عن طول مدة ودقة خبرة ، والكوفيون كالمتطبب الذى قدا كتهل ونظر الطبيب ومايسديه فوجدعليه ثم تعرف منه وقارعه ، فأن الكوفيين مامنهم إلا من أخذ عن البصريين أرباب هذا الشأن بينما لم يتلق أحد من

---

(١) الاقتراح ص ١٠٠

البصريين عن واحد منهم ، قال السيوطى (وكذلك أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين وأهل البصرة يمتنعون من الأخذ عنهم لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة) [1] - إن احتضان العباسيين للكوفيين خصوصا بعد اتصال الكسائى وأصحابه هو الذى رفع من شأنهم عند أنفسهم ، واستخفهم إلى مناصبة البصريين لحبهم لهم وإيثارهم عن البصريين لما قدموا من مؤازرتهم فى تكوين دولتهم إذ كانوا شيعتهم من جهة ولقربهم عن البصريين من جهة أخرى ، فأدنوهم منهم قبل البصريين وأسبغوا عليهم نعمهم وأجزلوا لهم منحهم وأدخلوهم قصورهم واتخذوا منهم السمار والمؤدبين والمعلمين ، فالمفضل الضبى وشرقى بن القطامى الكلبى مؤدبا المهدى ، والكسائى معلم الرشيد ثم مؤدب ولديه الأمين والمأمون ، والفراء مؤدب أولاد المأمون ، وابن السكيت شيخ أولاد المتوكل ، وابن قادم معلم المعتز بالله ، وثعلب أستاذ عبد الله بن المعتز وابن طاهر ، وبذلك قبضوا على أعنة الحركة العلمية في بغداد وساد مذهبهم فيها وانتشر قبل المذهب البصرى ، حتى انقاد إليه كثير من العلماء حرصا على التقرب من الدولة وتغلغلت الناس فى الأخذ بدعائمه فنفقت سوق الروايات الشاذة والموضوعة ، حتى عمى على الناس الطريق اللاحب ، يقول أبو الطيب (فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً وغلب أهل الكوفة على بغداد وخدموا الملوك فقربوهم ، فأرغب الناس فى الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات وتركوا

---

(١) المزهر النوع الرابع والأربعين ج ٢ ص ٢٥٦

الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم)[١]

لقد استحوذ الكوفيون على بغداد وحالوا دون اتصال البصريين بها، بينما حاول البصريون الولوج اليها تائهنا على مقاسمة الكوفيين حظوتهم فلم يفلحوا ، وفى حادثة سيبويه الماضية التى كان فيها القضاء عليه مايشهد بتآمرهم عليهم ومناصرة العباسيين وبطانتهم لهم .

على أنه مع هذا العنت الشديد والضغط المقيت قد نفذ إلى بغداد قليل منهم (كاليزيدى) إلا أن اتصاله يرجع إلى حسن وقته الذى سهل له الدخول فى غمار العلماء الكوفيين ببغداد فانه قدم إليها قبل استفحال العداء العلمى بين البلدين وقد ظهر فضله عند يزيد بن منصور خال المهدى فاستبقاه عندما استعرت نار المخاصمة ، وطار به إلى قصور الخلفاء فجعله الرشيد من مؤدبى المأمون ، ومع هذا فقد كان متطامنا أمام الكسائى أولا — أما (الأخفش) الأوسط الذى قضى الشطر الأخير من حياته فى بغداد ، فلسنا نحسبه فيمن نعد إذ ما ارتحل إليها إلا ليأخذ بحق سيبويه أستاذه من الكسائى وجهاً لوجه ، لا رغبة فى منزلة ولا فى دنيا يصيبها ، لكن الكسائى قد تغلب عليه بدهائه وقيده باحسانه ، فأقام عنده مؤدب أولاده حتى لقى ربه ، ولقد كان لاقامته الطيبة مع الكسائى تأثيرها فى نفسه حتى وافق الكوفيين فى مسائل عدة ذات بال ، واحتذى حذوهم فى العناية بالقياس وقد مر فى ترجمته بسط المقال فى ذلك — هذا وكما نفذ اليزيدى إليها كذلك نفذ إليها (المبرد) بفضل لباقته البادية للخلفاء والأمراء فنال مكانته عندهما وبقى ناعم البال فيها ، وشارك ثعلبا تعليم

---

(١) مراتب النحويين ص ١٤٧ ونقل في المزهر المبحث الماضي

ابن المعتز ولا سيما وقد هدأت فيها المنازعة وكادت تضع أوزارها ، وما أشبه كلا الرجلين اليزيدى والمبرد بالآخر فى الوسائل التى أتاحت لهما طيب الحياة ببغداد وإن اختلفت زمناها ، ألحق أن السياسة هى التى عاضدت الكوفيين وأوجدت منهم رجالا كونوا مذهباً ناضل المذهب البصرى ، ولولاها لما ثبتوا أمام البصريين فى مساجلاتهم ، بل ولما قهروهم فى مواطن كثيرة ظلماً وعدواناً — والدنيا منذ الخليقة مملوءة بالأغراض والشهوات ، والبصريون وإن لم ينصفوا في حياتهم إلا أنهم كوفئوا بعد مماتهم بتفضيل العلماء لمذهبهم وببقاء أغلب مؤلفاتهم تشيد بذكراهم ، أما الكوفيون فلم ينالوا الأمرين فالعلماء يرون مذهبهم فى وضعه اللائق به ومؤلفاتهم قد أسدل التاريخ ستاره على كثير منها ، حتى كأن لم تكن لولا تراجم أصحابها التى تطالعنا على مؤلفاتهم ولولا ذكرها عرضا خلال الكتب في بعض الأحيان لمناسبة ذكر خلاف ، وعلى كل حال فقد كان تلاقى الفريقين فى بغداد موجها أنظار العلماء فيها إلى عرض المذهبين وانتقادهما

أثر تلاقى الفريقين ببغداد فى تنويع النزعات إلى ثلاث

لقد تبينت مما سلف أن الطور الثالث (طور النضوج والكمال) قد تم على يد الفريقين بعد أن توطدت أقدامهما فى بغداد بُعيد منتصف القرن الثالث الهجرى ، ومر عليهما حين من الزمن وهما يتطاحنان في مناصرة مذهبيهما على مرأى من العلماء الذين تنوعت اختياراتهم حينذاك ، فمن مؤيد البصرى ومن مؤثر الكوفي ، ومن مازج بين المذهبين ، وإن قل هؤلاء إذ كانت حدة الخلاف بين الفريقين مع كثرة عديدهم

وعظيم شأنهم في حياة المجتهدين من دواعى تغلب الانحياز إلى أحد الطرفين على اختيار مذهب خليط ، حتى إذا قضي المجتهدون نحبهم في أواخر القرن الثالث الهجرى وأسدل الستار عليهم وانكسرت حدة النعرة الحزبية عرض العلماء المذهبين على بساط البحث والنقد ، فاستعرضوا دعائم القواعد ، التى تركزت عليها من الرواية والشواهد والأقيسة ليتعرفوا مقدار هذه القواعد من الصحة والضعف حتى يبتنى حكمهم في الاختيار على أساس غير مُنْهار ، وهم مايزال فيهم فئة تلقت عن البصرى ، وأخرى عن الكوفى ، بينما أخذت عن الفريقين فئة ثالثة

على أنهم بعد هذا فى أنقسهم بين محافظ على ترسم خطى سلفه فغلبت عليه النزعة الطائفية ، وبين منصف تحلل من قيود الحزبية ونظر إلى العلم نظرة خالصة لايشوبها عاطفة فآثر مارجح عنده وتمذهب به ، فلم يكن غريباً على من لُقِّنَه عن بصرى أن يجنح بعد إلى إيثار المذهب الكوفى أو المكون منهما والعكس بالعكس ، كما لم يكن بدعا على من تتلمذ لهما أن يؤازر أحدهما ، نجم عن ذلك كله أنهم اختلفوا طرائق قددا ، فكان منهم من غلبت عليه النزعة البصرية ، ومنهم من غلبت عليه الكوفية ، ومنهم من جمع بين النزعتين ـ وطبعى أن البلاد الاسلامية التى كانت مستشرفة لهذا العلم قد تأثرت بهذه النزعات لأن بغداد كعبة الجميع ، وقد نزح إليها من مصر فى ذلك العهد عدد كبير ، سنذكر المشهورين منهم بعد الطوائف الثلاث العراقية ، فأليهم يرجع الفضل فى دخول النحو وكتبه ودراسته البلاد المصرية ، ونحن الآن بصدد الطوائف العراقية .

ولما كانت أسماؤهم لامعة فى سماء الكتب الأدبية واللغوية والأخبارية

اجتزأت بما أترجم لهم دون التنبيه إلى مصادر تراجمهم رغبة فى الاختصار ، واكتفاء بشهرتهم الواسعة

فممن غلبت عليه النزعة البصرية

١ — الزَّجّاج : هو أبو اسحاق ابراهيم بن السَّرِى ، ولقب بالزجاج لأنه كان يخرط الزجاج ، نشأ ببغداد وتلقى عن ثعلب ثم عن المبرد فى مقابلة أجر معين دائم ، ورفع المبرد من شأنه حتى أدب القاسم بن عبيد الله الذى أخذ بناصره بعد توليه الوزارة للمعتضد ، ثم ساعدته الأقدار ونادم الخليفة المعتضد ، دخل يوما دار ثعلب ووجد معه أبا موسى الحامض واستطرد الحديث إلى ذمهما المبرد ثم سيبويه ويونس فاغتاظ الزجاج وخطأ ثعلبا فى نصف كتابه (الفصيح) ، لما عرض ثعلب لتخطئة سيبويه فى الكتاب ، إذ تعقبه باعتراضات عشرة بينما كتاب الفصيح كله عشرون ورقة ، وقد ذكر هذه الاعتراضات مع البسط ياقوت فى معجم الادباء ترجمة الزجاج ، كما ذكرت أيضاً فى الأشباه والنظائر للسيوطى الفن السابع فى الجزء الرابع ، وما من ريب أن العصبية المذهبية هى التى حملت الزجاج على تجبيه ثعلب وشينه كتابه حتى قيل إن ثعلبا كاد ينكر نسبته بعد إليه ، كما أنها حملت فى مقبل الأيام ابن خالويه وهو كوفى النزعة على تخطئة الزجاج فى اعتراضاته على ماسترى فى ترجمته إن شاء الله — له مؤلفات منها مختصر النحو ، وما ينصرف وما لا ينصرف ، وشرح أبيات سيبويه ، وكتاب فعلت وأفعلت ، توفى ببغداد سنة ٣١٠ هـ

٢ — ابن السراج : أبو بكر محمد بن السَّرِى ، نشأ ببغداد وسمع من

المبرد وكان أحدث تلاميذه وقرأ عليه كتاب سيبويه ، ثم انصرف إلى علم الموسيقى لـكن لم ينشب أن رجع إلى الـكتاب والبحث فى المسـائل النحوية ، وبرز فى العربية وخلف المبرد فى بغداد ، وله من التصانيف النحوية « كتاب الأصول » قال ياقوت (وهو أحسنها وأكبرها وإليه المرجع عند اضطراب النقل واختلافه ، جمع فيه أصول العربية وأخذ مسائل سيبويه ورتبها أحسن ترتيب) ، وكتاب جمل الأصول ، وشرح كتاب سيبويه ، والموجز توفى سنة ٣١٦ ﻫ

٣ ـ الزَّجاجى : أبو القاسم عبـد الرحمن بن إسحق من نهاوند ، قدم بغداد وسمع من ابن السراج والأخفش ولازم الزجاج فنسب اليـه وسكن دمشق وانتفع الناس بعلمه ، وله مؤلفات منها فى النحو (الجمل) ولهذا الكتاب حظوة عند المغاربة ، تدانى كتاب سيبويه عند المشارقة ، ومنها الايضاح الـكافى ، وله كتاب (الأمالى) وهو من الكتب التى اعتمدنا عليها مصادر لكتابنا ، توفى رحمه الله بدمشق سنة ٣٣٧ ﻫ

٤ ـ الصَّفار : أبو على إسماعيـل بن محمد ، أخذ عن المبرد واشتهر بصحبته وكان صالحاً أديباً ، ولم يخلف مؤلفاً توفى ببغداد سنة ٣٤١ ﻫ

٥ ـ مَبْرَمان : أبو بكر محمد بن على العسكرى ، سمع من المبرد وأكثر من الأخذ عن الزجاج ، وبعد صيته فى النحو إلا أنه كان غير وقور ضنيناً بالتعليم إلا مع الجزاء المرضى له ، من مؤلفاته النحوية شرح شواهد سيبويه ، وشرح كتاب سيبويه ولم يتم ، وشرح كتاب الأخفش ، والتلقين توفى سنة ٣٤٥ .

٦ ـ ابن دَرَسْتَوَيه : أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه الفارسي ، نشأ بفسا (من بلاد فارس) ، وأقام ببغداد وتلقى عن ابن قتيبة والمبرد وثعلب وغيرهم ، ثم لازم المذهب البصرى مع التعصب الشديد له ، وتصانيفه فى غاية الجودة منها فى النحو الارشاد ، وأسرار النحو ، والرد على ثعلب فى اختلاف النحويين ، وأخبار النحويين ، وتوفى ببغداد سنة ٣٤٧ هجريه .[١]

٧ ـ السيرافى . أبو سعيد الحسن بن عبد الله نشأ بسيراف ، وارتحل إلى عمان فى سبيل العلم ثم عاد إلى سيراف ثم اتجه إلى عسكر مُكْرَم ثم توطن بغداد وولى القضاء فيها ، تلقى عن ابن السراج ومبرمان وابن دريد وغيرهم ، دخل على ابن دريد مرة وهو يقول أول من أقوى فى الشعر آدم في قوله .

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيحُ
تغير كل ذى لون وطعم وقل بشاشةُ الوجه المليح

فقال له يمكن إنشاده على وجه لا إقواء فيه ، وذلك بنصب بشاشة على التمييز ورفع المليح بقلّ ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، فرفعه حتى أقعده بجانبه ، نبه شأن السيرافى وخاصة فى النحو ، وألف الكتب القيمة ، فشرح كتاب سيبويه بما لم يسبق إليه حتى حسده أترابه ، وله كتاب أخبار النحويين البصريين ، وهذا الكتاب من المراجع التى اعتمدنا عليها ، توفي ببغداد سنة ٣٦٨ هـ

---

١ ترجمته فى سائر المصادر ، وفى درستويه ضبط آخر راجعهما فى وفيات الأعيان ، وفى القاموس ثالث

٨ ــ الفارسى : هو أبو على الحسن بن أحمد ، نشأ بفسا (من بلاد فارس) ثم ورد بغداد فأخذ النحو عن الزجاج ومبرمان وابن السراج وابن الخياط وغيرهم ، ثم طار صيته فى الأقطار الاسـلامية فاتصل بملوكها ونال الزلفى عند سيف الدولة الحمدانى بحلب مدة أوغرت صدر ابن خالَوَيْـه الذى كان عالم بنى حمـدان ، ثم عاد إلى فارس ولقى من عضـد الدولة البويهى (فَنَّاخُسْرو) بن ركن الدولة (حسن) بن بويه فوق الأمل، فقد كان عضد الدولة يفخر أنه غلامه ، ولما ألف له كتاب (الايضاح) استصغره فأردفه مغيظا بكتاب (التكملة) فقال (غضب الشيخ وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو)، وقد اتبع أبو على فى الايضاح السابقين قبله فى شواهده ، فلم يعتمد على شعر المحدثين فى أحكامه ، بيد أنه استشهد فى باب كان ببيت لأبى تمام وهو قوله

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

وهذه الملاحظة عدت عليه ، لـكن قالوا الحامل عليها أن عضد الدولة كان كثير الانشاد لهذا البيت ، فاعتماد الفارسى عليه مجاراة له فى تقديره لحكمة البيت ، هذا ، وكما كان ابن خالويه واجداً على الفارسى كذلك السيرافى كان حاقداً عليه ، وتلك سنة المعاصرة بين أهل الفضل ، ومن مصنفات الفارسى أيضاً التذكرة ، والمسائل الحلبية ، والبغدادية ، والشيرازية ، وغيرها ، توفى بعد حياة حافلة بالدراسة والتأليف ببغداد سنة ٣٧٧ هـ

٩ ــ الرُمّانى : أبو الحسن على بن عيسى ، نشأ بالرمان « بمدينة واسط » ثم وفد إلى بغـداد فأخذ عن الزجاج وابن دريد وابن السراج وغيرهم ، ونبغ فى العربية مع ميل إلى الفلسفة لأنه معتزلى ، وظهر ذلك فى دراسته وتأليفه حتى قال الفارسى (إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس

معنا منه شيء وإن كان النحو مانقوله فليس معه منه شيء) ومن مؤلفاته في النحو شرح كتاب سيبويه ، وشرح مقتضب المبرد ، وشرح أصول ابن السراج ، توفى في بغداد سنة ٣٨٤ هـ

وممن غلبت عليهم النزعة الكوفية

١ أبو موسى الحامض : سليمان بن محمد ، ولقب بالحامض لشراسته ، لازم ثعلبا زُهاء أربعين حولا ثم خلفه بعد موته ، وكان موهوب البيان ، شديد العصبية الكوفية ، له كتب متنوعة ، منها في النحو مختصر ، وتوفى ببغداد سنة ٣٠٥ هـ

٢ ابن الأنبارى : أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، أقام مع أبيه في بغداد وأخذ عنه وعن ثعلب وغيرهما ، ثم أربى على الكل لما أوتيه من حافظة نادرة ، فقد كان يملى مصنفاته المبسوطة من حفظه مع صدق الرواية ، ومنها في النحو الكافي والواضح والموضح ، توفى ببغداد سنة ٣٢٧ هـ

٣ ـ ابن خالويه : أبو عبدالله الحسين بن أحمد ، نشأ بهمذان ووفد إلى بغداد وأخذ عن ابن الأنبارى وابن دريد وغيرهما ، وقرأ على السيرافى ثم توطن حلب وعطف عليه سيف الدولة ، وله مع المتنبى مناظرات ، وكان قصير الباع في النحو طويله في اللغة ، يشهد بذلك ماساقه في انتصاره لثعلب عند رده الاعتراضات العشرة التى فند بها الزجاج نصف كتابه (الفصيح) كما سبق التنويه عن ذلك في ترجمة الزجاج . وقد ذكر ردود ابن خالويه مبسوطة السيوطى بعد ذكر اعتراضات الزجاج في الأشباه والنظائر (الفن السابع) في الجزء الرابع ، وغير خاف أن للنزعة الكوفية في نفس

ابن خالويه أثرها في الدفاع عن ثعلب ، ومن مؤلفات ابن خالويه في العربية (ليس) توفى بحلب سنة ٣٧٠ هـ

وممن جمع بين النزعتين

١ـ ابن قُتَيبة : هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ولد بالكوفة ، ونسب إلى الدينور (من بلاد فارس) لتوليه القضاء بها ، أقام ببغداد وسمع من الزيادى والسجستانى وابن راهويه وغيرهم ، وصنف مؤلفات تشهد له بعلو كعبه ، منها فى النحو جامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير ، وشهرته تغنى عن التعريف به ، توفى ببغداد سنة ٢٧٦ هـ

٢ـ ابن كَيْسان : أبو الحسن محمد بن أحمد بن ابراهيم بن كيسان ، أخذ عن المبرد وثعلب وغيرهما ، ثم ذاع اسمه فكان درسه غاصا بالأمراء والأشراف والدهماء ، والكل لديه سواسية ، وله مصنفات في مختلف علوم العربية منها فى النحو المهذب ، والمختار فى علل النحو ، والمسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون ، والفاعل والمفعول به توفى ببغداد سنة ٢٩٩ هـ

٣ـ الأخفش الصغير : أبو الحسن على بن سليمان ، وقد مضى الأخفش الأكبر شيخ سيبويه والأوسط تلميذه ، أخذ الأخفش الصغير عن المبرد وثعلب واليزيدى وأبى العيناء ولم يبلغ حد الكمال فى النحو فكان يتبرم من السؤال فيه ، وله وقائع مع ابن الرومى انتهت بالصداقة ، ورد مصر ثم عاد إلى حلب ضيفا على ابن مقلة ثم قفل إلى بغداد ، وله مصنفات

منها كتاب التثنية والجمع ، وأخباره معروفة ، توفى ببغداد سنة ٣١٥ ﻫ

٤ ـ ابن شُقَير : أبو بكر أحمد بن الحسين البغدادى : له كتاب مختصر فى النحو توفى سنة ٣١٧ ﻫ

٥ ـ ابن الخياط : أبو بكر محمد بن أحمد أصله من سمرقند ، قدم بغداد بعد وفاة المبرد وضعف ثعلب عن الافادة لصممه الشديد فاستمع من أترابهما ، وجرت بينه وبين الزجاج ببغداد مناظرة ، وكان دمث الخلق ، وله من الكتب ، النحو الكبير ، والموجز ، والمقنع ، مات بالبصرة سنة ٣٢٠ ﻫ

٦ ـ نِفْطَوَيْه : أبو عبد الله ابراهيم بن محمد المهلبى الأزدى من أهل (واسط) أخذ عن المبرد وثعلب وغيرهما ثم انتفع الناس بدراسته وكانت بينه وبين ابن دريد مهاجاة ، وله تصانيف حسان ، منها فى النحو المقنع ، توفى ببغداد سنة ٣٢٣ ﻫ

نحاة مصر الآخذون عن العراقيين

يحار الناظر فى تعرف الأسباب التى أقعدت مصر عن النهوض بهذا العلم دون مشاطرة العراق فى إبان تكوينه ونشوءه حتى أوشك أن ينضج ويكمل مع توثق الصلات بينها وبين العراق فى ذلك العهد ، ومع وفود العرب الخلص إليها مع الفاتحين كالعرب الذين نزحوا إلى العراق وكانوا مثابة لنحاته فى تدوين النحو والسير به قدما إلى أن تم على أيديهم ، ومع وجود العلماء الذين يعتمد عليهم وفيهم غناء أى غناء بين ظهرانيهم من أمثال عبد الرحمن بن هرمز الذى استوطن قديما الاسكندرية حتى قضى نحبه سنة ١١٧ ﻫ وقد مضى فى الكلام على واضع النحو أن بعض العلماء عده الواضع له

وأعجب من هذا توانى الشام عن المشاركة فى هذا العلم تلك الأيام السالفة ، فان للشام بعد هذه الدواعى المساوية فيها مصر امتيازها عنها بالقرب من العراق من جهة ، واقتراب بادية الشام منها من جهة أخرى ، فكان سهلا على علماء الشام اتصالهم بها عن كثب منهم دون اغتراب وعناء

أما بلاد الأندلس فبعد الشقة بينها وبين العراق حال دون اقتفائها العراق حيناً من الدهر ، ولا سيما إذا أضيف لذلك تقطع الأسباب بين المشرق والمغرب فى فترات اتفق فيها أن كانت النهضة فى العراق سائرة إلى الأمام فى سبيل الاستكمال لهذا العلم ، فما طفقت الأندلس تشتغل بهذا العلم إلا بعد نضوجه وكماله فى العراق ، نعم لا غرابة فى سبق العراق القطرين وغيرهما فى مزاولة هذا العلم فقد توافر فى العراق أسباب متضافرة تجعله خليقا أن يكون مهده ، وقد بيناها أوائل الكتاب فى الكلام على وضعه زمانا ومكانا وعلى مشاهير البصريين والكوفيين ، إنما الذى نبحث عنه وننشده الآن تعرف الأسباب التى أخرت الشام ومصر فلم تتأثر دمشق وحلب ولا القاهرة عاجلا البصرة والكوفة وبغداد — والذى يلوح لنا (والله أعلم بالحقيقة) أن العراق كان دائم الاتصال بالبلاد الحجازية المقدسة والرحلات بينهما متبادلة ، فسمع أهل العراق من الصحابة ومن التابعين أحكام الدين فامتد نظرهم إلى ذلك الأمر الجديد أمر اللغة والمحافظة على سلامتها حتى يكمل لهم الشأن من جميع نواحيه ، وفى العراق حضارة علمية تايدة سهلت عليهم السير فى تنظيم هذا العلم واستكمال بناءه ، أما القطران فكانا فى أشد الحاجة إلى تعلم الدين وعلومه فغلب على العرب النازلين فيهما داعى الدين والناس من ورائهم ، فساهم القطران فى العلوم الشرعية ونبغ فيهما أئمة فى القراءات

والحديث والفقه كانوا يعاصرون أئمة العراق فيها ـ وقصارى القول أن القطرين لم يتجهما لهـذا العلم إلا بعد نشوءه ونموه وبوادر استكماله في العراق فهما يذهبان إليـه أرسالا للتلقى عن علمائه فى أخريات الأيام كما ترى ، على أن مصر كانت أسبق من الشام وأكثر وفادة ، ولهذا فأنا نقصر الـكلام على علماء مصر في تلك الحقبة وقد تحدث عنهم الزبيدى فى (الطبقات) بعنوان خاص بهم بعد البصريين والـكوفيين ، كما أفردهم السيوطى فى كتابه (حسن المحاضره فى أخبار مصر والقاهره) بمبحث أواخر الجزء الأول ، وقد ذكرت أخبارهم فى كتب التراجم موزعة فيها على طباق نظامها ، كالفهرست ، ونزهة الألبا ، ومعجم الأدباء ، وأنباء الرواة ، ووفيات الأعيان ، وفوات الوفيات ، والوافى بالوفيات ، وبغية الوعاه ـ ولا يغيب عن الذهن أن علماء هذا العصر هم أصحاب الفضل فى دخول النحو مصر دراسة وتصنيفاً ، وقد حملوا معهم إلى مصر بعض مؤلفات المشارقة كما سترى ـ أما نزعتهم المذهبية فمرجعها إلى شخصيـة شيوخهم ، وستعرف فى تراجمهم شيوخهم ، فلسنا بحاجة إلى أن نعين نزعة كل كما سبق في المشارقة ، وهاك أسماء المشهورين منهم مرتبين بحسب سنى وفياتهم .

١ ـ ولاد : هو الوليد بن محمد التميمى أصله من البصرة ، ونشأ بمصر ثم رحل إلى البصرة يطلب العلم فتلقى عن المهلبي تلميذ الخليل وعن غيره فروى كتب اللغـة والنحو وحذقهما ، ثم قفل إلى مصر ومعه كتب النحو واللغـة التى رواها بأسانيدها ، فهو أول من أدخل كتب النحو واللغة إلى مصر ، وقد بورك له فى نسله فكان ابنه محمد وحفيده أحمد

من النحاة المعروفين، وكلاهما مشهور بابن ولاد ، وسنذكر ترجمتهما فيما يأتى،
توفي ولاد بمصر سنة ٢٦٣ هـ

٢ ـ أبو على الدينورى . أحمد بن جعفر الدينورى ختن ثعلب
وأصله من الدينور ، قدم البصرة وأخذ عن المازنى كتاب سيبويه ، ثم دخل
بغداد فقرأه على المبرد أيضاً مع تحمله الملام من ثعلب ، ثم وفد إلى مصر
متوطنا ؛ وله مؤلفات فى النحو ، منها المهذب ، توفي بمصر سنة ٢٨٩ هـ

٣ ـ ابن ولاد : هو أبو الحسين محمد بن الوليد التميمى السابق ،
أخذ بمصر عن الدينورى وأبيه وغيرهما ، ثم يمم بغداد فلقى المبرد وثعلبا ،
وجاد بالمال فى سبيل نقل كتاب سيبويه من المبرد وقراءته عليه ، وبعد التزود
رجع أدراجه إلى مصر ، فهو أول من أدخل كتاب سيبويه البلاد المصرية
توفى بمصر سنة ٢٩٨ هـ

٤ ـ ابن ولاد . هو أبو العباس أحمد بن محمد التميمي السابق ، فهو نحوى
ابن نحوى ابن نحوى ، شدا على أبيه وغيره شيئاً من العربية ، ثم صوب
نظره إلى بغداد فسمع من الزجاج وغيره مع معاصره أبى جعفر النحاس
المصرى إلا أن الزجاج كان يؤثره على النحاس حتى كان بعد مغادرتهما بغداد
يختصه بالسؤال ويشيد بعلمه ، ولذا فأنهما أقاما فى مصر على نفور دائم
بينهما ، ومما زاد توتر العلاقة جمع بعض ملوك مصر بينهما فى مناظرة
تلتها مناظرات احتدم بينهما فيها الشجار ؛ وبسطها السيوطى فى الأشباه
والنظائر (الفن السابع فن المناظرات إلخ) فى الجزء الثالث ، كان أبو العباس
يستحسن آراء الأخفش التى خرج فيها على الفريقين ، وله كتاب الانتصار
لسيبويه ، وكتاب المقصور والممدود ، توفى بمصر سنة ٣٣٢ هـ

٥ ـ النحاس . هو أبو جعفر أحمد بن محمد المصرى ، تلقى مبادىء اللغة العربية فى مصر ، ثم ارتحل إلى العراق ، فتلقى عن الأخفش الصغير والزجاج ونفطويه وابن الأنبارى وغيرهم ، ثم آب إلى مصر ، وقد سبق الحديث عما حدث بينه وبين ابن ولاد ، كان قوى الذاكرة جيد التصنيف في متنوع العلوم ، من مؤلفاته فى النحو كتاب (المقنع فى اختلاف البصريين والكوفيين) ، والتفاحة ، والكافى ، وغيرها

مر عليه المنذر بن سعيد البلوطى الأندلسى وهو يملى من قصيدة مجنون ليلى

قد آسلمها الباكون إلا حمامةً مطوقه بانت وبات قرينها

فقال له ماذا أعزك الله باتا يصنعان ؟ فقال وكيف تقول أنت يا أندلسى ؟ فقال بانت وبان قرينها ، فسكت وحقد عليه فمنعه استنساخ كتاب العين ، وكان على علمه وسعة ثقافته وشغف الناس بالأخذ عنه شحيح النفس رث الهيئة ، جلس يوما على دَرج المقياس على شاطىء النيل فى أيام الفيضان يقطع بيتا من الشعر فظنه بعض العامة ساحر النيل فرفسه برجله، فلم يوقف له على خبر وذلك سنة ٣٣٨ هـ [١]

(نشوء المذهب البغدادى على أيدى الجامعين بين النزعتين)

قد مر بك أن فترة من الزمن بعد تلاقى الفريقين في بغداد اختلف فيها اتجاهات العلماء إلى ثلاثة أنحاء ، وقد تمايزت طوائفهم الثلاث تبعاً لاختلاف نزعاتهم ، وكانت الطائفة الخالطة بين النزعتين البصرية

---

(١) ملاحظة الاندلسي على النحاس مذكورة فى معجم الأدباء فى كل من ترجمة النحاس وترجمة المنذر ، وفى نفح الطيب القسم الاول الباب الخامس ترجمة المنذر .

والكوفية تزاول المذهبين وتنظر فيهما نظرة غير مشوبة بالعصبية ، فهى لابد واجدة رجحان هذا المذهب فى مسائل وذلك المذهب في مسائل أخرى ، وكان عمل هذه الطائفة منبها بعض معاصريهم إلى استقراء ماصح من القوانين النحوية دون التحيز إلى فريق دون آخر ، فجر ذلك إلى الخلط بين المذهبين لاستخلاص مذهب منهما مرضى عليه عندهم ، ولقد اتسعت هذه الحركة ونمت فعالجها الكثيرون ؛ حتى احتل مكانا بين المذهبين مذهب آخر جديد مؤلف من المذهبين بفروق قليلة ، اشتهر ذلك المذهب بالبغدادى ، إذ كانت أرض بغداد هى التى أقلته وسماؤها التى أظلته ، ظهرت بواكيره في أخريات القرن الثالث الهجرى على مرأى من المتنازعين من الفريقين فى الدور الأخير من أدوار سجالهم ، فجعل العلماء يأخذون من هذا المذهب مسألة ومن ذاك أخرى مثلا ، وهكذا دواليك تبعا لما ترجح كفتها عند النظر ، وما أهل القرن الرابع الهجرى حتى كثرت قواعد هذا المذهب الجديد وأيده النظار له ، واشتهرت طائفة به ، فقاسم المذهبين عملا ومزاولة ؛ وشق له سبيلا معهما ، وامتدت به الأيام قليلا ، فحدث للنحو به عهد جديد ، قضى أن يعتبر طوراً آخر من أطواره

الرابع طور الترجيح (بغدادى)

سلف أن هذا الطور كان التمهيد إليه على أيدى الخالطين النزعتين ، وأن أساسه المفاضلة بين المذهبين البصرى والكوفى وإيثار المختار منهما ولقد أمعنوا فى هذا الاختيار ، فاصطفوا مسائل ذات بال مزيجا من المذهبين ، على أنهم أسلمهم هذا الاستقراء البالغ خلال تلك الأيام

إلى العثور على قواعد أخرى من تلقاء أنفسهم لا تمت بصلة إلى المذهبين تولدت لهم من اجتهادهم قياساً وسماعاً ، ذلك لأن سلائق العرب ما انفكت سليمة في البوادى إلى أواسط القرن الرابع الهجرى كما تقدم ، ومشافهة العلماء لهم حينئذ متيسرة إما بالرحلة إليهم فى البادية وهى دانية منهم أو بالسماع منهم في الحضر إذ كان لفيف منهم ينتجعه استجداء للعطاء والتماساً للرزق ، فكان ذلك المذهب فى عمومه ملفقاً من المذهبين مع بعض قواعد استنبطوها ، وعلى هذا فمسائله إما كوفية أو بصرية أو مبتكرة ، بيد أنه لا يعزب عن الذهن أن مسائل المذهب الكوفى المختارة في أول تكوين المذهب الجديد كانت أكثر من البصرية، لأن الكوفيين غلبوا على أمرهم، فكان النفوذ فى بغداد لهم ، ولم يلبث هذا الشأن أن تغير بعد حين ، وقد سلف شيء من هذا عند الموازنة بين المذهبين

(فمن القواعد التى ركن فيها البغاددة إلى المذهب الكوفي)

١ ـ إعمال اسم المصدر عمل فعله كما تقدم

٢ ـ مجيء (بَله) للاستثناء [١]

٣ ـ إعطاء المستثنى المتقدم على المستثنى منه حكم المستثنى منه على سبيل القياس، فيصير المستثنى منه المؤخر بدل كل لأنه عام أريد به خاص [٢]

٤ ـ جواز نداء المعرف بأل فى الاختيار دون التوصل إليه بأى أو اسم إشارة [٣] .

---

(١) المغنى الباب الأول (بله) ، وجمع الجوامع باب الاستثناء

(٢) همع الهوامع باب الاستثناء

(٣) باب المنادى الرضى على الكافية وابن الناظم على الألفية

٥ ـ عدم تنوين المنقوص الممنوع من الصرف مع الفتح حال الجر [١]

٦ ـ مراعاة لفظ الجمع فى العدد فيجرد من التاء فى نحو ثلاث حمامات [٢]

(ومن القواعد التى عولوا فيها على البصرى)

١ ـ عمل المصدر المنون عمل فعله قال تعالى (أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما) .

(أما القواعد التى استدركوها وراء المستحسن من المذهبين فنكتفى بالاشارة إلى بعضها)

١ ـ جواز تعريف الحال مطلقا خلافا للبصريين الموجبين التنكير مطلقا والكوفيين إن لم يشعر بالشرط نحو عبد الله المحسنَ أفضل منه المسىء

٢ ـ جواز عدم الفصل بين أن المخففة والفعل المتصرف قال الرضى (وحكى المبرد عن البغاددة علمت أن تخرج بالرفع بلا عوض إلخ) [٣]

٣ ـ جواز بناء اسم لا مع ارتباط الظرف والجار به قال الرضى (وحكى أبو على عن البغداديين أنهم يجيزون كون الظرف والجار فى نحو لا آمر بالمعروف ولا عاصم اليوم من أمر الله من صلة المنفى المبنى الخ) [٤]

٤ ـ جواز إتباع محل المعطوف عليه مع عدم أصالته قال ابن هشام بعد ذكره الشرط الأول لصحة العطف عليه (الثانى أن يكون الموضع بحق الاصالة فلا يجوز هذا ضارب زيداً وأخيه لأن الوصف المستوفى لشروط العمل الأصل إعماله لا إضافته لالتحاقه بالفعل ، وأجازه البغداديون إلخ) [٥]

---

(١) شرح ابن يعيش مالا ينصرف (٢) شرح الاشمونى أول باب العدد
(٣) شرح الكافية نواصب المضارع أن (٤) شرح الكافية اسم لا النافية للجنس
(٥) المغنى الباب الرابع ، العطف على المحل

٥ — تقدير عامل النصب فى ويحه وأختيها من مادتها قال خالد (وذهب بعض البغداديين إلى أن ويحه وويله وويسه منصوبة بأفعال من لفظها)[١]

هذا هو نمط المذهب البغدادى الذى زاوله كثيرون ذكرنا بعضاً منهم فيمن جمع بين النزعتين، ولقد مالوا أخيراً فى مؤلفاتهم إلى جعل المذهب البصرى أساساً، وتلك السنة سرت فيمن بعدهم وماتزال إلى أيامنا هذه فى أكثر الكتب النحوية ، ظل هذا المذهب مدة مديدة اذ كانت بغداد بلد الخلافة ومحج العلماء طراً من أقاصى بلاد الاسلام، وإن كانت بغداد مضطربة الأحوال فى هذا الحين باستبداد الأتراك بعد جرأتهم على الفتك بالخليفة جعفر المتوكل سنة ٢٤٧ ﻫ

إلا أن ذلك الاضطراب قد نفر قلوب أهل العلم الذين كان معظمهم من العرب والفرس ؛ فأخذوا يتفرقون فى البلاد شرقا وغربا زرافات ووحدانا، والخلافة تزداد ضعفا على ضعف حتى انتثر نظمها بتغلب بنى بويه على أمرها، وذلك على يد معز الدولة أبى الحسين أحمد بن أبى شجاع بويه ، فقد دخل بغداد من جهة الأهواز فى عهد الخليفة المستكفى بالله وقبض على أزمة الدولة سنة ٣٣٤ﻫ مع بقاء الخلافة صورية فى بغداد، وقد تحاصّت الدول الاسلامية الجديدة من هذا الوقت فى باقى الأقطار، وبذلك اختصت البويهية الفارسية بالعراق وفارس وخراسان إلى أن تغلب عليها السلاجقة التركية سنة ٤٤٧ﻫ ؛ كما اختصت السامانية الفارسية بما وراء النهر، والغزنوية التركية بأفغانستان والهند والحمدانية العربية بحلب وما بين النهرين والأخشدية التركية فالفاطمية العربية بمصر وبلاد المغرب والأموية العربية بالأندلس وغير هؤلاء بأقاليم أخر

---

(١) التصريح المفعول المطلق

وتبع هذه التقاسيم توزع العلماء في مختلف هذه الأقطار، فتنقل هذا العلم في المدائن الاسلامية، وتدرج الانتقال من بغداد شرقا إلى العراق العجمي فخراسان فما وراء النهر، وغربا إلى الشام ومصر فالمغرب والأندلس، وقامت علماء هذه الدول الحديثة يشتغلون به كل في قطره على طبق ماتوحيه إليهم الحياة الجديدة، فأخذ المذهب البغدادي يتلاشى رويداً رويدا

انفراط عقد المذهب البغدادى

لقد ظهر هذا المذهب كما عرفت على أيدى الخالطين بين النزعتين أواخر القرن الثالث، وبلغ أشده منذ أوائل الرابع، واستحكم شأنه تلك المدة التى التآم فيها الفريقان ببغداد إلى أن تضعضع شأن الخلافة العباسية بغلبة البويهين عليها، فحينذاك تمزق الشمل وتفرق العلماء، وما المذهب البغدادى إلا مذهب العلماء فى بغداد، فكما انتثر جمعهم انفرط عقده، ومن هنا يعرف أن انفراط المذهب البغدادى كان على سبيل التقريب بعد منتصف القرن الرابع الهجرى، وبعبارة أخرى بعد انصرام النصف الأول تقريباً من عمر الدولة العباسية، نعم إن روح المذهب البغدادى بقيت حية فى العراق العربى ومايليه شرقا إلى حين، لتقارب هذه البلاد وتماثل نزعات ذوى الشأن فيها، ويرى العلماء على حسب الاصطلاح المتواطأ عليه بينهم أن انفراط عقد المذهب البغدادى يعتبر حداً فاصلا بين المتقدمين والمتأخرين

انتهاء المتقدمين وابتداء المتأخرين

لا ريب أن انتثار عقد المذهب البغدادى الناشىء عن انحلال عروة الدولة الاسلامية على يد البويهيين لم يصحبه تحديد الزمن الحقيقى

فى الفصل بين المتقدمين والمتأخرين ، فمابرح المتقدمون قبل الانتشار من العلماء أحياء على اختلاف فى تفاوت أزمنتهم بعدُ قصراً وطولا ، وجدير بهؤلاء أن يحفظ لهم ما اكتسبوه قبله وأن يعدوا فى مصاف المتقدمين، وأما من نشأ من العلماء قُبيله وامتدت أيامه وعاصر من جاء بعده فيسرى عليه وضعه ويعد فى جماعة المتأخرين ، فمناط العنوانين فى الحقيقة راجع إلى طول المعاصرة للجيل المتقدم أو المتأخر - ومن ثمة اعتبر العلماء أبا على الفارسى وأضرابه من المتقدمين ، واعتبروا ابن جنى تلميذ أبى على الفارسى وأتراب ابن جنى من المتأخرين ، وبذلك سهل التقريب لمعرفة المتقدمين والمتأخرين

فالمتأخرون عندهم يبدأون من العلماء الذين قاموا بنهضة هذا الفن بعد انفراط المذهب البغدادى ، واشتغالهم بعلم النحو فى الممالك الاسلامية الحديثة لا تجمعهم زعامة فى قطر دون آخر ، لبثوا كذلك يتشاطرون الرفع من شأنه ، ويتنافسون فى الاستزادة منه فأبدعوا فى مصنفاتهم وافتنوا فى تلوين عرض هذا الفن بصور مختلفة ، وأدوا رسالتهم خير تأدية ، وما فتئوا جادين فى خدمة هذا العلم حتى آذنت شمس الدولة العباسية بالمغيب سنة ٦٥٦ هـ فسقط كثير من هذه الممالك الاسلامية وطويت صفحاتها حيناً من الدهر ، فوهنت فيها اللغة العربية نفسها وخفت صوت هذا الفن

وبذلك انحصر الكلام فى مطلبين (الأول) فى حالة هذا العلم ورجاله فى عهد الدول الاسلامية الحديثة المتعاصرة من عهد بنى بويه إلى سقوط بغداد ، و (الثانى) من سقوط بغداد إلى أيامنا الحاضرة

المطلب الأول علم النحو وعلماؤه فى عهد الدول الاسلامية المتعاصرة

إن تعدد هذه الدول الحديثة وإن فت فى عضد الدولة الاسلامية

إلا أن تنافس ملوكها على اختلاف أصولهم من فارسى وتركى وعربى حملهم على مناصرة علمائهم استكمالاً لاستقلالهم الجديد ، وقد تبع ذلك أن العلماء أنفسهم تأثروا بهذه الروح فتغيرت تقاليدهم النسبية إذ كانوا قبلئذ ينتسبون غالبا إما إلى أصولهم كالدؤلى والمازنى والجرمى والزيادى واللحيانى ، أو صناعاتهم كالهراء والزجاج والنحاس ، أو ما يتصل بهم على وجه ما كالكسائى والزجاجى ، فصاروا ينتسبون بعدئذ بكثرة إلى الأقطار المقيمين بها أو المدن التى نشأوا فيها ، فقيل البغدادى والثمانينى والتبريزى والزمخشرى والأنبارى والعكبرى والسهيلى والأشبيلى والبطليوسى والمصرى والحلبى والدمشقى ، وما الى ذلك مما ستراه كثيراً إن شاء الله تعالى

فاتسعت الحركة العلمية بعد حصرها فى دائرة ضيقة ونشطت بعد خمود خيم عليها حينا ، وقد اجتهد علماء كل مملكة فى داخلها لقلة التواصل بين الممالك من كثرة الفتن والاضطرابات ، فكثرت آراء العلماء الفردية وتراكمت سحب الخلافات ، وتنوعت التعليلات النحوية ، وتضخمت المؤلفات ، إلا أنه لم يعرض مذهب جديد خاص بجمهرة فى قطر ، غير أنه لما أقبلت الأندلس عليه فى عصرها الزاهر واستكانت أقطار المشرق لما انتابها استحدثت الأندلس مذهبا رابعاً سنذكر عنه لمحة في موطنه .

وعلى الجملة فقد كان هذا العصر ذهبيا لهذا العلم ففيه صنفت الموسوعات ، واكتشف المكنون من أصدافه ، وتعددت ألوان صوره المختلفة في عرضه لاختلاف مشارب الاقطار فى مناحيهم الفكرية مع إصابة الجميع الهدف المقصود ، بل كان هذا العصر كما عليه الواقع ذهبياً لعلوم اللغة العربية كافة رغم أنه عصر ضعف وانحلال فى رابطة الدولة

الاسلاميـة ، فأنه قلما عكف بعض علمائه على النحو وما يتصل به ، وبعضهم على الأدب وما يرتبط به ، وبعضهم على اللغة وما يتبعها ، شأن السابقين قبلهم فى تخصصهم ، بل اتسعت آفاق مباحثهم وبذلوا عناياتهم فى متنوع فروع العربية فأحاطوا بها مع اختلاف نسبي فى العناية بالبعض دون البعض ، ولذا فأن كثيراً منهم ربما عده مؤرخو الفنون مرة فى اللغويين وثانية فى النحويين وثالثة فى الأدباء ورابعة فى الأصوليين ، فابن جنى والتبريزى والزبيدى والبطليوسى لغويون نحويون أدباء ، وكذا كثير منهم ممن لست في حاجة إلى التعريف عنه الآن فستعرف ذلك فى ترجمته ، بل إن بعضهم تجاوز أفق العلوم العربية إلى علوم الشريعة ، فالزمخشرى لغوى نحوى صرفى بلاغى أديب مفسر متكلم ، وابن الحاجب أصولى نحوى فقيه ، وقد امتدت تلك الظاهرة الجديدة إلى مَن بعدهم من العلماء ، ومع هذا فان الذى سوغ لنا ذكر من نذكر فى النحويين شهرتهم الذائعة فى النحو دراسة وتأليفا

نعم كانت هذه الأقطار مختلفة المشارب فى نهجها العلمى ، تتماثل وتتقارب وتتباعد بمقدار الاتصال والانفصال فى مواقعها ، فلذا كانت العراق وفارس وماوراءهما شرقا تتشابه فى مسلكها ، والأندلس والمغرب يتدانيان في مأخذها ، والشام ومصر يتلاقيان فى موردها ، وقد بدا لنا تقسيم الحديث عن هذا العلم ورجاله فى هذا المطلب على هذا الاعتبار إلى ثلاثة فصول ، غير أنا سندع فى تراجم رجال هذا العهد الاشارة إلى مصادر أخبارهم للاختصار ، ولأنهم من الشهرة بمكان ، فكتب الأدب واللغة والأخبار ملآى بالأحاديث عنهم

الفصل الاول

(علم النحو فى العراق ومايليه شرقا وعلماؤه)

إن هذه البلاد وإن كان الغالبون عليها ممن لا يمتون إلى أصول عربية إلا أنهم كانوا على علوم اللغة العربية أحدب من الخلفاء قبلهم ، فسخوا ببذر الأموال فى رفع منارها ومكافأة المبرزين فى علومها ، بل قد حبب إلى كثير من أولى الشأن فيهم مشاركة العلماء في هذا الشرف الأدنى فنالوا فيه مرتبة محمودة ، ولم يفت جلهم الحرص على أن تتوج مؤلفات علمائهم بأسمائهم ، فمن ذلك كتاب الايضاح والتكملة لأبى على الفارسى إذ صدرهما بالاهداء لعضد الدولة البويهى ولهما حكاية طريفة ألمعنا إليها في ترجمته ، وما ذلك إلا لأنهم يرونه مما يزيد فى أبهتهم ويكبرهم فى عيون شعوبهم ، ولم يك عصر الدولة السلجوقية بعد الدولة البويهية بالعراق أقل نصراً للنحو ولعلوم اللغة ، فللمدرسة النظامية التى أنشأها فى بغداد نظام الملك (أبو على الحسن ابن إسحق بن العباس وزير السلطان ألب أرسلان وولده السلطان ملك شاه وقتل رحمة الله عليه سنة ٤٨٥ ﻫ) الأثر الحسن فى توجيه الخلق إلى التعليم فنبغ بفضلها عدد وفير من العلماء ، وهى أول مدرسة بنيت ببغداد خاصة بالتدريس فكان قبلها فى المساجد الجامعة وجعلت فيها الرواتب للمدرسين وللطلبة ، وأجريت عليهم الجرايات ، وسترى فى تراجم العلماء أن منهم الأساتذة فيها وأن منهم من تلقى بها ثم رقى إلى الدراسة فيها ، فكان لزاما لهذا وذاك أن كثر الانتاج للمؤلفات النحوية ، وأربى عدد المشتغلين بالنحو عمن كانوا قبلهم فى هذه البلاد ، غير أنهم كانوا يترسمون

خطاهم فى المذهب البغدادى ، وإن تحللوا فى أخريات أيامهم من الوقوف عنده فاستباح كل لنفسه أن يرتضى مايشاء من المذاهب الثلاثة ويقول مايراه فى نفسه ، ولسنا بحاجة الى ذكر أمثلة نبين فيها مختلف آرائهم في جزئية ، فان أقوال العلماء الذين نحن بصددهم منثورة مشهورة فى كتب النحو ، ولقد استمر نشاط هؤلاء المشارقة إلى أن دهمتهم حوادث التتر فصرفتهم عن العناية بهذا العلم ، وهاك مشاهيرهم مرتبين بحسب وفياتهم مع ذكر بعض مؤلفاتهم

١ — ابن جنى : هو أبو الفتح عثمان ، وأبوه جنى (معرب كِنّى) مملوك رومى لسليمان بن فهد الأزدى ، ولد أبو الفتح بالموصل ممتعاً بأحدى عينيه وتلقى عن علماء الموصل ولم ينشب أن تصدر بها للدراسة يافعاً ، فمر الفارسى عليه وسأله والناس حوله فلم يُحر جوابا فقال له (تزببت وأنت حصرم) فلازمه بعدئذ ، ثم خلفه بعد وفاته فى بغداد ، وملأ اسمه الأسماع . وحذق علوم اللغة العربية ، واستحق بجدارة أن يكون إمام المتأخرين ، ارتحل إلى حلب كثيرا وتناظر مع المتنبى فيها ، ثم توثقت بينهما أواصر المحبة ، ومؤلفاته تبهر الأفكار فانها مع كثرتها غاية فى الاتقان ، منها فى النحو الخصائص ، وسر الصناعة ، والمحتسب ، واللمع . توفى ببغداد سنة ٣٩٢ هـ

٢ — العبدى : هو أبو طالب أحمد بن بكر العبدى (نسبة لعبد القيس) تلقى النحو عن السيرافى والفارسى والرمانى . وجد فى علوم اللغة حتى عرف بالافتنان فى العلوم مع صحة النظر فى القياس ، ومن مؤلفاته شرح كتاب الجرمى ، وشرح الايضاح للفارسى ، واختل عقله آخر حياته . توفى سنة ٤٠٦ هـ

٣ — الرَّبَعى : هو أبو الحسن على بن عيسى المشهور بالربعى (نسبة الى ربيعة)

قال ابن خلكان (ولا أدرى أهو ربيعة بن نزار أم غيره) أخـذ عن السيرافى ببغداد ، ثم ارتحل إلى شيراز فلازم الفارسى عشرين عاما ، ثم آب إلى بغداد وتصدر للافادة ، غير أن شذوذه الخلقى نفر الناس منه فقد تبذل فى المجون إلى غير حد ، ودأب على قتل الكلاب ومطاردتهم ، ومن تصانيفه النحوية شرح إيضاح الفارسى ، وشرح مختصر الجرمى ، والبديع ، توفى ببغداد سنة ٤٢٠ ﻫ

٤ ــ الثمانينى . هو أبو القاسم عمر بن ثابت الضرير نشأ بالثمانين (بلد بالموصل بناها الثمانون الخارجون مع نوح عليه السلام من السفينة عند الجودى) ، وتلقى عن ابن جنى ، ومن تصانيفه النحوية (المفيد) ، كان منافساً لابن بَرهان ، ودرسا بكرخ بغداد ، فانحاز إليه دهماء الناس وإلى ابن برهان خواصهم ، توفى ببغداد سنة ٤٤٢ ﻫ

٥ ــ ابن بَرْهان : هو أبو القاسم عبد الواحد بن على العكبرى ، كان أول أمره منجما ، ثم نظر فى النحو واشتهر فيه إلى أن استقدمه إلى بغداد وزيرها عميد الدين فنال حظاً وفيراً ، غير أنه كان سىء البِزّة ، ومع هذا كان الأمراء والسوقة يجلونه لدينه وورعه ، توفى ببغداد سنة ٤٥٦ ﻫ

٦ ــ التبريزى : هو أبو زكريا يحى بن على بن الخطيب الشيبانى من تبريز (من أكبر مدن أذربيجان) ؛ هاجر فى سبيل العلم فسمع من أبى العلاء المعرى وابن برهان وعبد القاهر الجرجانى وغيرهم ، زار البلاد المصرية ولبث فيها أياما تلقى عنه فيها ابن بابشاذ ، ثم أقام ببغداد ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ، وطبقت شهرته الأرجاء فقصده الخلق يفيدون من عرفانه ، ومصنفاته العديدة برهان صدق على تفوقه فى علوم اللغة

العربيـة ، منها في النحو مقدمة ، وشرح اللمع لابن جنى ، تجاوز الله عن سيئاته فانه أدمن شرب الخمر ولبس الحرير وذهب العمامة ، توفى فجأة ببغداد سنة ٥٠٢ هـ

٧ ـ الفصيحى : هو أبو الحسن على بن محمد من أسـتراباذ (من مدن طبرستان) تلقى النحو عن عبد القاهر الجرجانى ، وعرف بالفصيحى لملازمته (فصيح ثعلب) فى دراسته ، قدم بغـداد ودرس النحو بالمدرسة النظامية بعد التبريزى ، ولما اتهم بالتشيع أخرج منها ورتب بدله الجواليقى ، توفي ببغداد سنة ٥١٦ هـ

٨ ـ ملك النحاة : هو أبو نزار الحسن بن صافى ، أبوه مولى الحسين الأرموى التاجر ، ولد الحسن ببغداد فأخذ النحو عن الفصيحى وغيره ثم سافر إلى واسط واربل وخراسان وكرمان وغزنة ، وقصد الشام فلبث في دمشق مدة طويلة وخرج منها ، ثم عاد إليها ورغد عيشه فيها برعاية نور الدين محمود بن زنكى ، كان معتزاً بنفسه فاستخف بمن قبله ، لقب نفسه ملك النحاة وكان يسخط على من لا يخاطبه بذلك ، ومن مصنفاته النحوية الحاوى ، والعمدة ، والمسائل العشر المتعبات إلى الحشر ، وقد تحدى بها علماء العصر ، وهى مذكورة بنصها فى سـفر السعادة للسخاوى ، ونقلها السيوطى عنه في الأشباه والنظائر (الفن السابع) فى الجزء الثالث ، وممن أجاب عنها ابن برى المصرى كما سنذكر فى ترجمته ، توفى الملك بدمشق سنة ٥٣٨ هـ

٩ ـ الزمخشرى : هو أبو القاسم محمود بن عمر جار الله ، ولد بزمخشر (بلد بخوارزم) ، وتلقى عن النيسابورى وغيره ، ثم أربى على من تقدمه

وغدا الامام المعلم فى كثير من الفنون ، فشدت إليه الرحال وكان معتزلى العقيدة ومؤلفاته بأيدينا تغنينا عن الاشادة بمعارفه ، منها فى النحو النموذج ، والأمالى ، والمفرد والمؤلف ، والمفصل ، وعنى العلماء بالمفصل شرحاً وتعليقاً ، فمن أشهر شروحه شرح ابن يعيش ، وشرح الاندلسى — ولما وصل بغداد قاصداً الحج احتفى به ابن الشجرى وتبادلا تحية يجمل بالادباء تعرفها ذكرت فى ترجمته فى نزهة الالبا ، ومعجم الادباء ، وفى ترجمة ابن الشجرى فى وفيات الأعيان ، وبعد أن جاور حرم مكة مدة قفل إلى وطنه فمات به سنة ٥٣٨ هـ

١٠ — ابن الشَجرى : هو أبو السعادات هبة الله بن على الشريف البغدادى ، قال ياقوت (نسب إلى بيت الشجرى من قبل أمه) ، أخذ عن ابن طباطبا والتبريزى وغيرهما ، ثم تفرد بالزعامة فى بغداد ، فقد توافر فيه من كرم النجار وغزارة العلم وحسن الحظ ماهيأها له ، ومن تصانيف ابن الشجرى (الأمالى) وهو سفر ممتع مشتمل على فنون من الآداب أملاه فى أربعة وثمانين مجلسا ، وقد التمس سماعه منه ابن الخشاب الآتى ذكره ، ولما لم يجبه إلى سماعه فأحفظه حتى إذا وقف عليه خطأه فى كثير مما فيه ، فأحنق ابن الشجرى ونهض للرد عليه فى كل ردوده وألف من ذلك كتاباً سماه (الانتصار) وهو على صغر حجمه مفيد جداً ، ومن مؤلفاته النحوية شرح اللمع لابن جنى ، وما اتفق لفظه واختلف معناه ، وقد ترجمه ترجمة قيمة تلميذه الأنبارى الآتى ذكره ، والترجمة آخر التراجم من كتابه نزهة الألبا ، وصل سنده فيها الأنبارى بعد شيخه

إلى أبي الأسود إلى علىّ كرم الله وجهه ، توفى ابن الشجرى بالكرخ من بغداد سنة ٥٤٢ هـ

١١ ـ ابن الخشاب : هو أبو محمد عبد الله بن أحمد البغدادى أخذ النحو عن الجواليقى والفصيحى وابن الشجرى وغيرهم ، حتى عد من أعلم أهل وقته فيه مع الحظوة الكبرى فى سائر الفنون فذاع اسمه وكان حسن الخط والحظ فانتفع الناس به ، إلا أنه كان بخيلا متبذلا فى ملبسه قليل المبالاة بالمحافظة على ناموس العلم ، لم يتزوج ولم يتسر ، وله مصنفات فى النحو وغيره ، فمن النحوية شرح جمل الزجاجى ، والرد على ابن بابشاذ ، وغيرهما ، توفى ببغداد سنة ٥٦٧ هـ

١٢ ـ ابن الدهان : هو أبو محمد سعيد بن المبارك البغدادي ، أخذ عن مشايخ العصر ، ثم عد فى أعلام بغداد فكان يقال في عصره النحويون ببغداد أربعة : الجواليقى ، وابن الشجرى ، وابن الخشاب ، وابن الدهان. وله مصنفات نحوية منها شرح الايضاح والتكملة لأبى على ، والفصول الكبرى ، والفصول الصغري ، والدروس وغيرها ، خرج من بغداد قاصداً دمشق فاعترضه فى الطريق بالموصل وزيرها جمال الدين الاصفهانى وقيده باحسانه فأقام فى كنفه إلى أن مات بها سنة ٥٦٩ هـ

١٣ ـ الأنبارى . هو أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد الأنبارى سمع من أبيه فى الانبار ، ثم نزح إلى بغداد وتعلم بالمدرسة النظامية فأخذ عن الجواليقى ، ولازم ابن الشجرى ، ثم تبحر فى علوم اللغة العربية وتيمن الناس به فتخرج على يده الكثير ، وكان محمود السيرة وخلف مصنفات متنوعة نالت رواجا ، ولنقتصر هنا على ماطبقت شهرته

العالم العربي ، فمنها أسرار العربية ، والأنصاف فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، ونزهة الألبا فى طبقات الأدبا ، وهذه الكتب مما لاغنى لطالب العربية عن الانتفاع بها ، وهى من المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذا الكتاب ، وقد سلف التعريف عن كتاب (الانصاف) عند الكلام على نتائج الخلاف بين المذهبين البصرى والكوفى بما تتبين منه ما احتواه من مسائل الاختلاف وأن صغو الأنبارى مع البصريين ، ومما تجب ملاحظته أن صاحب الترجمة غير ابن الأنبارى السابق ترجمته فيمن كانت نزعته كوفية ، توفى الأنباري ببغداد سنة ٥٧٧ ﻫ

١٤ـ المُطَرِّزى هو أبو الفتح ناصر صدر الأفاضل بن أبى المكارم عبد السيد الخوارزمى ، ولد بخوارزم فى السنة والبلدة التى مات فيها الزمخشرى ، ولذا قيل له بعدُ خليفته لأنه كان يدعو إلى الاعتزال ، قرأ على أبيه وغيره فنبغ فى العربية ودرس وصنف ، فمن مؤلفاته النحوية المصباح ، والمقدمة المطرزية ، ومن آرائه النحوية أن (سحر) مبنية عند قصد التعيين ، ورد عليه ابن الناظم في شرحه على قول أبيه

والعدل والتعريف مانعا سحر إذا به التعيين قصدا يعتبر

بأوجه ثلاثة نقلها عنه خالد فى التصريح ، ثم الأشمونى فى شرحه ، توفى المطرزى بخوارزم سنة ٦١٠ ﻫ

١٥ـ الكندى : هو أبو اليمن زيد تاج الدين بن الحسن ، ولد ببغداد وتلقى العلوم عن جلة العصر فقرأ النحو على ابن الشجرى وابن الخشاب وغيرهما ، ثم قصد حلب للتجارة منها إلى بلاد الروم مدة طويلة ، ثم رحل إلى دمشق وفيها طاب له المقام فى كنف الأمير (فروخ شاه)

ابن أخي السلطان صلاح الدين الايوبي حتى استوزره ؛ فدرس وأفاد وازدحم الطلاب على الاخذ عنه ، وسمع منه الملك (عيسى) الايوبي كتاب سيبويه ، وشرحه لابن درستويه ، وإيضاح الفارسي ، توفي بدمشق سنة ٦١٣ هـ

١٦ـ العُكْبَرى : هو أبو البقاء عبدالله الضرير بن الحسين أصله من عُكَبرا (بلَيدة على دجلة فوق بغداد) ، ولد ببغداد وتلقى النحو عن ابن الخشاب وغيره ، ثم حاز قصب السبق فى علوم اللغة العربية ، حتى لم يكن فى آخر حياته من معاصريه من يضارعه فيها وتصدر لتعليم الناس وغلب عليه اتجاهه إلى النحو ، وقد سبق أنه كوفي المذهب ، وله مصنفات مفيدة ، منها فى النحو شرح الايضاح لأبى على ، وشرح اللمع لابن جنى ؛ وشرح المفصل للزمخشرى ، والتبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، ومضت كلمة عن هذا الكتاب عند ذكر مسائل الخلاف بين الفريقين تعرفت منها أن هذا الكتاب يظن ظناً مسامتاً لليقين أنه آثر المذهب الكوفى فى كثير مما فيه ، يشهد لقوة هذا الظن ما ذكره العكبرى نفسه فى شرحه لديوان المتنبي عند المناسبة لذكر الخلاف ، فكما عزز الأنبارى المذهب البصرى عزز العكبرى المذهب الكوفى ، توفى رحمه الله ببغداد سنة ٦١٦ هـ

١٧ ـ ابن الخباز . أحمد الضرير بن الحسين ، نشأ بأربل وتلقى العلم بالموصل واشتهر قدره ، ومن مصنفاته النحوية النهاية ، وشرح ألفية ابن معط ، توفى بالموصل سنة ٦٣٧ هـ

الفصل الثانى

علم النحو فى مصر والشام وعلماؤه

قد مضى أن القطرين فى عصورهما الأولى لم يكونا مهداً وثيراً للنحو كما كانت بلاد المشرق ، وكانت منهم التفاتات فى أخريات الأيام إلى النحو فظعنوا إلى العراق وسمعوا من علمائه ثم نشروه في القطرين غير أنهم كانوا يعدون على الأصابع وقد ذكرنا أشهرهم سابقاً ، وفى غضون هذه المدة وقُبيلها وبُعَيدها ورد بعض علماء العراق الشام كالزجاجي والفارسى وابن خالويه وابن جنى ، وبعضهم مصر كالتبريزى فقد عرفت فى ترجمته أنه أقام بمصر فترة من الزمن تلقى عنه فيها ابن بابشاذ ، وبعضهم القطرين كالأخفش الصغير — غير أن ورود العلماء إلى القطرين يعتبر كرحلات فى بلادهم الاسلامية فلا يترتب عليه آثار تجعل القطرين كالعراق مبعث العلم ، نعم كان لتشجيع بنى حمدان في الشام وتمجيدهم العروبة وعلماءها لأنهم عرب — الداعى القوى فى تحبيب العلماء الاقامة فى الشام ، فقد سبق أن ابن خالويه توطنها فى ذرا سيف الدولة حتى توفي بحلب ، ومن قبله الزجاجي الذى مابرح الشام حتى توفى بدمشق ، ومن بعده ملك النحاة الذى نعم بخفض العيش فى دمشق تحت ظلال نور الدين محمود ابن زنكى ، كما عرفت في ترجمته

ظل القطران كذلك حتى قيضت لهما دولة الفاطميين التى كانت أوفر عناية مما قبلها وبخاصة في الدواوين إذ كانت تعمد إلى تعيين المراقب عليها ممن عرف بالنحو وعلوم اللغة العربية فلا تصدر مكاتبتها إلا بعد وقوفه

عليها وموافقته ما فيها لأن الدولة عربية ، وممن تولى هذا المنصب فيها ابن بابشاذ وابن برى ، ثم أعقبتها الدولة الأيوبية ولم تقصر شأوا عنها فى هذا المضمار وإن كانت كردية الأصل ، فقد بلغ الأمر بالملك عيسى الأيوبى صاحب دمشق (أنه قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزمخشرى مائة دينار وخلعة فحفظه لهذا السبب جماعة)[1]

لهذا نشأ بالقطرين في هذا العهد بعض علماء النحو الذين أخذوا عن أسلافهم من القطرين فكانوا يقتفون كمن سبقهم من العلماء مذاهب العراقيين لأنهم تلقوا نحوهم عنهم قبل إقفار المشرق من هذا العلم وعلمائه ، وقد توارد إليهم في هذا الحين فئة من المغاربة فى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وليس يخاف أن المشتغلين بالنحو فى القطرين لهذا العهد وإن زادت نسبتهم عن سابقيهم نسبياً فقد كانوا قايلى العدد ولم تمتد أيامهم ، على أن الشام كانت أوكس نصيباً من مصر لكثرة الشغب بها من عدوان الصليبيين والتتر حيناً بعد آخر ، حتى آل الأمر إلى المماليك وولى المسلمون وجوههم شطر القطرين بعد أن عصفت العواصف بالخلافة فحدثت نهضة جديرة بالتقدير لهذا العلم ، والكلام عليها فى المطلب الثانى إن شاء الله ، ودونك أشهر العلماء في القطرين مرتبين حسب وفياتهم

أشهر علماء القطرين

١ ـ الحَوْفى . هو أبو الحسن على بن ابراهيم ، وأصله من شُبرا النخلة (من حوف بِلْبِيس) بمديرية الشرقية ، ورد القاهرة

---

(١) راجع ترجمة الملك عيسى فى وفيات الاعيان ، وفى شذرات الذهب

فسمع من أبي بكر الأدفوى وبعض علماء المغرب الذين نزحوا إلى القاهرة ، وسرعان ما اشتهر علمه وأدبه ، فتصدر لاقراء العربية ، وصنف فى النحو (الموضح) استوفى فيه العلل والأصول ، توفى سنة ٤٣٠ هـ

٢ ـ ابن بابشاذ . هو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى ، وأصله من الدّيلم ولد ونشأ بمصر ، ثم وفد إلى العراق لتجارة اللؤلؤ فجنحت نفسه إلى تلقى العلم عن علمائه وفتح عليه ، ثم قفل إلى مصر وتصدر للافادة فى جامع عمرو بن العاص ، وتولى منصباً رفيعاً فى ديوان الانشاء للفاطميين حتى لا يخرج منه كتاب إلا بعد عرضه عليه ، وله مصنفات نحوية ، منها شرح الجمل للزجاجى ، وشرح الأصول لابن السراج ، والتعليق المشهور بتعليق الغرفة ، وقد انقطع آخر أيامه لعبادة الله فى جامع عمرو وعلا سطحه فى ليلة مقمرة وبعينيه بقية من النوم فزلت قدمه ومات سنة ٤٦٩ هـ[١] .

٣ ـ ابن بَرِّىّ : هو أبو محمد عبدالله بن برى المصرى ، وأصله من المقدس ولد ونشأ بمصر فأخذ عن الشنتريني النحوى وغيره ، وشاع علمه فانتفع بالتلقى عنه خلق كثير ، ورأس ديوان الرسائل كابن بابشاذ ، وله مصنفات نحوية منها جواب المسائل العشر التى سأل عنها ملك النحاة وتقدم الارشاد إلى موطنها فى ترجمته ، أما مؤلفاته اللغوية فكثيرة ، ومع طول باعه فى علوم اللغة كان يرسل كلامه كيفما اتفق ، وكانت فيه غفلة عجيبة ، توفى بمصر سنة ٥٨٢ هـ

(١) بابشاذ كلمة أعجمية بسكون الباء الثانية أو كسرها ، وباعجام الذال أو اهمالها معناها الفرح والسرور ، وترجمته فى المعجم ، وأنباه الرواة ، والوفيات ، وحسن المحاضره ، وبغية الوعاه

٤ ـ ابن معط : هو أبو الحسين يحيى زين الدين بن معط الزواوى ، ولد بالمغرب من قبيلة زواوة ، سمع من الجزولى وابن عساكر ، ثم رحل إلى دمشق واستوطنها ، وفيها انتفع الخلق بعلمه دراسة وتصنيفاً ، ثم أرغبه الملك الكامل الأيوبى فى القدوم إلى مصر فتصدر بالجامع العتيق لدراسة النحو والأدب على أجر جزيل ، ومن مصنفاته النحوية (الألفية) التى أشار إليها ابن مالك فى مستهل ألفيته ، وشرح الجمل للزجاج ، توفى بالقاهرة ودفن بالقرب من الامام الشافعى سنة ٦٢٨ هـ

٥ ـ ابن يعيش : هو أبو البقاء يعيش موفق الدين بن على بن يعيش نشأ بحلب ، وتلقى النحو عن فتيان الحلبى وغيره ثم ارتحل إلى بغداد أملا فى السماع من كمال الدين الأنبارى لكن شاء القدر ألا يراه ، فقد توفى قبيل وصوله بغداد فعرج على الموصل ولبث بها مديدة ، ثم عاد إلى حلب ولما عزم على التصدر للأقراء رحل إلى دمشق فالتقى بالشيخ تاج الدين الكندى السالف ترجمته ، ثم سأله عن مسائل كثيرة ، ومنها إعراب ما ذكره الحريرى فى المقامة الرحبية العاشرة وهو (حتى إذا لألأ الأفقَ ذنبُ السرحان ، وآن انبلاج الفجر وحان) فاستبهم الاعراب على الكندى ثم قال له إنك أردت إعلامى بمكانتك وكتب بخطه شهادة بالثناء عليه ، ثم قفل ابن يعيش بعد هذا التطواف إلى بلدة (حلب) واستقر فيها للافادة فانتفع الناس به حتى دان له رؤساؤها بالتلمذة ، وله شرح على (المفصل) فى غاية الجودة ، وشهرته تغنى عن التعريف به ، ولولا ضيق المجال لكتبت كلمة عنه أعرض فيها مزاياه وقد أفاض فى ترجمة ابن يعيش تلميذه ابن خلكان فى وفيات الاعيان فقد تلقى عنه معظم كتاب (اللمع) لابن جنى ، ونعته

بالعلم والظرف والكياسة وخفة الروح ، توفى رحمه الله ودفن بتربته بالمقام المنسوب إلى سيدنا ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام سنة ٦٤٣ هـ

٦ ـ السخاوى . هو أبوالحسن على علم الدين بن محمد ، ولد في سخا (بمديرية الغربية) تلقى العلم عن البوصيرى وغيره ، ثم انتقل إلى دمشق وسمع من الكندى وغيره ، وأربى على معاصريه مع الخلال الحميدة فازدحم الطلاب عليه فى جامع دمشق ، ومن تصانيفه النحوية شرح أحاجى الزمخشرى ، وشرح المفصل ، وله ألغاز فى النحو بديعة ، توفى بدمشق سنة ٦٤٣ هـ

٧ ـ ابن الحاجب : هو أبو عمرو عثمان جمال الدين بن عمر الكردى الأصل المشهور بابن الحاجب لأن أباه كان حاجباً للأمير عز الدين موسك الصلاحى بالقاهرة ، ولد ابن الحاجب بأسنا ثم تعهده أبوه بالقاهرة فحفظ القرآن ولما يفع ، وتلقى العلوم عن الشاطبى وغيره فتبحر فى العربية حدثاً ، ثم انتقل إلى دمشق فأكب الناس عليه فى متنوع الفنون إلا أنه غلب عليه النحو ، وقد أعجب به ابن خلكان قاضى الشام لما حضر للشهادة عندما سأله فى مشاكل من العربية ذكر بعضاً منها في ترجمته فى وفيات الأعيان ، ثم عاد إلى القاهرة وتصدر بالمدرسة الفاضلية ، ثم انتقل إلى الاسكندرية ، كان رحمه الله أصفى الناس ذهناً وأقدرهم بياناً مع الايجاز ، اشتهر بالتصانيف المختصرة المنقحة فى جملة من العلوم ورزقت مصنفاته القبول ، فمنها فى النحو (الايضاح) شرح المفصل للزمخشرى ، و (الأمالى) الذى هو الغاية في الدقة و (الكافية) وشرحها ، والكافية على وجازتها حوت مقاصد النحو بأسرها ، فلا غرابة أن يتسابق حذاق النحاة فى شرحها

ويضيق المقام عن استيعاب شروحها، وفى كشف الظنون تفصيلها، وممن شرحها الرضى والجامى، وسنذكر نبذة عن هذين الشرحين، فى ترجمة أصحابهما بمشيئة الله تعالى، ولابن الحاجب قليل من النظم لضبط بعض المسائل العلمية، فمن ذلك فى النحو قوله فى الكافية

عدل ووصف وتأنيث ومعرفة وعجمة ثم جمع ثم تركيب
والنون زائدةَ من قبلها ألف ووزن فعل وهذا القول تقريب

توفى رحمه الله بالأسكندرية سنة ٦٤٦ هـ

الفصل الثالث

علم النحو فى الأندلس والمغرب وعلماؤه

تباعد الشقة بين هذه البلاد وبين العراق مهد النحو قضى عليها أن تتأخر ردحاً من الزمن عن اقتفائها العراق فى مزاولته إلى أن نضج وكمل، وعناية الولاة على الأندلس من قِبل بنى أمية منذ فتحه سنة ٩٣هـ منصرفة إلى إخضاع البلاد للخلافة فحسب، نعم لما استقلت بنو أمية بالأندلس على يد عبدالرحمن الداخل صقر قريش سنة ١٣٨ هـ وتوطد فيها الملك له ولعقبه من بعده استقبلت الأندلس عهداً جديداً وبدأت الحركة العلمية فيه، بفضل مناصرة بنى أمية اللغة جريا على دأب بنى أبيهم فى المشرق، فأرغبوا العلماء فى العلم وكافئوهم على دراستهم وتصنيفهم، فتجشم أفراد من الأندلس الأسفار إلى المشرق ورووا عن علمائه واقتبسوا من معارفهم إذ لم يكن في مقدورهم الرحلات إلى البوادى ومشافهة الأعراب

فيها كما صنع المشارقة ، وقفلوا إلى الأندلس مزودين بعلوم المشارقة زيادة على ما جلبوا معهم من مؤلفاتهم ، وكان أول من استحضر منهم كتاب سيبويه من العراق حمدون النحوى الذى اشتهر به وقد توفى أوائل القرن الثالث ، ولعله أول من عرف به فى الأندلس ، ثم ظهر بعده الأفشين القرطبي الذى رواه عن الدينورى المصرى السابق ترجمته وقد توفى الافشين سنة ٣٠٩ هـ ، ثم تقاطر إلى بلاد الأندلس كثير من علماء المشارقة لتوافر المرغبات فى الهبوط اليها ماديا وأدبياً ، فتولد من هذين العاملين حركة فى علم النحو فى ظل الأمويين واطرد نموها وازدهرت فى آخر عهدهم ، وازداد ازدهارها في عصر ملوك الطوائف الذين قاموا على أنقاض الأمويين وتقاسموا بلاد الأندلس بينهم من سنة ٤٢٨ هـ فانهم كانوا يتبارون في تقدير العلم وأهله حتى كان منهم العلماء والمؤلفون ، وفي خلال تلك الحقبة هبت نسمة من الأندلس على بلاد المغرب انتعشت فيها ، فظهر فى الأندلس والمغرب علماء ضارعوا علماء المشرق وانتشرت دراسة النحو فى سائر المدن ، وكادت الأندلس تحكى صورة العراق فى عصره الزاهر — فكان غير عجب أنه لما فسدت السليقة بالبادية أواسط القرن الرابع الهجرى وانصرف علماء المشرق إلى درس ما حفظوه ودونوه من كلام العرب — أن يصنع كذلك بعد حين المغاربة فى اجتزائهم بما نقلوا من السنة وكلام العرب المروى لهم عن علماء المشارقة والقواعد التى تلقنوها عنهم ، فلم يرحلوا بعد إلى المشارقة وعكفوا على ماحصلوا عليه وصدقوا العزيمة فى تثمير ماعندهم ، وتقضى البداهة أن إنعام الفكر فى المسائل موح وملهم باستكمال بعض النقص الفائت ، وهكذا ما كان من الاندلسيين بعد

استغنائهم عن المشارقة واعتمادهم على أنفسهم ، فانهم عدلوا عن بعض آراء المشارقة فى النحو وخالفوهم فى منهاج تعليمه وتدوينه واستدركوا عليهم مسائل فاتتهم ، وبذلك استحدثوا مذهباً رابعاً عرف بمذهب المغاربة أو الأندلسيين ، ظهرت مبادئه من أوائل القرن الخامس الهجرى ، الذى يعد بحق فجر النهضة النحوية فى هذه البلاد ، ولقد كانت نهضة رائدها المقة المحضة لهذا الفن فى تلك البلاد المحرومة منه زمنا طويلا ، ومن ذلك الحين قرروا كتاب سيبويه

كتاب سيبويه عندهم

شغف الأندلسيون من هذا الحين بكتاب سيبويه وتنافسوا فى استظهاره إذ كان حفظه عندهم شارة النبوغ فى العربية ، فمن حفظته خلف ابن يوسف الشنتريني ، وعنوا بشرحه والتعليق عليه فشرحه منهم ابن الطراوة وابن خروف وابن الباذش وغيرهم ، وما انفكت العناية به تزداد تترى حتى انتهت رياسة النحو إلى ابن الضائع الآتية ترجمته فى المطلب الثانى ان شاء الله فقد شرح كتاب سيبويه وأبدى مشكلات فيه عجيبة ، لقد اطرد تثمير هذه النهضة فى تلك البلاد وشيكا ، ونمت الحركة العلمية ، وكثر العلماء وتباروا فى تصنيف المؤلفات مع تنويع الانتاج بين نحوية وغيرها ، فتطلعت إليهم الأنظار فى سائر البلاد الاسلامية ، وملأت قرطبة الاندلس الاسماع وخلفت بغداد العراق لاسيما في النحو الذى حظى منهم بما حرمه غيره من فنون أخرى ، فقد سارت نهضتهم النحوية قُدماحتى القرن السابع الهجرى ، إذ فيه تسنم الذروة العليا من عناياتهم ، قال المقرى (والنحو

عندهم فى نهاية من علو الطبقة حتى أنهم فى هذا العصر « القرن السابع » فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه ، وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكنا من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء)[١]

وعلى كر الايام تكاثرت مسائل مذهب المغاربة الجديد وذاعت قواعده وامتدت حياته حتى أخذه عنهم المشارقة بعد ما ضعف شأنهم إذ قد نزح كثير من المغاربة إلى المشرق إما للحج أو للاقامة ودرسوا في مساجده ومدارسه ومعهم مؤلفاتهم كابن مالك وغيره ؛ وستعرف فى المطلب الثانى بعد سقوط بغداد وانقطاع المدد من العراق إلى القطرين (مصر والشام) أنه كثر تدفق المغاربة إليهما فنفحوهما نفحة لا ينساها التاريخ لهم ، وهنا يحسن أن نذكر على سبيل الارشاد بعض ماعرف عن جمهور المغاربة من عناصر مذهبهم مخالفاً للمعروف من المذاهب البصرية والكوفية والبغدادية فمن ذلك .

أمثلة للمذهب الأندلسى

١ — منع توكيد العائد المنصوب المحذوف قياساً نحو جاء الذى ضربت نفسه قال الأشمونى (ومنعه ابن السراج وأكثر المغاربة)[٢]

٢ — اعتبار الفعل القلبى معلقاً عن الجملة المسبوقة بالمعلق بعد المفعول

---

(١) نفح الطيب الباب الاول من القسم الاول (القرآن والعلوم الشرعية بالاندلس)

(٢) شرحه على الألفية باب الموصول العائد المنصوب

الأول قال ابن هشام (قال جماعة من المغاربة إذا قلت علمت زيداً لأبوه قائم أو ماأبوه قائم فالعامل معلق عن الجملة وهو عامل فى محلها النصب على أنها مفعول ثان وخالف فى ذلك بعضهم لأن الجملة حكمها فى مثل هذا أن تكون فى موضع نصب وأن لايؤثر العامل في لفظها وإن لم يوجد معلق وذلك نحو علمت زيداً أبوه قائم)[١]

٣ — تجويزهم تأخير حال الفاضل عن اسم التفضيل قال السيوطى (وأجاز بعض المغاربة تأخير الحالين عن أفعل بشرط أن يليه الحال الأولى مفصولة عنه من الثانية فيقال هذا أطيب بسرا منه رطباً ، وزيد أشجع أعزلَ من عمرو ذا سلاح قال أبو حيان وهـذا حسن فى القياس لـكنه يحتاج إلى سماع)[٢]

٤ — اعتبارهم نصب (غير) فى الاستثناء كنصب المستثنى بألا ، قال ابن هشام (وانتصاب غير فى الاستثناء عن تمام الـكلام عند المغاربة كانتصاب الاسم بعد إلا عندهم)[٣]

٥ — جواز العطف فى تمييز المقدار المـكون من الجنسين نحو عندى رطل سمنا وعسـلا قال السيوطى (وقال بعض المغاربة الأمران سائغان العطف وتركه)[٤]

٦ — عدم اعتبار العطف لأم المنقطعة مطلقا قال الصبان (فابن جنى والمغاربة يقولون ليست بعاطفة أصلا لا فى مفرد ولا جملة)[٥]

«١» المغنى الباب الثانى، الجمل التى لها محل من الاعراب ، الجملة الثالثة الواقعة مفعولا

«٢» همع الهوامع باب الحال «٣» المغنى الباب الاول « غير »

«٤» همع الهوامع باب التميز «٥» حاشيته فى عطف النسق

٧ ـ تصحيحهم عمل أن المخففة المفتوحة فى الظاهر أيضا قال السيوطى (الثانى أنها تعمل في المضمر وفى الظاهر نحو علمت أن زيداً قائم وقرىء أن غضب اللهِ عليها ، وعليه طائفة من المغاربة)[١]

٨ – تسويغهم نصب المضارع بعد الفاء في جواب الاستفهام المتضمن وقوع الفعل نحو لِم ضربت زيداً فيجازيَك ؟ مخالفين اشتراط النحاة عدم الوقوع قال الأشمونى (ولم يشترط ذلك المغاربة)[٢]

٩ ـ قصر حذف أن الداخلة على المضارع على السماع سواء أبقى منصوبا أم رفع قال الأشمونى (وإليه ذهب متأخرو المغاربة قيل وهو الصحيح)[٣]

تلك بعض قواعدهم أما خلافاتهم الشخصية وتعليلاتهم وطريقتهم فهى تحت البصر بكتبهم ، ولا تنس ما سبق التنبيه عليه فى آخر المطلب الأول من أن علماء الأندلس والمغرب يشركون علماء العراق وعلماء القطرين فى استيفاء المصادر كلها تراجمهم ، ونريد هنا أن نقول إن علماء الأندلس والمغرب قد ترجمتهم أيضاً المقّرى فى (نفح الطيب) ، وهاك بعض مشهوريهم مرتبين بحسب مماتهم .

أشهر علماء الأندلس والمغرب

١ ـ الزُبَيدى . هو أبو بكر محمد بن الحسن واشتهر بالزبيدى (نسبة إلى قبيلة يمانية معروفة) ولد بأشبيلية وتلقى العلم بقرطبة عن أبى على القالى وغيره ، وتألق نجمه فى سماء الأندلس فاختاره (الحكم) الخليفة

«١» همع الهوامع «تخفيف أن» «٢» شرحه على الالفية إعراب الفعل
«٣» شرحه على الالفية آخر باب اعراب الفعل ، النواصب

الأموى لتعليم أبنائه وولاه قضاء قرطبة فنال دنيا عريضة توارثها بنوه وحفدته ، وله مؤلفات كثيرة لاسيما فى اللغة ، منها (طبقات النحويين واللغويين من البصريين والكوفيين) وهذا الكتاب معتمد العلماء في التراجم وقد نقلنا عنه كثيراً فى كتابنا ، توفى بأشبيلية سنة ٣٧٩ هـ

٢ ـ الأعلم : هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم لانشقاق شفته العليا ، ولد بشنتمرية ورحل إلى قرطبة فتلقى عن الأفايلي وغيره وساعدته قوة الحافظة على بعد السمعة فكانت تضرب اليه أكباد الابل ، وكف بصره آخر حياته ، وكانت تغلب عليه النزعة الأدبية كما ترى في مؤلفاته ، فله شرح الجمل للزجاجى ، وشرح شواهد سيبويه ، وشواهد الجمل ، وديوان زهير ، والحماسة وغيرها توفى بأشبيلية سنة ٤٧٦ هـ

٣ ـ ابن السيد البطليوسى هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد ، ولد فى بطليوس واستوطن بلنسية موفور الكرامة لعلمه الجم وإبداعه فى التعليم فترامت سمعته إلى ابن الحاج صاحب قرطبة الذى استقدمه اليها ، غير أنه أقام عنده قليلا وخافه فعاد إلى بلنسية ، ومؤلفاته كثيرة خصوصا فيما يتصل بالشواهد العربية شنشنة الأدباء ، له المسائل المنثورة فى النحو ، وإصلاح الخلل الواقع فى الجمل ، والخلل فى شرح أبيات الجمل ، وشرح ديوان المتنبي توفى ببلنسية سنة ٥٢١ هـ

٤ ـ ابن الطراوة : هو أبو الحسين سليمان بن محمد ، ولد بمالقة ورحل إلى قرطبة فسمع من الأعلم كتاب سيبويه كما أخذ عن غيره ، ثم تجول كثيراً فى الأندلس ، فانتفع به خلق كثير ، وكان جريئا فى آرائه لهذا انفرد بمسائل جمة خالف فيها النحاة ، ولم يتحاش تغليط سيبويه

فى الكتاب فى (باب النعت) كما رأيت عند الكلام على الكتاب فى ترجمة سيبويه ، ومن مصنفاته المقدمات على كتاب سيبويه ، والترشيح ، توفى بمالقة سنة ٥٢٨ ه

٥ ـ ابن الباذش : هو أبو الحسن على بن أحمد ، ولد بغرناطة وشب على حب الفضيلة والزهد فى الدنيا وبرع فى الشريعة والعربية فأكبره لداته ، بذل همته فى النحو فشرح أمهات الكتب : إذ شرح كتاب سيبويه ، والأصول لابن السراج ، والمقتضب للمبرد ، والايضاح للفارسى ، والجمل للزجاجى ، والكافى للنحاس ، توفى بغرناطة سنة ٥٣٨ ه

٦ ـ اللخمى : أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن هشام اللخمى ، ولد فى سبتة ، ولما شدا مبادىء اللغة والشريعة على مشايخه ، انكب على التزيد فيهما حتى صنف مؤلفات تداولها أهل الأندلس منها فى النحو كتاب الفصول والجمل ، وله نظم جمع فيه معانى الخال ، توفى بسبتة سنة ٥٧٠ ه

٧ ـ ابن طاهر : هو أبو بكر محمد بن أحمد ابن طاهر المشهور بالخدب ، ولد بأشبيلية ورحل إلى مراكش فدرس فى (فاس) كتاب سيبويه وذاع اسمه فأقبل الناس عليه من الجهات النائية وله طرر على الكتاب ، توفى بفاس سنة ٥٨٠ ه

٨ السهيلى : هو أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله ، ولد بمالقة وسمع من ابن الطراوة وغيره ، وكف بصره فى السابعة عشرة فعوضه الله نور البصيرة ، وأحسن الناس فيه عقيدتهم ونفذت سمعته العلمية والدينية إلى بلاد المغرب ، ونمى خبر إملاقه إلى ملكها فاستقدمه ومكث بها ثلاثة أعوام مغموراً بالاحسان ، وله مصنفات منها التعريف والأعلام بما فى القرآن من الأسماء والأعلام ، والروض الأنف شرح السيرة ،

حدثت مسائل بينه وبين ابن خروف مذكورة (فى الفن السابع) من الأشباه والنظائر للسيوطى فى الجزء الثالث، والحق فى جانبه، توفى عليه رحمة الله بمراكش سنة ٥٨٣ هـ [١]

٩ ابن مضاء : أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن اللخمى القرطبى، نشأ بقرطبة فى بيت حسب محباً للعلم، فأخذ عن ابن الرماك فى أشبيلية كتاب سيبويه تفهما وسمع عليه وعلى غيره من الكتب النحوية واللغوية والأدبية مالا يحصى وامتد نهمه إلى سائر العلوم من الاصول والهندسة وغيرها، فكان وحيد عصره وتولى رياسة القضاء فى عهد أمير المؤمنين يوسف بن عبدالمؤمن من دولة الموحدين — وله فى النحو كتاب (المشرق فى النحو) - وكتاب (الرد على النحاة) وهذا الكتاب هجم فيه على نحاة المشرق وفند بعض قواعدهم : فى اعتبار العامل وفى توجيه العلل وفى اعتبار القياس وفى التعويل على التمارين الفرضية، ويحتاج بسط مافى الكتاب إلى تفصيل لايسعه المقام - وكتاب (تنزيه القرآن عما لايليق بالبيان) وخطأه ابن خروف فى هذا الكتاب وناقضه بكتاب سماه (تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسهو)، ولما بلغ ابن مضاء فاغتاظ ثم قال نحن لانبالى بالأكباش النطاحة وتعارضنا أبناء الخرفان — توفى ابن مضاء بأشبيلية سنة ٥٩٢ هـ

١٠ ابن خروف : هو أبو الحسن على بن محمد بن على الحضرمى الأشبيلى، ولد بأشبيلية وأخذ عن ابن طاهر السابق ترجمته . ثم برز

---

١ السهيلى منسوب إلى سهيل بلدة قريبة من مالقة فيها أهله وأقاربه، وسميت بذلك لأن كوكب سهيل لايرى فى بلاد الأندلس إلا من جبل مطل عليها

فى العربية ، ومن مصنفاته النحوية شرح كتاب سيبويه أهداه إلى صاحب المغرب فمنحه ألف دينار ، وشرح الجمل للزجاجى ، ومع طول باع المترجم فى النحو وذيوع صيته فى التدقيق وغزارة مؤلفاته كان فى خلقه زعارة ، فلا عجب أن يندفع إلى منازلة السهيلى فى المسائل المنوه عنها فى ترجمته ، وأن يعدو على ابن مضاء فى مناقضته لكتابه المذكور آنفا فى ترجمته

ومما هو حرى بالملاحظة أن ابن خروف النحوى غير ابن خروف الشاعر المشهور وإن اتفقا علما وكنية ولقبا وأبا فقد اختلفا جداً ونسبا ووطنا ووفاة ومدفنا ، فان ابن خروف الشاعر هو أبو الحسن على بن محمد بن يوسف القيسى القرطبى ، وهو الذى أرسل قصيدة للقاضى فى حلب يوسف بهاء الدين المعروف بابن شداد يستجديه فروخروف ، وتوفى مترديا فى جب بحلب سنة ٦٠٤ هـ — ولعل الاشتباه بين النحوى والشاعر هو الذى تسرب منه الخطأ فى نسبة شعر للنحوى ، ولم يتنبه لهذا أحد ممن ترجم النحوى قبل ابن خلكان وبعده ، فأنه وحده الذى حقق هذا الفرق فى وفيات الأعيان ترجمة القاضى يوسف المذكور ؛ وهذا التحقيق من ابن خلكان جدير بالتقدير والاعتبار ؛ توفى ابن خروف النحوى بأشبيلية سنة ٦١٠ هـ

١١ — الجُزولى : هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز من قبيلة جُزولة بالمغرب تلقى العلم بمراكش ، ولازم ابن برى المصرى بعد عودته من الحج مدة ثم عاد إلى المغرب ودرس مدة طويلة فى بجاية ، ومن مؤلفاته النحوية شرح أصول ابن السراج ؛ والمقدمة المشهورة وهى حواش على جمل الزجاجى ، وذكر ابن خلكان فى ترجمته نبذة رائعة عنها ، توفى بهكونة سنة ٦٠٧ هـ على أرجح الأقوال

١٢ الشَلَوْبِينِيّ : هو أبو على عمر بن محمد المعروف بالشلوبينى، ولد بأشبيلية، وأخذ عن السهيلى والجزولى وغيرهما ثم انتهت إليه رياسة النحاة غير مدافع بل تغالى معاصروه ففضلوه على أبى على الفارسى - وبه انتهت دولة الأئمة المجتهدين، وكان مع هذا فيه غفلة وحكاياته فى ذلك غريبة ومن مصنفاته النحوية التوطئة، والتعليق على كتاب سيبويه، توفى بأشبيلية سنة ٦٤٥ ه [1]

١٣ ابن هشام الخضراوى: هو أبو عبد الله محمد بن يحى الأنصارى الخزرجى، والخضراوى (نسبة للجزيرة الخضراء) أخذ عن ابن خروف وغيره، وعنى فى تصنيفه بكتاب الايضاح، فألف الافصاح بفوائد الأيضاح، والاقتراح فى تلخيص الايضاح، وغرر الأصباح فى شرح أبيات الايضاح، توفى بتونس سنة ٦٤٦ ه

١٤ - الدَّبَّاج : هو أبو الحسن على بن جابر الأشبيلى، قرأ على ابن خروف وغيره، ثم تصدر لأقراء النحو والقرآن خمسين عاما، ولما دخل الافرنج إشبيلية اغتم ومات سنة ٦٤٦ ه

١٥ - ابن الحاج : هو أبو العباس أحمد بن محمد ؛ قرأ على الشلوبينى وغيره ؛ ومهر فى علوم اللغة العربية وصنف فيها، له فى النحو إملاء على كتاب سيبويه ؛ ومختصر الخصائص لابن جنى، وشرح الايضاح، كان يقول إذا مت يفعل ابن عصفور فى كتاب سيبويه ماشاء، توفى سنة ٦٤٧ ه

---

١ الشلوبينى بياء النسبة قال فى معجم البلدان (شلوبين أو شلوبينة أوشلوبينية حصن بالأندلس) وقال فى القاموس (شلوبين أو شلوبينية بلد بالمغرب) وقال في وفيات الأعيان (الشلوبين الأبيض الأشقر بلغة الأندلس) ، وروي بغير النسبة والباء على كل مشوبة بالفاء لأنها أعجمية

المطلب الثانى علم النحو وعلماؤه بعد سقوط بغداد

لقد كان سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على يد الطاغية (هولاكو) المغولى التترى حدث الأحداث ، إذ تقوض عرش الخلافة الذى كان ملاذ المسلمين ردحا من الدهر على اختلاف أجناسهم وتنائى أقطارهم ، سادوا فيه العالم وبسطوا نفوذهم على رقعة فسيحة من البسيطة رفرفت عليها راية للغة والدين ؛ قضى الله ودالت دولة الخلافة العباسية من بغداد وتمزق شمل المسلمين (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ففر من فر من بغداد وقتل فيها من قتل ؛ وارتكب المغول فى هذا الحادث الجرائم النكراء ، وأزالوا معالم المسلمين وأبادوا ثروتهم العلمية وألقوها فى اليم بدجلة فعبرت عليها الخيول ، ولم يقف شر هؤلاء الطغاة عند بغداد ، بل استشرى شرهم وعم بلاد المشرق فى عهد عقبه (تيمورلنك) الذى روع المشرق بجحافله الزاحفة وجيوشه المظفرة ، اتخذ قاعدة ملكه سمرقند واتجه شرقاً وغرباً يلتهم الممالك ويثل العروش ويعيث فى البلاد الفساد ، لا يثنيه عن ضراوته الوحشية صارف ، دخل أنقرة عنوة وأسر السلطان العثمانى (بايزيد الأول) المعروف بالصاعقة وزج به فى غياهب السجن سنة ٨٠٤ هـ ، دانت له الدول الاسلامية من حدود الهند شرقاً إلى سورية غرباً ؛ فامتدت أطماعه الى الاستيلاء على القطرين (مصر والشام) لكنه خاب أمله بفضل بسالة المماليك سلاطين مصر حينذاك كما سيجئ الكلام عليه فى الفصل الثالث ، وبلغ من جبروته أنه ألجأ الشيخين (سعد الدين التفتازانى والسيد

الشريف الجرجانى) إلى أن يتناظرا بين يديه يمتع عينه بما جر إلى موت السعد لانهزامه من السيد ، وكان يفكر فى القضاء على ابن خلدون لكن ابن خلدون احتال عليه وأمله فى عودته من القاهرة حاملا كتبه إليه فذهب وخلص من شره ، طالت مدة هذا الطاغية ، فلم يمت حتى دوخ الشرق فى عهده الطويل فقد ملك ستا وثلاثين سنة والشعوب الاسلامية تحت نير العسف والاضطهاد لاهم لهذه الشعوب المغلوبة فيها إلا سلامة أرواحهم ، حتى توفى سنة ٨٠٧ هـ - فاختلف أعقابه من بعده وألقيت بينهم العداوة والبغضاء ، وقد أسلم بعضهم ودان الآخرون بالبوذية ، فتفككت أواصرهم وانشعبت مملكتهم ، وكان الشرق يموج يومئذ بالفتن فتدول دولة وتقوم أخرى ، أو ينحل فتل دولة ويبرم فتل أخرى ،.

فقد توطد فى هذا الحين ملك الدولة العثمانية التى اتخذت بعد فترة من نشأتها عاصمتها الجديدة (القسطنطينية) بعد فتحها المعدود أعجوبة الدهر سنة ٧٥٨ هـ على يد السلطان محمد الثانى الفاتح ، وقد اطرد على مرور الزمن تقدم نهضة الدولة العثمانية حتى استولت على القطرين فى عهد السلطان سليم سنة ٩٢٣ هـ وكان لهذا الاستيلاء أثره البالغ فى طرو عهد جديد على اللغة العربية ، وبالتالى على النحو الذى نتحدث عنه وسترى تفصيل ذلك فى الفصل الثالث ، وقد بلغت الدولة العثمانية أوج مجدها فى عهد السلطان سليمان القانونى المتوفى سنة ٩٧٣ هـ فكان لها شطر كبير من بلاد الشرق ، فقد وصلت المملكة العثمانية زمن السلطان المذكور فيه إلى آخر العراق شرقا باقتطاع جزء كبير من أملاك الدولة الصفوية الآتى الكلام عليها بعد ، فدخلت (بغداد) فى ملكه

وظهرت أيضاً في هذا الحين الدولة الصفوية بخراسان وحالفها الظفر في المشرق حتى أدال الله لها على الدولة التيمورية بعد حرب ضروس في موقعة شرور سنة ٩٠٧ هـ انتصر فيها الشاه اسماعيل الصفوي رأس الدولة الصفوية ، واتسع ملكه فامتد بين جيحون وخليج البصرة وأفغانستان والفرات ، فلم يعد بعدئذ للدولة التيمورية أثر وكأن لم تغن بالأمس وكان آخر سلاطينها سلطان هراة (حسين ميرزا) المتوفى سنة ٩١١ هـ

فنشوء الدولتين الفتيتين (العثمانية والصفوية) حول التيمورية قضى عليها القضاء النهائي ، لكن الطمع الدنيوي لم يدع الصفاء بين الدولتين الباقيتين ؛ فقامت حروب بعدئذ بين السلطان سليم والشاه اسماعيل مدة طويلة ، وبالجملة فكان المشرق بركان ثوران في نواحيه عامة ولا قرار فيه للهدوء والسكون ، والعلماء كافة أناى الناس عن مثار الاضطرابات يركنون إلى مثابات الاستقرار في مواطن الأمن الشامل ، لهذا قد تصوبت أنظار النحاة الى القطرين (مصر والشام) فأخذوا يرتحلون من المشرق رويداً رويداً ، الى أن حان وقت تفردت فيه القاهرة بالقيام بأعباء النهضة الثقافية للمسلمين وأضحت كعبة القاصدين — هذه حال بلاد المشرق —

أما الأندلس وبلاد المغرب فأنه ما انفك فيهما بقية من علماء النحو تشتغل به بعيدة عن فوضى بلاد المشرق حتى ألمت بهم النوائب فاختلف ملوك بني الأحمر وتفرقوا أحزاباً واستعرت الحروب بينهم فطفق العلماء يهبطون من الاندلس والمغرب إلى القطرين كالمشارقة أرسالا إلى أن سقطت الأندلس واستولى عليها الفرنجة سنة ٨٩٧ هـ وستعرف

تفصيل ذلك فى الفصل الثانى ؛ فلم ير الطريد من الأندلس والمغرب ملجأ لهم إلا القطرين كما سبقهم من قبل إخوانهم المشارقة ، ومن ذلك تعرف أن القطرين مصر والشام اتسع رحبهما للوافدين إليهما من اليمين واليسار ، من المشرق والمغرب وفيهما التقى علماء المشرق والمغرب بعلماء القطرين ، وقامت القاهرة عاصمة القطرين بدورها بعد أختيها بغداد وقرطبة ، وعلى هـذا ينبغى فى الكلام على هـذا العلم ورجاله فى هـذا العهد أن نسير على طباق ماتقدم فى المطلب الأول إذ الحال من حيث الاتجاه فى النزعة لم تتغير عند كل فريق من الثلاثة ، وبذلك انقسم الحديث الى ثلاثة فصول

الفصل الاول

(علم النحو فى المشرق وعلماؤه)

إن بلاد المشرق لما منيت بهذا الخطب الجلل الذى أباد تراثها العلمى وأودى بحياة علمائها العاملين . دهشت طويلا من الأيام ، وعشش عليها بوم الآلام . غير أن بعض علمائها فى إبان الشدة والقسوة لأول عهد المغول نجوا بأنفسهم إلى حيث يأمنون فى سربهم ، فمنهم من وجدوا لهم مُراغما فى الأرض وسعة ، ومنهم من رضوا من الحياة الدنيا بالغذاء العلمى الروحى ، ومن هؤلاء الرضى الذى ولى وجهه شطر الحرمين ونعم بجوار الحرم المدنى وألف كتابه المشهور الذى سجل لهُ على النحو فضل الأبد ، وستقف على شأنه عند التعريف به فى ترجمة الرضى

نعم لما أسلم بعض سلائل التتر في أخريات أيامهم ، وقد ناهضتهم الدولة العثمانية أولا ثم الدولة الصفوية ثانيا التفت بعض سلاطينهم وأولى الشأن فيهم إلى وجوب استجلاب مودة الشعوب المملوكة استبقاء لملكهم فتوددوا للعلماء وأهابوا بهم فى القيام بما يعود على البلاد بالنفع والخير ، ولعل من أكبرهم مظهراً فى ذلك سلطان هراة السلطان حسين ، فقد غمر الجامى بما جعله لا يصوب نظره إلى سلطان آخر فى إقليم آخر رغم استزارته من كثير من سلاطين ذلك الوقت كما ستري فى ترجمته

كذلك الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، وهما دولتان اسلاميتان ناشئتان يحفزهما الدين إلى إحاطة العلماء بالتكريم ، والعلماء حفظة الدين ولغة الدين — على كل حال كان طبعيا وحتما مقضياً على هذه الدول أن تصانع شعوبها وتتقرب إلى خواصها للتنافس بينها — والشعوب عربية تواقة إلى استرجاع مجدها الحائل ، واللغة عندهم عنوان المجد وسبيل الابقاء على الدين ، فلا ريب أنهم عندما تنقشع سحب الاضطرابات وتسكن الثورات يكون أول هم الخواص فيهم أن ينشروا ما اندرس فيهم مما كادت تذهب الحوادث بأصوله ، حقاً لقد شعر العلماء بواجبهم إزاء كارثة بغداد التى اجتاحت ثروتهم العلمية ، ولولا بقية مما فى صدورهم لذهبت وانطمست معالمها ، والنحو معبر العلوم فهو أجدرها بالجد والنشاط كما كان أسبقها فى التكوين ، إلا أن العلماء لم يستطيعوا استعادة مجده القديم في هذه البلاد ذلك الحين لأمرين

(الأول) أن الشغب كان منتشراً فى جميع ربوع البلاد الشرقية فالنفوس قلقة والأفكار متبلبلة ، والعلم إنما يترعرع في كنف السكون والاستقرار

(الثانى) أن هذه الدول لم تحن على اللغة من أعماق قلوبها لأنها ليست

عربية تغار على لغة أصلها ، فالتتر إن حدبوا عليها فى آخر عهدهم فلاسترضاء شعوبهم ، والترك بالطبيعة لا يؤثرونها على لغتهم وستعرف فى الفصل الثالث أنهم فرضوها على القطرين بعد فتحهما ، والدولة الصفوية كانت تؤثر الفارسية عليها – لكن علماء المشرق مع هذا كله لم يألوا فى النهوض بواجبهم فى النحو لأنهم نشأوا فى المشرق مهد للغة العربية وعلومها ، والبيئة غلابة فى توجيه المرء مدة حياته ، والنحو أساس اللغة العربية ، بيد أنه لا يخفى أن علماء المشرق في العهد المغولى فما بعده يختلف حالهم عن علمائهم قبله ، وبعبارة ثانية يختلف حال النحاة بعد سقوط بغداد عن حالهم قبله ، فان السابقين على سقوط بغداد لم يدركهم المذهب الأندلسى الذى أدرك من كان من المشارقة بعد سقوط بغداد فى بلادهم ، ولذلك عرضت مؤلفات علماء العهد المغولى وما بعده إلى المذهب الأندلسى ، فالمذاهب التى يفاضلون بينها أربعة البصرى والكوفى والبغدادى والأندلسى ، بينما أولئك كانوا يوازنون بين الثلاثة الأولى – هذا – والحقيقة الناصعة أن مؤلفات النحويين فى هذا العهد وإن أتقن ضبطها وأحكم ترتيبها إلا أن تأثير البيئة العجمية فى المؤلفين على اتساع آفاقهم فى مداركهم وقوة بداهتهم جعلت كتبهم على شرف موضوعها وجلال مباحثها صعبة التناول ضعيفة الأثر فى تقدم اللسان العربى لما حشيت به من الفلسفة القديمة فى تبيان قواعدها والأسلوب المنطق فى توجيهها ، وما للسان العربى بذلك من صلة على ما لا يخفى ، ومن البدهى أن الحديث عن المشارقة بعد سقوط بغداد يقتضى (بعد ترك العراق العربى الذى انتهى أمره وانقضى الحكم فيه) التطواف والسيحان فى خراسان والهند والسند وإيران والبلاد العثمانية فى هذه الحقبة الممتدة ،

وفى تلك الاقاليم أعلام مشاهير سارت بذكرهم الركبان ، ولهم آثارهم التى تعنو لها الجباه ، فالتلبية لهذا الاقتضاء ينوء بحملها الكاهل ، فكل إقليم يتطلب سفراً وحده فى تراجم علمائه ، والحاجة عندنا يجزىء فيها الاقتصار على قليل منهم ، على أننا لا نعرض إلا لمن غلب عليه النحو واتسم به ممن لهم آثار بين أيدينا وتردد الكتب أسماءهم ، فلا نذكر أمثال السعد والسيد والعضد ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق ، فدونك أشهر المشارقة مرتبين على حسب وفياتهم

أشهر علماء المشرق

١ - إبن إياز : أبو محمد الحسين جمال الدين بن بدر ، نشأ ببغداد وتلقى عن سعد بن أحمد البيانى وقرأ على التاج الأرموى ، وكان حسيبا دمث الأخلاق ؛ ومن مصنفاته النحوية شرح فصول ابن معط ، وشرح الضرورى لابن مالك ، والأسعاف فى مسائل الخلاف وعضت كلمة عن هذا الكتاب عند الحديث على نتائج المخالفة بين المذهبين (البصرى والكوفى) رأيت فيها أنه استدرك على الأنبارى مسائل أخرى مما فيها الخلاف ، وقد أضاف السيوطى إلى مسائل الأنبارى مسألتين مما استدرك ابن إياز ذيل بهما مسائل الخلاف كما سلف ، توفى ببغداد سنة ٦٨١ هـ

٢ - الرضى : هو محمد بن الحسن نجم الملة والدين الأستراباذى ، هجر بلاد المشرق وأقام بالمدينة المنورة وألف شرحه على الكافية لابن الحاجب فى النحو ، وله شرح ألفه بعد على الشافية لابن الحاجب أيضاً فى الصرف ، وأعجب العجب أن هذا الامام العلامة يفوت على أصحاب المعاجم الافاضة

فى ترجمته ، فلم ندر متى وأين ولد ونشأ ؟ وأين كانت مراحل حياته ؟ وكم مؤلفاته وفيم كانت ؟ ومتى وأين كانت وفاته على التحقيق ؟ ومن تلقى عنهم ؟ ومن تخرج على يديه ؟ ـ ومما يزيد الأسف عدم معرفتهم اسمه فان السيوطى وهو من متأخرى أصحاب المعاجم المعنيين بالتراجم اضطر إلى ذكره فى بغية الوعاة (حرف الراء) اكتفاء بشهرة لفظ (الرضى) وقال فى ترجمته (ولم أقف على اسمه ولا على شىء من ترجمته) ثم قرظ شرحه للكافية بمافيه الكفاية وأشار إلى شرحه للشافية . نعم إن البقاعى المعاصر للسيوطى في (مناسبات القرآن) قد ذكر اسمه لمناسبة الكلام على تاريخ شرح الكافية ـ وبعد فان المحقق البغدادى فى مقدمة خزانة الأدب قد جمع نتفا متفرقة من المصدرين السابقين ومن غيرهما فيها إلمام إجمالى بترجمة الرضى والتنويه بشرحه للكافية وإن لم تف بالمقصود ، وبحسبنا فى تقدير الرضى علمياً وأنه حجة عصره غير منازع ماخلفه من (شرحى الكافية والشافية) وهما الكتابان اللذان لم يدعا شيئاً من الفنين إلا أوفياه حقه وكشفا النقاب عن سره (فليس وراء عبادان قرية) ، ومن الواجب أن نذكر نبذة خاصة عن شرح الكافية فانما نحن بصدد النحو

شرح الرضى على الكافية

هذا الشرح قد جمع بين دفتيه قواعد النحو وأسرارها بابتكار يدل على تعمق فى النحو واستكشاف لخبآته وإحاطة بأوابده ، ويعجبنى منه وَلوعه بضم الأنواع فى محاولاته التى يعنى فيها بلم أطراف الكلام الذى يراد التقعيد له ، حتى لايدع بابا إلا قضى وطر العلم فيه ، هذا من ناحية

التأليف ، أما من ناحية الفن فانه ليس فى شرحه جماعا وإنما هو الفيصل تستحكم الفكرة عنده فيبرزها مدعومة بالدليل النقلى والنظرى غير متحيز إلى مذهب خاص من المذاهب الأربعة السابقة وإن كان فى الجملة بصرى الاتجاه ، فقد لا يستبعد صوابية مذهب الكوفيين أحيانا إذا صح لديه حكمته ، وإليك أمثلة مما رأى قربه إلى الصواب فيها على ترتيب الشرح

من الأمثلة التى رأى قرب المذهب الكوفى فيها للصواب

١ـ يرى الكوفيون شرطية أن المدغمة فى ما فى نحو أما أنت منطلقاً انطلقتُ قال (ولا أرى قولهم بعيداً من الصواب لمساعدة اللفظ والمعنى إياه إلخ) [١]

٢ـ يرون الضمير فى أنت وأخواته (التاء) وفى إياك وأخواته (الكاف) . قال (وما أرى هذا القول بعيداً من الصواب فى الموضعين) [٢]

٣ ـ يرون المصدر المنسبك من أن والفعل فى نحو عسى زيد أن يقوم بدل اشتمال من الاسم الظاهر ، قال (والذى أرى أن هذا وجه قريب) [٣]

على أنه قد يبدو له ابتكار جديد يخرج به على كل النحاة عماده فى ذلك استقلال الرأى ورجاحة الحجة ، وأنى أسوق إليك بعض أمثلة من هذا النوع على ترتيب الشرح أيضاً

من الأمثلة التى خالف فيها النحاة

١ـ مخالفته فى اشتراط أصالة الصفة فى منع الصرف فقال (وأنا إلى الآن لم يقم لى دليل قاطع على أن الوصف العارض غير معتد به فى منع الصرف إلخ) [٤]

٢ ـ مخالفته فى عدهم عطف البيان نوعا مستقلا فى التوابع ، ورأى إدماجه

---

(١) حذف كان (٢) المضمر (٣) افعال المقاربة (٤) غير المنصرف

في بدل الكل فيقول (وأنا إلى الآن لم يظهر لى فرق جلىّ بين بدل الكل من الكل وبين عطف البيان بل لا أرى عطف البيان إلا البدل إلخ) [١]

٣ ـ مخالفته فى اعتبارهم فَعال معدولة عن فعل الأمر ، فقال (والذى أرى أن كون أسماء الأفعال معدولة عن ألفاظ الفعل شىء لا دليل عليه والأصل فى كل معدول عن شىء ألا يخرج من نوع المعدول عنه أخذاً من استقراء كلامهم ، فكيف خرج الفعل بالعدل من الفعلية إلى الاسمية) [٢]

٤ ـ مخالفته فى تعميمهم المنع فى الثلاثة الآتية : تقدم معمول المصدر عليه والفصل بينه وبين معموله بأجنبى وحذفه مع بقاء معموله ، ورأى جوازها مع الظرف والجار والمجرور ، فقال (وأنا لا أرى منعاً من تقدم معموله عليه إذا كان ظرفا أو شبهه .. ويجوز الفصل بينه وبين معموله بأجنبي ... وكذا يجوز إعماله مضمراً مع قيام الدليل) [٣]

٥ ـ مخالفته فى جعلهم الصفة المشبهة موضوعة للدوام ، ورأى أنها موضوعة لمجرد الثبوت ، فقال (والذى أرى أن الصفة المشبهة كما أنها ليست موضوعة للحدوث فى زمان ليست أيضاً موضوعة للاستمرار في جميع الأزمنة لأن الحدوث والاستمرار قيدان فى الصفة ولا دليل فيها عليهما إلخ) [٤]

٦ ـ مخالفته فى إذن فليست بحرف ناصب للمضارع كما يقول البصريون وبعض الكوفيين ولا اسم أصله إذا والنصب بعده بأن مضمرة كما يقول البعض الآخر من الكوفيين ، بل يقول إنها اسم أصله إذ والنصب بعدها بأن مضمرة ، ولهذا قال (الذى يلوح لى فى إذن ويغلب فى ظنى أن أصله إذ إلخ) [٥]

٧ ـ مخالفته فى جعلهم فاء السببية وواو المعية عاطفتين المصدر

---

(١) البدل (٢) اسماء الأفعال (٣) المصدر (٤) الصفة المشبهة (٥) نواصب المضارع

المسبوك من الناصب المحذوف والمضارع على المصدر المتصيد من الكلام قبلهما ، ورأى أن الفاء لمحض السببية والواو للحال أو بمعنى مع فقط [١]

وفى الكتاب أمثلة كثيرة من هذا الطراز لمن شاء أن يستزيد ، ومن البدهى أن من بلغ هذا الحد فقد وصل إلى المنقود .

نعم قد يتحاشى الخروج على الأجماع مع لمحه أسباب النزوع عنه ، فقد انقدح عنده استحسان ادعاء البناء للمضارع المجزوم لولا إجماعهم ، فقال (ولولا كراهة الخروج من إجماع النحاة لحسن ادعاء كون المضارع المسمى مجزوما مبنيا على السكون إلخ) [٢]

بقى أن تعرف مسلكه فى الكتاب من حيث الاستشهاد ، وهذا أمر جدير بالنظر لأن الشاهد في علم النحو هو النحو ، ومن المعروف أن الشاهد إما نثر أو نظم ، وليس كل نثر أو نظم مما يصح فى علم النحو الاعتماد عليه كما بسطه تفصيلا البغدادى فى مقدمة خزانة الأدب بمافيه المقنع

شواهده

إن قارىء الكتاب من أوله إلى آخره يقف على شواهد نثرية مستفيضة من القرآن الكريم وكلام العرب المعترف بالاحتجاج بهم والحديث الشريف وقول الامام على كرم الله وجهه - وشواهد شعرية

أما القرآن وكلام العرب فكثر ما استشهد بهما وهو فى ذلك موافق للنحاة القدامى والمتأخرين قبله فليس ثمة داع إلى ذكر نصوصهما فى الكتاب وأما الحديث فقد استدل به كثيراً أيضاً حتى على غير القواعد ، وقلما

---

(١) المبحث السابق (٢) الفعل وعلاماته

تقرأ باباً فى الكتاب إلا رأيت الحديث فيه — تقرأ من أول الكتاب أنواع الاعراب فيستشهد على معنى المعرب بقوله ﷺ (الثيب يعرب عنها لسانها) — ثم تقرأ باب غير المنصرف فيستشهد على الصرف للتناسب بالنظير بقوله (خير المال سكة مأبورة وفرس مأمورة) [١] وعلى صيغة الجمع المنتهى بقوله (إنكن صواحبات يوسف) وعلى وزن الفعل بقوله (إن الله نهاكم عن قيل وقال) — ثم تقرأ باب الفاعل فيستشهد على الحصر بقوله (إنما الأعمال بالنيات وإنما الولاء للمعتق لا صلاة لجار المسجد إلا فى المسجد) — ثم تقرأ باب الاختصاص فيستدل على قيام الاسم المضاف الدال على المراد من الضمير مقام أىّ بقوله (إنا معاشر الأنبياء فينا بَكْء) أى قلة كلام، وهلم جرا ، والرضى فى الاستدلال بالحديث متابع لابن مالك قبله .

وأما قول على كرم الله وجهه فان الكتاب ممتلىء به مع النسبة فى بعض الأحيان الى نهج البلاغة ، ويكفيك لتقدير ثقة الرضى بكلام الامام ما ذكره عند التمهيد على الاستدلال لورود إذ بعد بينا فى باب الظروف من الجزء الثانى إذ يقول (ألا ترى قول أمير المؤمنين على رضى الله عنه وهو هو من الفصاحة بحيث هو: بينا هو يستقيلها فى حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته) [٢]

---

(١) السكة السطر من النخل ، والمأبورة الملقحة ، والمأمورة كثيرة النسل من آمر المزيد بحرف فكان حقها مؤمرة لولا الأتباع ، وهذا ما قاله أيضا القالي قديما فى الأمالى ج ١ ص ١٠٣ ولكن البكرى فى التنبيه على أوهام القالى فند الاتباع مراعيا أن الفعل الثلاثى مؤد هذا المعنى راجع التنبيه ص ٤٢

(٢) هذه الجملة المذكورة من الخطبة الشقشقية المعروفة يتعجب من أبي بكر في استقالته من الخلافة أول الأمر مع حرصه آخر حياته على عقدها لعمر وقد ذكر بعضها فى النهج

فلا عجب أن يلجأ إليه فى عدة أبواب — يقول فى حذف الخبر وجوبا (وفى نهج البلاغة وأنتم والساعة فى قرن واحد ... وقريب منه قول أمير المؤمنين على رضى الله عنه فهم والجنة كمن رآها) - وفى باب المفعول المطلق لمناسبة جواز ذكر العامل وحذفه يقول (وفي نهج البلاغة فى الخطبة البكالية : نحمده على عظيم إحسانه ونير برهانه ونوامى فضله وامتنانه حمداً يكون لحقه أداء) — وفى باب المفعول له استدلا على عدم لزوك التشارك بين الفعل والمفعول في الفاعل يقول (والدليل على جواز عدم التشارك قول أمير المؤمنين على رضى الله عنه في نهج البلاغة : فأعطاه الله النظرة استحقاقا للسخطة واستتماما للبلية - والمستحق للسخطة إبليس والمعطى للنظرة هو الله تعالى) والكلام فى الشيطان - وهكذا استرسل الرضى فى الكتاب ، والرضى فى الاستدلال بكلام الامام غير مسبوق ، ولم أقف على شىء فى ترجمة الرضى ألتمس منه هذه الوجهة الجديدة أنرجع إلى النسب أم التشيع؟ وأياما كان فأن الأمام لا نكران فى صحة الاستشهاد به

وأما النظم فقد دعم الرضى القواعد بالشواهد الشعرية أيضاً فذكر فى كتابه سبعاً وخمسين وتسعمائة ، والمستقرىء لها يتبين أن أكثرها للجاهليين والمخضرمين والاسلاميين ممن يستشهد بكلامهم فقد عُرف قائلها ، والباقى بعضه مجهول القائل ولا حرج فى ذلك لأن أكثره من أبيات سيبويه المعدودة وسيبويه مصدر ثقة - وقليل منه لم يوقف على قائله غير أن كتب السابقين اعتمدت عليه ، وبعضه منسوب للشعراء المحدثين الذى لا يعتد النحاة بهم فى أحكامهم - هذا - وقد ساق الرضى قليلا من الشعر لمناسبات معنوية لا علاقة لها بالقواعد ، وإن أرتنا سعة

اطلاعه فى الأدب بما لم يتح لنحوى غيره ـ فمن هذا فى باب المبتدأ والخبر لتوجيه تقديم المبتدأ على الخبر فى نحو (سلام عليكم) قوله: إن تقديم الخبر ربما يتسرب منه الدعاء عليه قبل المبتدأ، ونظير ذلك أن أبا تمام لما أنشد فى مطلع قصيدة فى مدح أبي دلف العجلى

«تذال مصونات الدموع السواكب» على مثلها من أربع وملاعب

قال بعض الحاضرين قبل نطقه بالشطر الثانى (لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) فانخذل أبو تمام عن إتمام الانشاد، ومنه فى باب التنازع عند ذكر رأى الكسائى الموجب حذف الفاعل من الأول عند إعمال الثانى خوف الأضمار قبل الذكر، مع أن الحذف أشنع من الأضمار قبل الذكر، قوله: فحال الكسائى حال «سعيد بن حسان» إذ يقول:

فكنتُ كالساعى إلى مثعَب موائلا من سَبَل الراعدِ

ومنه فى باب المفعول به لمناسبة حذف الفعل جواز ووجوباً فى قولهم (انته أمراً قاصداً) عند شرح المثال قوله: القصد خلاف القصور والأفراط كقول الشاعر

«ولا تك فيها مفْرِطا أو مفَرِطا» كلا طرفى قصد الأمور ذميم

ومنه فى باب أسماء الأصوات عند الكلام على ويلمّه وأن هذا الدعاء على حد قاتله الله عند التعجب قوله: فان الشىء إذا بلغ الكمال يدعى عليه صونا له عن عين الكمال، كما قال جميل

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى وفى الغر من أنيابها بالقوادح

وهكذا ـ وليس فى مثل هذا النوع من مؤاخذة على الرضى، إنما المؤاخذة عليه فى استشهاده بشعر المحدثين، والنحاة لا ينظرون إليه

في اتخاذه أساساً للقوانين النحوية بحال ، وقد ذكر منه مقداراً كبيراً سأذكر لك بعضاً منه على ترتيب الشرح مكتفياً به عن الباقى لسهولة الوقوف عليه

من شواهد الشعراء المحدثين

قد استشهد رحمه الله فى باب الفاعل بقول أشجع السلمى

كأن لم يمت حى سواك ولم تقم	على أحد إلا عليك النوائح

وفى باب المبتدا والخبر بقول أبى نواس

غيرُ مأسوف على زمن	ينقضى بالهم والحزن

وبقول أبى تمام الطائى

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه	وأرْى الجنى اشتارته أيد عواسل

وفى باب الحال بقول بشار

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها	خرجتُ مع البازي علىّ سواد

وبقول أبى الطيب المتنبي

قبلتها ودموعى مزج أدمعها	وقبلتنى على خوف فما لفم
بدت قمراً ومالت خوط بان	وفاحت عنبراً ورنت غزالا

وفى باب اسم الفعل بقول ربيعة الرقىّ

لشتان ما بين اليزيدين في الندى	يزيد سليم والأغر بن حاتم

وقد كرر الاستشهاد بالمتنبي فى أبواب عدة ، ولا ريب أن استشهاده بالمحدثين إحدى الهنات الملاحظة عليه

انتقاد هين

الواقع أن الكتاب برهان حق على عبقرية صاحبه وإذا ماتشبثنا بالملاحظات

الطفيفة فانا لا نعدم العثور على شيء منها - ولا بأس بسرد بعض منها الآن فدونكها (الأولى) استشهاده بالمحدثين (الثانية) أنه ربما لاح له تعقب ابن الحاجب في الكافية فلا يبالي التشهير (ورب لائم مُليم) فانظر إلى عبارته في رده عليه تجويزه دخول من على تمييز كم الاستفهامية إذ يقول (فلم أعثر عليه مجروراً بمن لا في نظم ولا نثر ولا دل على جوازه كتاب من كتب النحو ولا أدري ما صحته) - ولهذا كان حسناً من السعد في المطول رده على الرضى بشاهد فيه التلميح البديع وهو قوله تعالى (سل بني اسرائيل كما آتيناهم من آية بينة) (الثالثة) أنه اعتبر قياسية تاء الوحدة في الفرق بين الآحاد والأجناس في المخلوقات والمصادر كتمر وضرب فقال في باب المذكر والمؤنث (وهو قياسي في كل واحد من الجنسين المذكورين أعني المخلوقة والمصادر) ثم هو بعد هذا ناقض نفسه إذ يقول في شرحه على الشافية أواخر باب جمع التكسير (وليس أسماء الأجناس التي واحدها بالتاء قياساً إلا في المصادر نحو ضربة وضرب إلخ)

على أن تلك الهنات تتلاشى تجاه المحاسن التي انطوى عليها ذلك الشرح، وللسيد الشريف (على) الجرجاني تعليقات على الشرح جمعت بين الوجازة والافادة، وقد نال هذا الشرح الأعجاب منذ شع نوره في المشرق، ولم ينبثق نوره في مصر إلا أخيراً

ظهوره بمصر

من العجب العاجب أن يطول الأمد على اختفاء هذا الشرح النفيس بعد تأليفه عن نحاة مصر، فلا يدخل مصر إلا بعد ابن هشام المتوفى سنة ٧٦١ هـ، قال البقاعي إبراهيم بن عمر المتوفى سنة ٨٨٥ في كتابه

مناسبات القرآن (ولم ينقل الشرح من العجم إلى الديار المصرية إلا بعد أبى حيان وابن هشام)[١]

وإنى أعلم غير ظان أنه مع نقله إلى مصر بعد ابن هشام لم تتداوله الأيدى العامة وأن قليلا من العلماء اطلع عليه فلم يتيسر لكثيرهم السماع به، بله الوقوف عليه — فالأشمونى المتوفى سنة ٩٠٩ لم يذكر الرضى مرة واحدة فى شرحه، والأشمونى أولع المؤلفين بجمع المعلومات والقائلين لها فى شرحه، وستعرف هذا عند التعريف بشرح الأشمونى، فمما لا شك فيه أن شرح الرضى حرمت منه مصر طويلا، إذ الكتب النحوية التى تعتمد عليها مصر إنما هى مؤلفات ابن هشام وابن عقيل والأشمونى، وهى خالية من كل جزئية علمية لها اتصال بالرضى، ومن اليقين أن الأيام لو تقدمت بظهور شرح الرضى لارتشف منه هؤلاء المؤلفون المتدارسة كتبهم بأيدينا وعليها اعتمادنا من مناهله السائغة العذبة، واعتادوا فى الأحكام محاولة ضم كل شىء إلى إفقه، وازدادوا فى تنقيح عللها ما وسعتهم الفكرة، — هذا وقد توفى الرضى رحمه الله سنة ٦٨٦ ﻫ

٣ — الكافيَجى : هو أبو عبد الله محمد بن سليمان، ولد فى بلدة (ككجة كى) من آسيا الصغرى ثم ارتحل إلى فارس فسمع من الفنرى وغيره، واشتهر بالكافيجى لملازمة (كافية) ابن الحاجب، ثم هبط مصر وفيها نبه قدره ودان له العلماء فى متنوع الفنون، فازدحم الطلاب على دروسه طبقة بعد أخرى، وصنف ما يربى على المائة وأغلب المؤلفات مختصرات. ومن أنفسها فى النحو شرح (القواعد الكبرى) لابن هشام

---

(١) نقلها البغدادى فى مقدمة الخزانه (الأمر الثالث)

توفى بالقاهرة سنة ٨٧٩ هـ [1]

٤ ـ الجامى : هو أبو ضياء الدين عبد الرحمن نور الدين بن أحمد نظام الدين ، ولد فى قرية خرجرد من قرى جام (ولاية بخراسان) وانتقل مع والده صغيراً إلى هراة فشب معروفاً بالجامى ، وتلقى بالمدرسة النظامية عن السمرقندى وشهاب الدين الحاجرى وغيرهما ، ثم طمحت نفسه إلى الازدياد فى العلم فتوجه إلى سمرقند وسمع من قاضى زاده الرومى الذى أطراه كثيراً وتنبأ عن أمل فيه كبير ، وهنا طارت شهرته فى المشرق ، فقفل إلى هراة ودنا من قلب سلطانها أبى الغازى السلطان حسين مرزا آخر سلاطين بنى تيمور المتوفى سنة ٩١١ هـ وطوفت سمعة الجامى حتى رغبت السلاطين فى لقياه ، ولهذا لما سافر إلى الحج أرسل له السلطان محمد الفاتح العثمانى يستزيره بعد عودته من الحج غير أنه اعتذر رغبة فى سرعة العودة إلى هراة ، كما كاتبه ابنه السلطان بايزيد الثانى ، فقد آثر الأقامة الممتعة فى هراة في ظلال السلطان حسين ، ولقد خلف الجامى مؤلفات شتى فى متنوع الفنون ، ومن آثاره النحوية شرحه على كافية ابن الحاجب وسماه الفوائد الضيائية (نسبة لولده ضياء الدين) ، والشرح صغير الحجم كبير المادة ، ومن أبسط المسائل فيه مسألة الكحل وباب لو ، ونقل فيه كثيراً عن شرح الرضى للكافية مع عزو النقل اليه ، وللأقبال على شرح الجامي عنى العلماء به ، فمما يه حاشية لمحرم مات قبل إكمالها إذ وصل فيها إلى بدل الكل من الكل فأكملها الأنصارى ، وحاشية للبسنوي ، وحاشية لعصام الدين ، وحاشية لمحمد عصمة الله ، توفى الجامى بهراة سنة ٨٩٨ هـ [2]

---

(١) ترجمته في الضوء اللامع ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر الطالع

(٢) ترجمته فى الشقائق (الطبقة السابعة ـ السلطان محمد) ، والشذرات ، والبدر الطالع

الفصل الثانى

النحو والنحاة في الأندلس والمغرب

إن بلاد الأندلس والمغرب فى هذا الحين قد كثر فيهما علماء النحو الذين دوّى ذكرهم فى كتبه، لأنهم نشأوا بعد نضوجه واستكمال مذهبهم الخاص الذى تقدم شرحه وبعض مسائل منه، وقد خدموا هذا العلم بمصنفاتهم التى أعاضت النحو معظم مافقده من كارثة بغداد الصماء لتوافر رغبتهم فيه وقدسية منزلته فى نفوسهم، بل إن منهم من وقف بحثه ونشاطه عليه كابن عصفور وابن الضائع وغيرهما فاكتسب النحو منهم قوة ساعدته على استطالة عمره بعد عوامل الفناء التى أصابته بإبادة كثير من كتبه وبفترة الخمول التى خيمت على علمائه من أعاصير اضطرابات المشرق وما تولد عنها مدة طويلة، ولقد سبق لك أن النحو أوفى على الغاية فى هذه البلاد هذا العصر (القرن السابع) وكان عندهم شارة النبغ والفوق، وأن عنوان عرفانه وسمة الرسوخ فيه استظهار كتاب سيبويه، لأن له المكانة السميا عندهم فمن لم يشتهر به فعلمه مطروح مهما حصل، ولذا كانوا يقولون عن أحمد بن عبد النور النحوي المعروف المتوفى سنة ٧٠٢ هـ انه لا يعرف شيئاً، ولا دهشة من هذه الحال عندهم لأن النهضة الأندلسية فى النحو هبت مصاحبة الكتاب عندهم، فللكتاب اليد الطولى فى كونها وإنمائها والأبقاء عليها، ولها فضل إكبارهم منزلة الكتاب عندهم والاحتفاظ به كأنفس ذخيرة لديهم — هذا — وعند الاعتبار والتبصر يجب أن يدرك أن ذلك إيذان بأفول نجمه من هذه البلاد، وهذا ما حدث فأنه

ما تم أمر إلا بدا في النقصان — فقد اتفق أن شب ضرام الاضطرابات في البلاد وقد استوى على ملك الأندلس بنو الأحمر الذين يؤثرون الأدب على النحو والناس على دين ملوكهم، فدعا ذانك الأمران علماء النحو في البلاد الى الاستشراف إلى القطرين (مصر والشام) وصاروا ينزحون إليهما زرافات ووحدانا إلى أن بلغ الشر إناه وتفرق ملوك بنى الأحمر شيعاً واستعدى بعضهم على بعض ملوك الافرنج فقضوا عليهم القضاء الأخير في حادث تقشعر منه الجلود وسقطت آخرة حواضر الأندلس (غرناطة) على يد فرديناندسنة ٨٩٧هـ ونكل الأفرنجة بالمسلمين، ومثلوا بتراثهم العلمي في غرناطة الصورة الكريهة التي ارتكبها المغول في بغداد (وما أشبه الليلة بالبارحة) ففرجل من بقى من العلماء إلى القطرين كما سبق. وفي الحق أنه لولا العلماء الذين جلوا إلى القطرين من بلاد المغرب ومعهم أغلب مؤلفاتهم لفات العالم العربى من هذا العلم قسط كبير — وهاك بعض المشهورين منهم مرتبين باعتبار سنى وفياتهم

١ـ الأندلسى: هو أبو محمد القاسم علم الدين اللورقى بن أحمد، ولد بمُرسية وتردد إلى بلنسية، وفيهما أخذ النحو عن ابن الشريك وابن نوح وغيرهما ولقى الجزولى، وورد مصر ثم اتجه إلى دمشق فسمع من تاج الدين الكندى كتاب سيبويه وغيره، ودفعه طموحه إلى علماء بغداد فجلس في حلقة أبى البقاء العكبرى، وعاد إلى حلب واستوطن الشام والتف الناس حوله ينهلون من معارفه إذ كان موطأ الأكناف حسن البزة كما انتفعوا بمؤلفاته الكثيرة، منها في النحو شرح مقدمة الجزولى، وشرح المفصل، توفى بدمشق سنة ٦٦١هـ (١)

(١) ترجمته في معجم الأدباء، ونفح الطيب القسم الاول الباب الخامس، وبغية الوعاه

٢ ابن عصفور : هو أبو الحسن على بن مؤمن الأشبيلى، أخذ عن الدباج والشلوبينى ، وكان أصبر الناس على المطالعة ، بيد أنه وقف عنايته على النحو فما لبث أن توحد بحمل راية النحو في بلاد الأندلس التى تجول فيها كثيراً ، وحدثت جفوة بينه وبين الشلوبينى ، وله مصنفات منها المقرب وشرحه لم يتم ، ومختصر المحتسب لابن جنى ، وثلاثة شروح على الجمل الكبيرة للزجاجى ، كان رقيق الدين جلس آخر حياته فى مجلس شراب رمى فيه بالنارنج إلى أن مات سنة ٦٦٣ هـ (١)

٣ ابن مالك : هو أبو عبد الله محمد جمال الدين بن عبد الله الطائى ولد بجيَّان (بلد بالأندلس) وسمع من الشلوبينى أياما ، ثم ورد المشرق حاجا ، ثم استوطن الشام فسمع بدمشق وحلب من ابن يعيش وتلميذه ابن عمرون ، ثم تصدر لأقراء العربية فى حلب مدة فدمشق التى توطنها فأتى بما أعجز الأوائل لقوة حافظته ، فكان يستشهد بالقرآن فان لم يجد فالسنة فان لم يجد فأشعار العرب التى كان في استذكارها نسيج وحده ، وصنف مؤلفات نظما ونثرا تشهد له بالتفوق على من تقدم ، وجمع بعضهم أكثرها فى نظم ذكره السيوطى فى البغية - ولنقتصر هنا على النحوية ، فمن النظم (الكافية الشافية) استوعب فيها كل ما سمعه وشرحها ، و (الألفية) وهى ملخص الكافية طبقت شهرتها الآفاق وترجمت إلى لغات وعليها شروح كثيرة استقرأها كشف الظنون ، ومن شروحها شرح ابن عقيل وشرح الأشمونى وسنذكر عنهما نبذة عند الكلام على ترجمة مؤلفيهما ، ومن النثر (الفوائد النحوية والمقاصد المحوية)

---

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ، وبغية الوعاه ، وشذرات الذهب

و (تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) - ولاغرو أن طلاب اللغة العربية مدينون لهذا الامام الذى أسدى هذه الذخائر ، فما أحراه بكتاب منفرد فيه التعريف بحياته ومؤلفاته وما فيها بالتفصيل ، نعم إن المحسن لا يضيع عمله عند الله فقد جعل الله لابن مالك لسان صدق فيمن بعده ، فمؤلفاته وأقواله تناقلتها العلماء فى كتبهم مشارقة ومغاربة ، فالرضى القريب منه زمناً وهو من المشارقة نقل عنه فى شرحه الكثير من مقاله ، والمغاربة ومن فى القطرين اتبعوه واعتمدوا عليه فكان قطب دائرتهم ، هذا والغريب من ابن خلكان الذى كان يشيعه إلى بيته بعد الصلاة كل يوم تعظيما له ألا يترجم له فى وفيات الأعيان ، توفى رحمه الله بدمشق سنة ٦٧٢ هـ [١]

٤ - ابن الضائع : أبو الحسن على بن محمد الأشبيلى الكتامى ، لازم الشلوبينى وأخذ عنه كتاب سيبويه بين قراءة وسماع ، ثم فاق أترابه وأبدع فى التصنيف ، له شرح على سيبويه جمع فيه بين شرحى السيرافى وابن خروف مع الاختصار الحسن ، وله مشكلات عجيبة أبداها فى كتاب سيبويه سبق الالماع إليها فى الكلام على علم النحو وعلمائه فى الأندلس والمغرب فى المطلب الأول ، وشرح على الجمل الكبيرة للزجاجى ، وكان لا يعتمد فى الاستشهاد على الحديث الشريف مخالفاً سنة ابن خروف فى التعويل عليه ، توفي سنة ٦٨٠ هـ [٢]

٥ - ابن أبى الربيع : أبو الحسين عبيد الله بن أحمد الأشبيلى ،

---

(١) ترجمته فى نفح الطيب الباب الخامس من القسم الاول ، وفوات الوفيات ، والوافى بالوفيات ، وبغية الوعاه ، وشذرات الذهب

(٢) ترجمته فى بغية الوعاه

تلقى عن الدباج والشلوبينى ولم يكن فى طلبة الشلوبينى أنجب منه ، ثم هاجر من أشبيلية بعد استيلاء الأفرنجة عليها إلى سبتة وتوطنها ، ووقعت مناظرة بينه وبين مالك بن المرحل هل يقال (كان ماذا ؟) ونتج عنها مهاجاة بينهما مقذعة ، ولذا قال مالك

عاب قوم كان ماذا ليت شعرى لم هذا

وإذا عابوه جهلا دون علم كان ماذا [1]

ومن مؤلفات ابن أبى الربيع النحوية شرح سيبويه ، وشرح الجمل للزجاجى ، وقد رأيتُ فى حاشية الشمنى على المغنى الباب الاول مبحث (لكنّ) أن كتاب (البسيط) من مؤلفاته مع أنى لم أطلع على هذا الكتاب ضمن مؤلفاته فى ترجمته ، ومع أن ابن عقيل عند قول الناظم

وفعل أمر ومضى بنيا وأعربوا مضارعا إن عريا

قال (ونقل ضياء الدين بن العلج فى البسيط) - وتابعه على ذلك السيوطى فى فهرس بغية الوعاه (باب الكنى والألقاب والأسماء والأضافات) عند حرف الباء ونصه (صاحب البسيط ضياء الدين بن العلج أكثر أبو حيان وأتباعه من النقل عنه ولم أقف له على ترجمة) والله أعلم بالحقيقة ، توفى سنة ٦٨٨ هـ [2]

٦ - ابن آجُرُّوم : أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجى (نسبة إلى صنهاجة قبيلة بالمغرب) المشهور بابن آجروم (الفقير الصوفي) بلغة البربر ، ولد بفاس وذاع فضله فى علوم كثيرة إلا أنه غلبت عليه القراءات والنحو ولم يؤثر عنه في النحو إلا مقدمته التى طبقت شهرتها الآفاق ، قال السيوطى

---

(١) ذكرت المناظرة وماحدث فيها فى ترجمة مالك : فى نفح الطيب « الباب السابع » من القسم الاول ، وبغية الوعاه (٢) ترجمته فى بغية الوعاه ، ونفح الطيب

فى بغية الوعاه (وهنا شىء آخر وهو أنا استفدنا من مقدمته أنه كان على مذهب الكوفيين فى النحو لأنه عبر بالخفض وهو عبارتهم وقال الأمر مجزوم وهو ظاهر فى أنه معرب وهو رأيهم وذكر فى الجوازم كيفما والجزم بها رأيهم وأنكره البصريون فتفطن) توفى بفاس ٧٢٣ هـ [١]

٧ ـ أبو حيان: محمد أثير الدين بن يوسف الغرناطى، ولد بمطخارش (من ضواحى غرناطة) وتلقى عن كثيرين منهم ابن الضائع ودرس بين ظهرانيهم، ثم هاجر وضرب فى مغارب الأرض ومشارقها وأخذ عن كثير ممن لقيه، ثم انتهى به المطاف إلى القاهرة فأخذ عن ابن النحاس، وتصدر فى الجامع الأقمر وصنف كثيراً فمن مؤلفاته النحوية (التذييل والتكميل فى شرح التسهيل) وملخصه (ارتشاف الضرب من لسان العرب) وكان على مذهب ابن الضائع في منع الاستشهاد بالحديث ولذا رد على ابن مالك فى شرحه على التسهيل بكلام مسهب. توفى رحمه الله بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ [٢]

٨ ـ الشاطبى: هو أبو اسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الغرناطى، تلقى العربية وغيرها عن أئمة المغاربة منهم أبو القاسم السبتى وأبو عبد الله التلمسانى والمقرى وابن لب، فنبغ فى فنون متنوعة وصنف فيها مؤلفات أعجب بها العلماء منها (الموافقات) فى أصول الفقه ومن مؤلفاته النحوية شرحه على (الألفية) لابن مالك فانه المنهل العذب الذى اغترف منه النحاة بعده.

---

(١) ترجمته في الضوء اللامع، وبغية الوعاه، وشذرات الذهب

(٢) ترجمته فى الوافى بالوفيات، وفوات الوفيات، والدرر الكامنه، وبغية الوعاة، وحسن المحاضرة (أئمة النحو واللغة)، ونفح الطيب (الباب الخامس) من القسم الاول، وشذرات الذهب، والبدر الطالع

ومن آرائه الصائبة تجويزه الاستشهاد بالحديث إذا علم أن المعنى به فيه نقل الألفاظ لمقصود خاص بها كالأحاديث المنقولة فى الاستدلال على فصاحته صلى الله عليه وسلم خلافا لابن خروف وابن مالك المجيزين مطلقاً وابن الضائع وأبي حيان المانعين مطلقا ، وقد أوفي هذا المبحث حقه فى باب الاستثناء ، ونقله عنه بحذافيره البغدادى فى مقدمة الخزانة توفي الشاطبي بالأندلس سنة ٧٩٠ هـ [١]

الفصل الثالث

النحو والنحاة فى مصر والشام

إن مصر والشام فى هذه الآونة كانتا مستقلتين تخفق عليهما راية واحدة حملها المماليك الذين ولوا أمرهما بعد الأيوبيين منذ سنة ٦٤٨ هـ واتخذوا القاهرة قاعدة ملكهم ، وكان المماليك لشعورهم بنقص أحسابهم ولأنهم دخلاء يحاولون استكمال مهابتهم بغرس ما يثمر النفع للبلاد . ثم كان حادث بغداد موحياً اليهم جسامة العبء الملقى على كاهلهم إذ لم يبق للاسلام بلاد ذات شوكة تعقد عليها الآمال سوى القطرين ، والأندلس في دور احتضارها الأخير فناصروا اللغة العربية لأنها لغة الدين والشعب ولم تحل جنسيتهم التركية والجركسية دون اعتمادها لسان الدولة الرسمى وتحبيب علمائها إلى نشرها ورفع لوائها ليستعيدوا مجد العراق فى بلادهم وقد كان ذلك مستحكما فى أدمغتهم

---

(١) ترجمته فى « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » — ديباج ابن فرحون —

حتى أن الظاهر بيبرس البندقدارى استدعى أحد أولاد الخلفاء العباسيين الهاربين من أيدى التتر وعقد له بيعة الخلافة فألبسه تاجها بالقاهرة سنة ٦٥٨ هـ، ولقّبه المستنصر بالله واستمد منه سلطة الملك نائباً عنه، ولما خرج الخليفة على رأس جيش لمحاربة التتر فقتل، بايع الظاهر بعده عباسياً آخر هو (أبو العباس أحمد) ولقّبه الحاكم بأمر الله وهو جد الخلفاء العباسيين بمصر، وهكذا استمرت الخلافة العباسية فى القاهرة مدة ولاية المماليك للقطرين وإن كانت صورية، فقوى بالاعتزاز بها شأنهم واشتدت شوكتهم فاستطاعوا مقاومة (تيمور لنك) الذى حاول بعد فتوحاته إلى سورية أن يستحوذ على القطرين فأرسل إلى السلطان (قلاون) — وكان يضطغن عليه لكن الله أنقذه من شره وتغلب عليه فى موقعة (حمص) فنجا القطران من الوقوع فى يده — مضت الحقبة الطويلة التى ولى فيها المماليك القطرين وكأن الله أراد أن يعيد إلى المسلمين فيهما بعض ما رأوه فى العراق إبان مجده الزاهى فقامت القاهرة مقام بغداد، وكما ورثتها فى الخلافة العباسية نابت عنها فى النهود بالثقافة العلمية، فلا غرو أن القطرين كانا آنئذ ملتقى علماء المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها، وتوالت النهضة فى القطرين إلى أن أدال الله لبنى عثمان من المماليك واستولى السلطان سليم على القطرين سنة ٩٢٣ هـ فضعفت النهضة وتغير الحال، وعلى هذا فينبغى الكلام على النحو وعلمائه فى كل عصر من العصرين على حدة لاختلاف الشأن فيهما.

النحو والنحاة فى عصر المماليك

وضح مما فات أن المماليك قبضوا على زمام المقاليد فى القطرين والعراق

فى الاحتضار والأندلس فى سبيل الزوال ، وأن علماءهما لم يلفوا أمامهم موطناً يعيشون فيه ويجدون مبتغاهم من الهدوء ونشر العلوم والافادة والاستفادة إلا القطرين لا سيما وقد عرف عنهما حب العلماء وإكبارهم ، وإن العلماء بدورهم قدرأوا إقفار البلاد من الكتب العربية، يقول السيوطى وهو من علماء هـذا العهـد (وقد ذهب جل الكتب فى الفتن الكائنة من التتار وغيرهم بحيث إن الكتب الموجودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا تجيء حمل جمل واحد)[١]، وربما كان فى هذا الكلام شيء من الغلو إلا أنه أيا ما كان دليل على إحساسهم بالنقص والخسارة، وواجب الدين فى أعناقهم يقضى عليهم بأحياء ما درس من علوم لغة الدين ، وبينهم بعض المشارقة الذين فروا من وجه المغول والجم الغفير من المغاربة الذين وردوا القطرين من عهد بعيـد فهبت حركة طيبة فى علومها وفى مقدمتها النحو . ومن الأنصاف أن نقول إن عماد هـذه الحركة التى كان فيها إمساك للحوباء إنما هم جالية الأندلس الذين سلف ذكرهم فانهم لما ألبّـوا بالقطرين واتخذوهما مقرالهم بثوا علمهم وأذاعوا مصنفاتهم فيهما بين الناس فتخرج عليهم تلاميذ كانوا كواكب العصور المتأخرة وصارت مصنفاتهم نبراساً لمن صنف بعدهم من العلماء ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن رحلاتهم إلى القطرين كانت بعيدة العهد وطالت أيامها فاختلطوا بالعلماء قبل حادثهم بزمن غير قريب ولا كذلك المشارقة الذين بغتوا بحادثهم ولجأوا إلى القطرين فأنهم وردوهما وقد تشبع العلماء من روح المغاربة، ومن هنا ندرك

---

(١) المزهر، النوع الاول ، المسالة السادسة عشرة بعد الكلام على جمهرة ابن دريد

السر فى تغلب المذهب الأندلسى
عند نحاة القطرين على البغدادى

من الحديث السالف الذى وقفت منه على تبكير المغاربة عن المشارقة فى النزوح إلى القطرين واستيطانهما ومعهم مؤلفاتهم وقد تكون لديهم مذهبهم تدرك أن مذهبهم سبق المذهب البغدادى إلى علماء القطرين، فأن علماءهما قد تتلمذوا لهم فتشبعوا بروحهم وتغلب المذهب الأندلسى عليهم فتغلغل فى الدراسة والتصنيف والرأى أخيراً، فألفية ابن مالك الأندلسى التى كثرت الشروح عليها وطاف المؤلفون فى القطرين حولها هى التى توزعت دراستها على مراحل التعليم باعتبار شروحها سهولة وصعوبة، واختصاراً واتساعا - وكذا (الكافية الشافية) له أيضاً، وقد راجت أقوال ابن مالك حتى عند المشارقة، فقد نقل الرضى عنه كثيراً فى شرحه (الكافية) لابن الحاجب، وبالجملة فان اتجاه النحاة بعدُ اقتفى المنهاج الأندلسى ومابرح إلى عصرنا الحاضر فى القطرين — ففى هذا العصر فاضت دراسة النحو فى أغلب مدن القطرين وبخاصة فى القاهرة ودمشق وحلب، وقد كانت الدراسة أول أمرها أشبه شىء بعلاج المريض الذى لم يبق فيه إلا الذماء ولكن اطرادها على طول الأيام محفوفة بالترغيب والتقدير قد أكسبها استعادة ما فقد النحو من الازدهار، فظهر فى البلدين جهابذة العُلام الذين حفظوا وجود هذا العلم بعد نكبتى المشرق والمغرب ونقلوه كاملا غير منقوص لمن بعدهم ممن حدثوا فى عصور الظلام، ونشطت حركة التأليف لتزايد الاقبال عليها، ومن مظاهر هذا النشاط أن توخى أغلب المؤلفين فى مؤلفاتهم المتعددة التدرج والتنويع فيها لاختلاف قدر

الطالبين من مبتدىء وشاد ومنته، فجمعوا فيها بين وجيز ووسيط وبسيط. حباً فى تعميم النفع كما صنع ابن مالك وابن هشام والسيوطي ، نعم إن التأليف على عمومه في خلال هذا العهد قد طرأ عليه اتجاه جديد ، وذلك أن معظم المؤلفات السابقة كانت زعيمة بالأبانة عن نفسها بنفسها لا تترقب تفسيراً ولا توضيحاً مع النزوع إلى الوجهة النحوية ، يستوى فى هذا مطولها ومختصرها إذ لم يقصد واضعو المختصرات سابقاً إلا مجرد التسهيل على المبتدىء بذكر جزئيات من مسائل العلم تؤنسه إذا جدفيه، فساوت عباراتها فى التأدية ما فيها من المعانى ، وممن ألف مختصراً على هذا النهج قديماً الزجاجى فى (الجمل الكبيرة) وعبد القاهر الجرجانى فى (جمله) أيضاً

أما فى هذا العهد فقد طفق المؤلفون ينشئون المتون مع استيعابها لما فى المطولات ويفتنون فى سبيل إيجازها ما وسعته قدرتهم ، ومن هنا مست الحاجة إلى الشروح وربما جللت بالحواشى ، وأقرب الأمثلة لهذا شروح كافية ابن الحاجب وألفية ابن مالك وكافيته ومغنى ابن هشام وتوضيحه وبعض حواشيها . وهذه المؤلفات التى كانت غزيرة المادة العلمية من الجهة النحوية لم يعبها إلا ماشابها في الشروح والحواشى من كثرة بيان اللهجات العربية لكثير من الكلمات مما يمت إلى فقه اللغة بسبب وثيق، ومن التعليل والتوجيه لمتضارب الآراء النحوية مما لا يعود بطائل على النحو ، ومن محاولة أخذ القاعدة النحوية من مادة الكتاب المعلق عليه وكثيراً ما يكون فى العبارة قصور في الدلالة .لكن هذه الهنات لم تذهب بمحاسن هذه المصنفات ، وجلها ما يزال إلى يومنا معتاد طلاب النحو ومطمح أنظارهم ، ويظهر أن الحامل لهم على الأكثار من المتون حبهم

في سرعة تلافى ما ضاع من كتب النحو ، والمتون كفيلة بجمع ما كثر من القواعد فى موجز الكلام فلكى يسهلوا على الراغبين جمع شتات هذا الفن في قبضة اليد صنفوها كعلاج بدا لهم ، فلم يكن بعد هذا بد من شروح تكشف قناع هذه المخدرات المكنونة ، وبالتالى قد تقتضى الشروح تفصيلا لما أجمل فيها فكانت بعض الحواشى - فما أجدر عهد المماليك بتسميته عهد المتون والشروح ، وستبين لك عند تراجم علمائه أن معظم مؤلفاتهم متون وشروح ، فقلما ترى حاشية لمؤلف منهم - كل ذلك والأقطار الاسلامية الأخرى منصرفة عن هذا العلم وغيره ترزح تحت نير الظلم من ملوك لا تحنو على اللغة وعلومها ولا تربطها بها أسباب ، فان المطالع لصفحات تاريخ النحويين لهذا العهد لا تكاد تقع عيناه عليهم إلا متوطنين بالقطرين إما نازحين إليهما أو مولودين بهما ، فما لا مرية فيه أنه لولا القطران فى هذا الأمد لانقطعت الصلة بين النحو قديمه وحديثه ، ولكان له نظام آخر ، تلك هى حالة هذا العلم ورجاله - وهاك بعض مشاهيرهم مع الترتيب الزمنى فى وفياتهم

١ - ابن الناظم : محمد بدر الدين بن محمد ولد بدمشق فأخذ عن أبيه ونشأ حاد الذهن إلا أنه غلبت عليه معاشرة الشذاذ فأقصاه أبوه فأقام ببعلبك وانتفع الناس بعلمه ، وكانت له مشاركة فى علوم كثيرة ، ومن مؤلفاته النحوية شرحه على (ألفية) والده ، وقد تعقبه كثيراً دون هوادة، انظر باب المفعول المطلق والتنازع والصفة المشبهة وربما حمله التعقب الى الاتيان ببيت منه بدل آخر ، ففى باب التنازع رأى أن قول أبيه

بل حذفه الزم إن يكن غير خبر وأخرنه إن يكن هو الخبر

يفيد أن ضمير المتنازع فيه إن كان المفعول الأول فى باب ظن يجب حذفه مع أنه لافرق بين المفعولين فاستصوب أن يقول بدله

واحذفه إن لم يك مفعول حسب   وإن يكن ذاك فأخره تصب

والشارح فى الواقع مغلق ولهذا كثرت الحواشى عليه ، فكتب عليه ابن جماعة والعينى والسيوطى وزكريا الأنصارى وابن قاسم العبادى وغيرهم . ومنها شرحه على (كافيته) أيضاً ، ولما توفى أبوه استدعى إلى دمشق فولى وظيفة أبيه ومات بمرض القولنج شابا بدمشق سنة ٦٨٦ هـ [١]

٢ ـ ابن النحاس : هو أبو عبدالله محمد بهاء الدين بن ابراهيم الحلبى أخذ عن ابن يعيش وابن مالك وغيرهما ودخل مصر وتلقى عن مشايخها ثم صار إمام المصريين فى العربية ودرس بالجامع الطولونى ـ وفى فوات الوفيات ترجمة (محمد بن رضوان) من شعره إلى الشيخ بهاء الدين

سلم على المولى البهاء وصف له   شوقى اليه وأننى مملوكه
أبدا يحركنى اليه تشوق   جسمى به مشطوره منهوكه
لكن نحلت لبعده فكأننى   ألف وليس بممكن تحريكه

ولم يصنف إلا ما أملاه على (المقرب) لابن عصفور توفي بمصر سنه ٦٩٨ هـ [٢]

٣ ـ المرادى : هو الحسن بن قاسم المصرى ، أخذ عن أبى حيان وغيره ، وصنف وتفنن وأجاد ، فمن مصنفاته شرح المفصل ، وشرح التسهيل ، والجنى الدانى فى حروف المعانى ، وشرح الألفية ـ ومؤلفات المرادى مصادر لدى النحاة وثيقة ، فالدمامينى عول فى شرح التسهيل على شرحه ،

---

(١) ترجمته فى الوافى بالوفيات ، وبغية الوعاء ، وشذرات الذهب

(٢) ترجمته فى بغية الوعاة ، وفوات الوفيات ، وشذرات الذهب

والأشمونى نقل فى شرح (الألفية) كثيراً عن شرحه ، وقالوا إن ابن هشام استفاد فى (المغنى) من الجنى الدانى - توفى بالقاهرة سنة ٧٤٩ هـ [١]

٤ ابن هشام : هو أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصارى ، ولد بالقاهرة ولزم عبد اللطيف بن المرحل وسمع على أبى حيان ديوان زهير وحضر دروس التاج التبريزى ، ثم فاق أقرانه بل شيوخه وتخرج على يده الكثير - صنف المؤلفات المليئة بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة مع التصرف فى منهجها والتنويع فى إفادتها مما يدل على الاطلاع الغريب - فمنها شذور الذهب فى معرفة كلام العرب وشرحه ، وقطر الندى وبل الصدى وشرحه ، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، وشرح التسهيل لابن مالك ، والجامع الكبير ، والجامع الصغير ، والأعراب عن قواعد الاعراب ، ومغنى اللبيب عن كتب الأعاريب - وكتاب المغنى قد أتى فيه بالعجب العجاب وابتكر فيه أسلوبا جديداً فى عالم التأليف النحوى فطارت شهرته إلى المغرب يقول ابن خلدون (ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها إلى أن قال فأتى من ذلك بشىء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه والله يزيد فى الخلق ما يشاء) [٢]

إن ابن هشام نسيج وحده ، فما من كتاب له إلا وفيه شاهد على علو كعبه ، ولنتبين ذلك فأمامك التوضيح والمغنى - ففى التوضيح خطأ

---

(١) ترجمته فى البغية ، وحسن المحاضرة (أئمة النحو واللغة) ، والدرر ، والشذرات

(٢) المقدمة الفصل السادس علوم اللسان علم النحو ، ومن اعجاب ابن خلدون ذكر مثل ذلك قبلا فى المقدمة فصل (فى أن كثرة التآليف فى العلوم عائقة عن التحصيل)

ابن مالك في مسائل كثيرة ، وسأقتصر على قليل منها خوف التطويل ، ففى أول باب التمييز عقب عليه فى قوله:

اسم بمعنى من مبين نكره   ينصب تمييزاً بما قد فسره

بأن تمييز النسبة ناصبه المسند لا النسبة ، وفى باب الاضافة عقب عليه فى قوله:

قبل كغير بعد حسب أول   ودون والجهات أيضا وعل

بأن (حسب) لا تعرب نصباً إذا نكرت وأن (عل) لا تضاف ولا تنصب على الظرفية أو غيرها ، وفى باب الوقف عقب عليه فى قوله :

وليس حتما فى سوى ما كع أو   كيع مجزوما فراع ما رعوا

بأن المضارع المجزوم الباقى على حرفين لا تجب فيه هاء السكت بدليل إجماع المسلمين فى الوقف على (ولم أك) بترك الهاء - وفى المغنى وازن كثيرا بين المذاهب النحوية وإن كان صغوه مع البصريين

فما اختار من مذهب الكوفيين

١ - إنكارهم وجود أن المفسرة قال (وعن الكوفيين انكار أن التفسيرية البتة وهو متجه عندى الخ)[1]

٢ - ورود أن شرطية قال (وإليه ذهب الكوفيون ويرجحه عندى أمور الخ)[2]

٣ - إعراب فعل الأمر بالجزم بلام الأمر المقدرة لأنه مقتطع من المضارع المجزوم بها قال (فحذفت اللام للتخفيف وتبعها حرف المضارعة وبقولهم أقول لأن الأمر معنى الخ)[3]

٤ - عدم وجوب أن تكون أم المنقطعة بمعنى بل والهمزة جميعاً قال

---

(١) الباب الأول «أن»   (٢) المبحث الماضى .   (٣) الباب الأول «اللام»

(والذى يظهر لى قولهم إذ المعني فى نحو أم جعلوا لله شركاء ليس على الاستفهام إلخ)[1]

ولعلك غير ناس رده فى المغنى على الزمخشرى وابن مالك فهمهما عبارة سيبويه فى غلط العرب المذكورة سابقا فى أواخر أسباب اختلاف البصريين والكوفيين .

كنت أود أن أذكر تعريفا خاصا بكتاب (المغنى) أعرض فيه سبب التأليف له واتجاهه فيه ونقده للنحاة واتجاهه منحى قويا فى الاستشهاد بالقرآن الكريم ومآخذه على العلماء فى أعاريب مشهورة وما إلى أولئك من مزايا أخرى ، لكن لا يتسع هذا الكتاب لكل ما نود ، وما يجدى التعريف إلا بسفر خاص به - غير أنه مما لا ينبغى التساهل فيه أن أنبه على أن المغنى قد تبارى العلماء فى التعليق عليه مذ ظهر فشرحه ابن الصائغ إلى أثناء لباء الموحدة وسمى شرحه (تنزيه السلف عن تمويه الخلف) ، والدماميني بعد أن علق عليه فى الديار المصرية ونزح إلى الهند شرحه بتوسع وسمى شرحه (تحفة الغريب بشرح مغنى اللبيب) وفى هذا الشرح اعتراضات على المغني كثيرة تعقبها الشمنى فى حاشيته عليه المسماة (المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام) ، وللسيوطى حاشية على المغنى وصل فيها إلى (حتى) وللأمير حاشية تامة ، وللدسوقى أيضا ، وللأبيارى سماها (القصر المبنى على حواشى المغنى) وصل فيها إلى أول الباب الثانى ، توفى ابن هشام بالقاهرة ودفن خارج باب النصر سنة ٧٦١ هـ[2]

---

(١) الباب الأول « أم »

(٢) ترجمته فى الدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر الطالع

٥ — ابن عقيل : هو أبو عبد الرحمن عبد الله بهاء الدين بن عبد الرحمن ، الحلبي أصلا ، تلقى عن الجلال القزويني وأبي حيان وغيرهما ، واشتهر في العربية حتى تبوأ منزلة مشايخه ودرس بالقطبية والخشبية والجامع الناصري بالقلعة ، والجامع الطولوني ، وولي القضاء الأكبر لشهرته بالتدين إلا أنه كان غير محمود التصرفات المالية على نفسه ، ومن مؤلفاته النحوية شرحه على التسهيل المسمى (المساعد على تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد) ، وشرحه على الألفية ، وهاك كلمة عن هذا الشرح

شرحه على الألفيه

يمتاز هذا الشرح بالسهولة فلا يحتاج الطالب الشادى إلى تفهيمه من موقف وليس من المبالغة أن يقال إن هذا الشرح هو الذى أرشد المتعلمين إلى معرفة المراد من الألفية تماما ، فإن عنايته متجهة إلى إيضاحها وتبيان المقصود منها وهو شرح حسن متوسط في النصف الأول ومختصر في النصف الثاني وتتجلى فيه موائمة ابن عقيل للناظم ، ولهذا دافع هجوم ابنه عليه في شرحه كثيراً فيقول مثلا في باب المفعول المطلق (وقول ابن المصنف إن قوله وحذف . . ليس بصحيح) وقد اهتم العلماء بهذا الشرح وكتبوا عليها الحواشي فمنها حاشية (إرشاد النبيل إلى ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل) لابن الميت ، وحاشية لعطية الأجهوري ، وحاشية للسجاعي ، وحاشية للخضري ، توفي ابن عقيل ودفن بالقرب من الامام الشافعي سنة ٧٦٩ هـ[1]

٦ — ابن الصائغ : محمد شمس الدين بن عبد الرحمن ، أخذ عن ابن المرحل

(١) ترجمته في الوافي ، والدرر ، والبغية ، وحسن المحاضرة ، والشذرات ، والبدر

ولازم أبا حيان فمهر فى العربية مع النشاط وحدة الذكاء ودماثة الأخلاق، فسرعان ماتبوأ المناصب العليا، فولى قضاء العسكر وإفتاء دار العدل، ودرس بالجامع الطولونى، وصنف وأبدع فمن مؤلفاته النحوية شرح الألفية، والتذكرة عدة مجلدات، والمرقاة فى إعراب لا إله إلا الله، وحاشية على المغنى سلفت الاشارة اليها، والوضع الباهر فى رفع أفعل الظاهر وهذا الكتاب مذكور برمته في الفن السابع من الاشباه والنظائر في الجزء الرابع توفى بالقاهرة سنة ٧٧٦ هـ [1]

٧ – ناظر الجيش: هو محمد محب الدين بن يوسف، ولد بحلب واشتغل بها ثم قدم إلى القاهرة ولازم أبا حيان وغيره، ومهر فى العربية وولى نظر الجيش وغيره، فكان المثل الاعلى فى الكياسة والجود والتدين، ومن مؤلفاته النحوية شرح التسهيل لابن مالك سماه (تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد)، توفى بالقاهرة سنة ٧٧٨ هـ [2]

٨ – ابن جماعة: هو محمد عز الدين بن أبى بكر بن عبد العزيز، ولد بينبع، أخذ عن ناظر الجيش والسيرامى وغيرهما ثم صار المشار اليه فى الديار المصرية فى فنون شتى، ولم يتزوج وكان فيه ميل إلى السهولة والمزاح، وجاوزت مؤلفاته الألاف، منها فى النحو حاشية على شرح ابن الناظم تسمى (المسعف والمعين فى شرح ابن المصنف بدر لدين)، وحاشية على المغنى، وحاشية على شرح التوضيح، توفى سنة ٨١٩ هـ [3]

---

(١) ترجمته فى الوفيات، والدرر، والبغية، وحسن المحاضرة، الفقهاء الحنفية، والشذرات

(٢) ترجمته في الدرر الكامنة، وبغية الوعاه، وحسن المحاضرة، وشذرات الذهب

(٣) ترجمة فى الدرر، الضوء اللامع، البغية، حسن المحاضرة، الشذرات، البدر

٩ - الدماميني : محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر المخزومي أصله من دمامين (قرية قريبة من الأقصر) ولد بالأسكندرية وتعلم بها ثم هبط مصر وارتفع قدره فيها فالتف حوله الطلاب بالأزهر ثم اشتغل بالدنيا ولما نكب بالحريق هرب من الغرماء إلى الصعيد فاستقدموه مرغما وبعد صلاح حاله غادر لديار المصرية فدرس في جامع زبيد باليمن وترك اليمن متجها إلى الهند وهناك صعد نجمه وأقبلت الدنيا عليه فتفرغ للتعليم والتصنيف فمن مؤلفاته النحوية : شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك الذي أسماه (تعليق الفرائد على تسهيل الفوائد) عول فيه كثيراً على شرح المرادي للتسهيل ، وقد ألفه تلبية لطلب السلطان أحمد شاه ، وفي مستهل الشرح بعد الاهداء كلمة جيدة عن ابن مالك ومؤلفاته ، وله تعليق على المغني كتبه بالديار المصرية ، وشرح مزيج على المغني ألفه بالديار الهندية ، سماه (تحفة الغريب في الكلام على مغني اللبيب) إجابة لرغبة السلطان محمد شاه ، وفي هذا الشرح جلى عن غزارة مادة وعبقرية فذة ، بيد أنه أسرف في تعقبه لابن هشام مما حمل الشمني على محاولة الرد عليه دائما في حاشيته المسماة (المنصف من الكلام على مغني ابن هشام) ففي التسمية مايغني عن البيان ، والحقيقة أن الدماميني في بعض الأحايين يكون متوخياً لأصابة الحق في اعتراضه ، فمن هذا على نمط التمثيل تخريج ابن هشام في مبحث (كل) قول الفرزدق

وكل رفيقي كل رحل وإن هما   تعاطى القنا قوما هما أخوان

بناء على ظنه تنوين (قوما) إذ قال (وهذا البيت من المشكلات لفظا وإعرابا ومعنى) فأبان الدماميني أن (قوما) مثنى وطاح كلام ابن هشام

من أساسه - كان الدماميني رحمه الله أديباً جيد النظم فترى طلاوة أدبه فى ألغازه النحوية المشهورة التى يستهلها بخطاب علماء الهند ، فمنها إلغازه فى مفرد جمع المذكر السالم فقد اشترطوا علميته ومع هذا فلا يجمع إلا مقصوداً تنكيره فيقول

أيا علماء الهنـــد لا زال فضلكم مدى الدهر يبدو فى منازل سعده
ألم بكم شخص غريب لتحسنوا بإرشاده عند السؤال لقصده
وها هو يبدى ما تعسر فهمه عليه لتهدوه إلى سبل رشده
فيسأل ما أمر شرطتم وجوده لحكم فلم ترض النحاة برده
فلما رأيتم ذلك الأمر حاصـــلا أبيتم ثبوت الحكم إلا بفقده
وهذا لعمرى فى الغرابة غاية فهل من جواب تنعمون برده

وقد أجاب بعض الفضلاء عليه بشعر من بحر وروى السؤال ، كما فى حاشية العطار على الأزهرية مبحث جمع المذكر السالم - ومنها إلغازه فى جر الفاعل وقد ذكره فى (تحفة الغريب بشرح مغنى اللبيب) عند الكلام على الجملة الرابعة المضاف إليها من الجمل السبعة التى لها محل من الاعراب فى (الباب الثانى) ، وذلك أن ابن جنى فى الجزء الأول من الخصائص (باب فى الفرق بين تقدير الاعراب وتفسير المعنى) للمناسبة قال فى بيت طرفة

بجفان تعترى نادينا من سديف حين هاج الصِّنَّبِرْ

(يريد الصنّبْر فاحتاج للقافية إلى تحريك الباء .. وكان يجب على هذا أن يضم الباء فيقول الصنبر لأن الراء مضمومة إلا أنه تصور معنى إضافة الظرف إلى الفعل فصار إلى أنه كأنه قال حين هيْج الصنبرِ فلما احتاج إلى حركة الباء

تصور معنى الجر فكسر الباء وكأنه قد نقل الكسرة عن الراء إليها إلخ)
فقال الدماميني على هذا التقدير ملغزاً

أيا علماء الهند إني سائل فمنوا بتحقيق به يظهر السر
أرى فاعلا بالفعل أعرب لفظه بجر ولا حرف يكون به الجر
ولبس بمحكي ولا بمجاور لذي الخفض والانسان للبحث يضطر
فهل من جواب عندكم استفيده فمن بحركم مازال يستخرج الدر

وأجاب عن هذا اللغز نظما أيضاً من البحر والروى السجاعى فانظره فى ترجمته فى الجبرتى .

قال الشمنى تعليقاً على الدماميني : قد سبقه إلى الالغاز بهذا فرج ابن قاسم الأندلسى فى منظومته النونية فى الألغاز النحوية — وهذا مبنى على القطع بسكون الباء فى الصنبر لكن في الصحاح ورودها بالكسر أيضاً فلا إلغاز وقد نقل ذلك كله تفصيلا البغدادى فى الخزانة مكرراً فى شاهدى ٦٠٧ و ٧٥٩ ، بل على السكون قد يكون الكسر للتخلص لا للنقل فلا إلغاز أيضاً كما قال الخضرى على ابن عقيل أول باب الفاعل ، توفى الدماميني بالهند فى كلبرجا سنة ٨٢٧هـ (١)

١٠ — الشمنى : أبو العباس أحمد تقى الدين بن محمد بن محمد المشهور بالشُمُنى (نسبة إلى مزرعة ببلاد المغرب) ولد بالاسكندرية وقدم مع أبيه القاهرة فتلقى النحو عن الشطنوفى وبقية الفنون عن أساتذتها ثم صار واحد العصر فى سائر الفنون ، وتزاحم الناس فى الأخذ عنه إذ كانت التلمذة له مفخرة ، وولى المشيخة والخطابة بقايتباى ، وطلب

(١) ترجمته فى البغية ، وحسن المحاضره ، والضوء ، والشذرات ، والبدر الطالع

للقضاء فأبى — وله فى النحو حاشية على المغنى وشرح الدمامينى سماها (المنصف من الكلام على مغنى ابن هشام) وسبقت الاشارة إليها، وقد وهبها الله القبول فحرص الناس على قراءتها، غير أنها فى الحقيقة ليست من الحواشى الضافية التى أسبغت ثوبا جديداً على ماتعلق عليه فليس من المبالغة قول الشوكانى عليها فى أثناء الكلام على ترجمة الشمنى في البدر الطالع (وقد رأيت حاشية على المغنى وحضرت عند قراءة الطلبة على فى الأصل فما وجدتها ممايرغب فيه لابكثرة فوائده ولا بتوضيح خفى ولا بمباحثه مع المصنف بل غايتها نقول من كلام الدمامينى وانى لأعجب من تنافس الناس فى مثلها). توفى رحمه الله بالقاهرة سنة ٨٧٢ هـ [١]

١١ — خالد الأزهرى: هو خالد زين الدين بن عبدالله ولد بجرجا (فى الصعيد) وتحول وهو طفل مع أبيه إلى القاهرة ثم حفظ القرآن وخدم فى الأزهر وقادا فسقطت منه يوما فتيله على كراس أحد الطلبة فشتمه وعيره بالجهل فعز عليه شتمه واشتغل بالعلم بعد أن جاوز العقد الثالث وقرأ فى العربية على يعيش المغربى والسنهورى، وأخذ قليلا عن الشمنى والمناوى وغيرهما، وقد بورك له فى عمله فصنف مؤلفات انتفع بها لاخلاصه منها فى النحو (التصريح بمضمون التوضيح) والأزهرية وشرحها؛ وشرح الاجرومية، وشرح قواعد الاعراب لابن هشام، وإعراب الالفية، توفى عائداً من الحج ببركة الحاج خارج القاهرة سنة ٩٠٥ هـ [٢]

١٢ — السيوطى: أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين ابن أبى بكر

(١) ترجمته في البغية، حسن المحاضرة (الفقهاء الحنفية) الضوء، الشذرات، البدر

(٢) ترجمته في شذرات الذهب، والضوء اللامع

نشأ يتيما وكان ذكيا حُفَظة فتلقف مشايخ العصر فى كل فن وأخص مشايخه فى النحو الشمنى والسيرامى والكافيجى ونفر فى سبيل العلم الى الشام والحجاز واليمن والهند ، فأعطاه ربه ما أرضاه وصنف مؤلفات فى متنوع العلوم تربو على الثلثمائة فسبحان الوهاب ، ومن أشهرها فى النحو الأشباه والنظائر ، وجمع الجوامع وشرحه همع الهوامع ، والاقتراح فى أصول النحو ومن مؤلفاته الممتعة (المزهر) فى علوم اللغة وأنواعها و (بغية الوعاه) فى طبقات اللغويين والنحاه ، وهذه الكتب من المراجع القيمة التى لجأنا إليها فى هذا الكتاب ، وبعد فلا أستطيع فى هذه الكلمة الموجزة إيفاء المترجم حقه وقد ترجم لنفسه فى الجزء الأول من كتابه (حسن المحاضره فى تاريخ مصر والقاهره) فارجع إليه تر العجب العجاب توفي بالقاهرة سنة ٩١١هـ[1]

١٣ ـ الأشمونى : هو أبو الحسن على نور الدين بن محمد بن عيسى الأشمونى أصلا ولد بقناطر السباع وتوطن القاهرة مكبا على العلم مع التقشف فى مأكله وملبسه ومفرشه لاهم له إلا العلم والطاعة ، أخذ عن الجلال المحلى والكافيجى والتقى الحصنى وغيرهم ، ومن أشهر مؤلفاته النحوية شرحه على الألفية المسمى (منهج السالك إلى ألفية ابن مالك)

تعريف بشرح الأشمونى

فى الحق أنه أغزر شروح الألفية مادة على كثرتها واختلاف مشاربها بل إنه من أوفى كتب النحو جمعا لمذاهب النحاة وتعليلاتهم وشواهدهم على نمط البسط والتفصيل ، ولا غرابة أن يجمع فى شرحه ماجمع ، فأمامه من شروح الألفية شرح ابن الناظم والمرادى وابن عقيل

---

(١) ترجمته مسهبة أيضا فى البدر الطالع ، والضوء اللامع ، وشذرات الذهب

والتوضيح وغيرها، ومن شروح الكافية شرح الناظم وغيره؛ ومن شروح التسهيل المرادى وغيره، وأمامه المغنى، وهذا كله عدا كتب السابقين، فما عليه وقد رام أن يكون شرحه موسوعة إلا أن يضم كل شيء إلى نظيره ويضعه فى موطنه، وإذا أنعم الناظر فى شرح الأشمونى وكانت الاصول السالفة بين يديه فانه يسهل عليه أن يرجع المقال إلى مصدره، وقد يحسن الأشمونى فى بعض الاحيان فينسب القول إلى قائله فيصرح بالمغنى فى باب المعرب والمبنى عند قول الناظم (وفعل أمر ومضى بنيا)، وبالتوضيح فى باب النكرة والمعرفة عند قول الناظم (كافعل أوافق نغتبط إذ تشكر) وفى الابتداء بعد قول الناظم (وأخبروا باثنين أوبأ كثرا إلخ) وبالمرادى فى التنازع عند قول الناظم (وأخرنه أن يكن هو الخبر)، وكثيراً مايصرح بلفظ الشارح يقصد ابن الناظم، ولكن ذلك كله من الاشمونى قليل جدا بالنسبة لاغفاله النسبة الى صاحب الكلام، فاذا قرأت المباحث فيه المتعلقة بالادوات فى باب (عطف النسق) مثلا أو (النواصب) أو (الجوازم) أو (لو) أو (أما ولولا ولوما) أو (كم وكأين وكذا) وأمثال هذا فانك واجده قد نقل كلام المغنى مع قليل من التغيير إما بنقص لايلمح أو زيد لايذكر أو تقديم أو تأخير ربما أذهب شيئا من المطلوب زيادة على أنه ربما دعا الكاتبين عليه إلى تنكب الجادة، ولتهافته على تسطير ماحوته الكتب السابقة : فقد كتب بعض المعلومات فى موطن غيره أنسب بالكتابة فيه وحمله هذا الصنيع الى تكرارها ثانيا وثالثا، والحيلة فى التخلص عنده لجوءه الى (التنبيه) مفرداً ومثنى وجمعاً، ولو اتسقت هذه التنبيهات

فى الترتيب على المعنى المقصود من البيت المشروح لحسنت وضعاً وكانت الثمرة منها أشهى - ولا يتسع هذا الكتاب لضرب أمثلة لكل هذا - تلك حالة هذا الشرح من الناحيتين العلمية والتأليفية - بقى علينا إيفاء للمطلوب أن نكتب كلمة عن شواهده لأهميتها لدى المستفيد من الشرح

شواهده

سلك الاشمونى فى شواهده مهيع السابقين عليه الذين دونوها فى مصنفاتهم : سواء فى ذلك الشعر والنثر ، وسواء فى النثر القرآن الكريم والحديث الشريف وكلام العرب (مثلا أو غير مثل)

أما الشواهد النثرية فمحشودة في الشرح فلسنا فى حاجة إلى عرض شىء منها لأن النثر متفق على الاستشهاد به فى غير الحديث أما فيه فتابع لابن مالك المجيز له على ما سبق فى ترجمته - وأما الشعر فكثير أيضاً ومقلد فيه من أخذه منهم ، وقد ساعده تأخره الزمنى على جمع مقدار كبير من مختلف المؤلفات قبله ، فمما يمتاز به هذا الشرح زيادة الشواهد فيه عن المصنفات النحوية زيادة يؤود الطالب حفظها والاحاطة بما تستوجبه المعرفة بها من قائليها ومن قصائدها ومما قيلت فيه وغير هذا من مقتضيات الوقوف على جلية الحال فى الشعر ، وإن المتتبع لهذه الشواهد يعلم أنها للشعراء المعتد بهم إلا قليلا غير أن قليلا من الشعر المعتد به قد ناله التحريف أو التصحيف ، لهذا ناسب أن أذكر الأمرين : الشعر المحدث والشعر القديم الطارىء عليه التغيير

من شواهد الشعراء المحدثين

ذكرت في الشواهد بعض أبيات للشعراء المحدثين الذين لا يعتد بهم

النحاة، فمن أمثلة ذلك استشهاده في الابتداء بقول أبي نواس

غير مأسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن

وبقول أبى العلاء المعرى

يذيب الرعب منه كل عضب فلولا الغمد يمسكه لسالا

واستشهاده فى باب إعراب الفعل بقول الشريف المرتضى

أتبيت ريان الجفون من الكرى وأبيتَ منك بليلة الملسوع

من الشواهد المحرفة أو المصحفة

كثر ما وقع فى شواهده الشعرية من تصحيف أو تحريف، ولا يجمل بى أن أعرض كل ماعثرت عليه من تلك الشواهد فانه يقتضى مع التفصيل رسالة خاصة، فسأجتزى بذكر بعض الشواهد، وإن ذلك التغيير العارض على الشواهد قد يجر عليها عدم صحة الاستشهاد بها فى الحقيقة، وقد لا يستدعى ضرراً فى ناحية الاستشهاد بها، وهاك أمثلة للنوعين

مما لم يجن التغيير الطارىء فيه على الشاهد

١ ـ استشهاده فى باب أبنية المصادر بعد قول الناظم (وغير ما مر السماع عادله) على ورود المصدر بزنة اسم المفعول كمعقول فى قول الشاعر

لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

وصحة البيت هكذا

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

فأنه من قصيدة للراعى النميرى مذكورة فى جمهرة أشعار العرب (الملحمات) فالتغيير طمس وزن البيت فقط ولم يستتبع ضرراً فى موطن الشاهد

٢ ـ استشهاده فى باب عطف النسق بعد قول الناظم (وحذف متبوع

بداهنا استبح) على تقدم المعطوف على المعطوف عليه بقول ذى الرمة

كأنا على أولاد أحقب لاحها ورمىُ السفى أنفاسها بسهامِ
جنوب ذوت عنها التناهى وأنزلت بها يوم رباب السفير خيام

وصحة البيت الثانى كما فى سيبويه ج ١ ص ٢١٦ هكذا

جنوب ذوت عنها التناهى وأنزلت بها يوم ذباب السبيب صيامِ

فالتغيير جر إلى الأقواء والأبعاد عن مرمى الشاعر فقط

٣ ـ استشهاده فى إعراب الفعل بعد قول الناظم (وبلن انصبه) على ورود (لن) للدعاء بقول الأعشى

لن تزالوا كذلكم ثم لا زلـ تُ لكم خالدا خلود الجبال

وصحة البيت هكذا

لن يزالوا كذلكم ثم لا زا تَ لهم خالدا خلود الجبال

فأنه من معلقة الأعشى فى جمهرة أشعار العرب

﴿ ماجنى التغيير فيه على موطن الشاهد ﴾

١ ـ استشهاده فى أول باب (نعم وبئس) للكوفيين على اسميتهما بقول الشاعر

صبحك الله بخير باكر بنعْم طير وشباب فاخر

وصحة الشطر الثانى (بنُعْم عَين إلخ) كما فى لسان العرب ، وشرح القاموس ، وعلى هذا ضاع الاستشهاد بالبيت

٢ ـ استشهاده فى إعراب الفعل بعد قول الناظم (وبلن انصبه إلخ) على أن المضارع نصب شذوذا بأن الواقعة بعد العلم بقول جرير

نرضى عن الله إن الناس قد علموا ألا يدانيَنا من خلقه بشر

والرواية (ألا يفاخرُنا) برفع المضارع والبيت موزون فطاش الاستشهاد للنصب

٣ ـ استشهاده (فى إعراب الفعل) أيضاً بعد قول الناظم (وبعد غير النفى جزما اعتمد إلخ) على مجىء المضارع مرفوعا بعد الأمر بقول الأخطل

كُرُّوا إلى حرتيكم تعمرونهما كما تكر إلى أوطانها البقر

والاستشهاد بالبيت مبنى على فعل الأمر أول البيت والحقيقة أنه فعل ماض فانعدم الاستدلال بالبيت ، وتقدم فى الحديث على أبيات سيبويه التى خطأوا فيها روايته مايتعلق بهذا البيت تفصيلا لأن سيبويه أول من استدل به ـ وكنت أحب أن أبسط القول فى تحليل هذا الشرح لأنه الكتاب المقرر على الطلاب ، وعسى أن تسنح فرصة أكتب فيها تعريفا خاصا به أتناول فيه عناصره تفصيلا ليكون مرشدا لمن يقرأه عما فيه ، وقد رزق هذا الشرح القبول بين العلماء فعلق عليه كثيرون فمن حواشيه حاشية المدابغى وحاشية الأسقاطى وحاشية الحفنى وحاشية الصبان ، وسأفرد حاشية الصبان بنبذة خاصة فى ترجمته توفى الأشمونى سنة ٩٢٩ هـ [١]

النحو والنحاة فى عصر الترك

حان حين دولة المماليك فقضت عليها دولة بنى عثمان على يد السلطان سليم الذى فتح بلاد القطرين عنوة بعد قتل السلطان (قانصوه الغورى) فدخل القاهرة عاصمة القطرين سنة ٩٢٣ هـ ، وجد فى طلب (طومان باى) آخر المماليك ثم صلبه عند (بوابة زويلة) فتم القضاء على المماليك ، وأسر الخليفة العباسى (المتوكل على الله) الذى ما انفك سجينا فى الآستانة حتى تنازل عن الخلافة للسلطان سليمان القانونى بعد توليه ، وبذلك انتهى عصر المماليك وبدأ العصر التركى فى القطرين فانتقلت الخلافة من العباسيين

---

(١) ترجمته فى الضوء اللامع ، وشذرات الذهب ، والبدر الطالع

إلى العثمانيين ومن القاهرة إلى (الآستانة) عاصمة المملكة التركية ؛ فاندمج القطران فى البلاد التابعة للترك وامحى استقلالهما واضطرب حبل الهدوء والأمن فيهما وانتكث فتلها المبرم ثلاثة قرون ، فلا استقلال ولا خلافة ولا استقرار نظام ؛ وتفشت فيهما أوبئة الضعف فى كل النواحى . وكان من هـذا أن فرضت اللغة التركية على البلاد فركدت ريح هـذا العلم وانحط شأنه بين الناس ، فقـل نتاج العلماء فيه وكان أغلب مؤلفاتهم تلخيص مطولات أو حواشى على الشروح ، فلو تقريت مؤلفات النحاة فى القطرين لم تقع عيناك إلا على الحواشى المترادفة على الشروح ، وناهيك بحواشى شروح (متون ابن مالك) وحواشى شروح (متون ابن هشام)

وقد امتدت تلك الخطة إلى المشرق ؛ فتوالت الحواشى على شروح (كافية ابن الحاجب) ولاسيما (الفوائد الضيائية للجامى) فقد جاوز الأمر فيها حده فكتبت على حواشيها حواش أخرى - وإن التثبت أمامك في كشف الظنون والفهارس العامة فستقف منه على مالا يدور بخلدك من كثرة الحواشى كثرة تفضى إلى الاستغراب والدهش - وسترى عين اليقين الدليل ماثلا فى يديك عند سرد علماء هذا العصر مع ذكر مؤلفاتهم فأنك واجد أنها حواش على شروح السابقين — وهذه الحواشى على البسط فيها مشوبة بالنقول المضطربة المتخالفة ولعل ذلك منشؤه عدم السهولة فى الوصول للمراجع المسند إليها النقول ، ومليئة بالاعتراضات والردود عليها ثم الردود على الردود - هذا كله مع كثرة التعقيد والالتواء فى العبارات والتهافت عليها دون الغرض الحقيقى من النحو ، ومع كثرة حشوها بالمصطلحات الأخرى من الفنون عربية وعقلية

ومع التعلق بالاستطراد لأوهى الأسباب وعدم ملاحظة من وضع لمستواهم الكتاب . ففى حواشى كتب المبتدئين كالكفراوى والأزهرية والقطر من المسائل مالا يهضمها إلا من قد تزود من هذا العلم ، وقد ترتب على هذا أن نفر بعض الطلبة الذين لم يتحلوا بفضيلة الجلد والصبر حين صدموا فى مطلع حياتهم العلمية بهذه الكتب وعيوا بأمرها وانطمست عليهم مسالكها ، لكنه حرص العلماء على صالح العلم دون انتباه إلى ماسواه ،

والخلاصة أن النهضة التأليفية فى هذا العهد الغاشم إن صح لنا اعتبارها كانت فى الحواشى ، ولم تمنع هذه الحال العامة في التصنيف أن يظهر بين الفينة والفينة بعض أفراد لاتنطبق عليهم أحكام هذا العصر ، غير أنهم تقسمتهم الازمنة المتطاولة جداً فأجادوا فى التصنيف ترتيباً وتقريباً وإن لم تكن لهم آثار من ناحية ابتداع وتجديد إذ كان غرضهم الاولى إنما هو فهم أو تفهيم عبارات السابقين إذا كانت مغلقة وبسطها إن كانت موجزة فقدموا بعلمهم هذا صنعاً جميلا وكانوا منحاً فى أيام كلها محن كابن قاسم والشنوانى والدنوشرى ويس والحفنى والصبان ، ولقد تغالى العلماء بعد هؤلاء وكتبوا تقارير على الحواشى كتقارير الانبابى المعروفة

والواقع أن هذه السلسلة فى التأليف الواحد ينوء بحملها الطالب عند ما ينتقل نظره مرات مترادفة من متن إلى شرح إلى حاشية إلى تقرير ، وإذا ضم إلى هذا ماقلماتسلم منه هذه الخطوات فى عرض التفسير والايضاح من انتقادات شائكة إما على ضعف العبارة أو خطأ الفكرة أو مجانفة الاصطلاح الفنى أو غلط الرواية المعزوة إلى غير ذلك تضاعفت الصوارف التي تصرف الذهن عن لب المقصود إلى القشور اللفظية والفلسفة التأليفية ،

وليس يخاف أن هذا اللون من التأليف وعر المسلك على المؤلف ويقتضيه مجهوداً جباراً يبذله فى الوئام بين العلم وبين الكتاب الذى يعلق عليه - فالفرق جلى بين من ينظر إلى العلم للعلم يدون فيه الفكرة الناضجة متوخياً فى تصويرها أسلوبه المفطور عليه غير ملتزم محاذاة مؤلف آخر ربما كان معتسفاً فى منهجه أو متنكباً جادة الصواب أو مشتت المادة وما إلى ذلك، وبين من ينظر إلى العلم لبيان دواخل الكتاب الذى يعلق عليه باذلا همه فى توجيه المراد من العبارة أو تكميل نقص فيها أو تمشيتها مع عبارة لكتاب آخر وأمثال هذا مما لم يحل العلم منه بطائل - فهذه المؤلفات النحوية المتراكمة التى يخطئها العد والتى لم يقيض لفن آخر غير النحو مثلها، لو أنها كلها أو معظمها تفردت فى طرقها وتوحدت فى هدفها وقلّ منها القيل والقال وأصاب فلان وأخطأ علان واعتمدت فى الخلافات النحوية على الأساليب العربية لا غير، لو كان هذا لأضفت هذه المؤلفات على النحو حلل البهجة والرواء - نعم لا نستطيع أن ننكر أن هذا الأسلوب من التأليف يربى فضيلة البحث والتمحيص في الطالب ويكون فيه حلية الاعتماد على النفس ويعوده دقة الملاحظة إلا أنه يفوت عليه العناية بتعرف أطراف المسألة وتكوين صورة لها متضامة الأجزاء، وفى ذلك نوع من التضييع للفائدة المنشودة - فان لم يكن الطالب لَقِناً حاضر البديهة قوى النظر فربما أذهب عليه اللاحق من التعليقات السابق وانتهى إلى حيث ابتدأ، ومن ثمة تدهش كثيراً من الطالب القارىء معظم كتب النحاة المتزود بما فيها من الأقاويل المستظهر للآراء فى الأوابد من المسائل النحوية حينما تعرض عليه النصوص العربية فلست بواجد منه خبرة فى التطبيق

على معلوماته المكنوزة عنده ، وذلك الداء العقام والمرض العياء

ومن المعروف أن الشعور بالنقص مبدأ الكمال ومن ابتغى العرفان سما إليه وإن طال السفر ، وإن هذه المحاولات الثقافية منذ انقضاء العصر التركى سنة ١٢٢٠ هـ فى سبيل استعادة النهضة العربية لمكللة بالنجح إن شاء الله تعالى ، لأن الثروة العلمية المخلفة لعصرنا الحاضر إنما تتطلب منا تثميرها ، والانتفاع بها موكول للرشد وحسن القوام ، ودراسة النحو الآن — فيما نعتقد ويصدقه الواقع — يسرته على طالبيه وأدنته الى راغبيه

ولو أنه تهيأ للأزهر الشريف وهو ينبوع الدين واللغة تلك الاعصر الغابرة أن يسترد نهضته مرة أخرى ويعيدها جذعة لكانت له الآخرة كما كانت له الاولى ، أبقاه الله للغة والدين معقلا ، ووقاه كيد الشانئين ، ودونك أعلام هذا العهد مرتبين بحسب سنى وفياتهم

١ — ابن قاسم العبادى : هو أحمد شهاب الدين الصباغ أخذ عن ناصر الدين اللقانى وغيره ثم اشتهر بالتحقيق . وله مصنفات فى مختلف الفنون غاية فى الدقة ، منها فى النحو حاشية على شرح ابن الناظم ، توفي بالمدينة المنورة عائداً من الحج سنة ٩٩٤ هـ[1]

٢ — الشنوانى : أبو بكر شهاب الدين ، ولد بشنوان (من المنوفية) وتلقى بالازهر عن ابن قاسم العبادى وغيره مع شغف بالاطلاع ورغبة فى حفظ الشعر وميل لتتبع مذاهب النحاة وشواهدهم ، ومن مؤلفاته النحوية حاشية (قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام ، وحاشية على شرح القطر للفاكهى سماها (هداية مجيب الندا الى شرح قطر الندى وبل الصدى)

---

(١) ترجمته في شذرات الذهب

وحاشية على شرح خالد لقواعد الاعراب لابن هشام سماها (هداية أولى الالباب إلى موصل الطلاب إلى قواعد الاعراب) توفي بالقاهرة سنة ١٠١٩ هـ [١]

٣ - الدنوشرى : هو عبد الله بن عبد الرحمن أصله من دنوشر (قرية قريبة من المحلة الكبرى) ولد بالقاهرة وتلقى عن الشمس الرملى ومحمد العلقمى وابن قاسم العبادى وغيرهم ثم ارتحل إلى بلاد الروم وأقام فيها ثم عاد إلى القاهرة وانتفع الناس به فى الازهر ، وصنف كتب قيمة فى النحو منها (حاشية) على التصريح ، وكان يقول النظم وأكثر شعره فى مسائل نحوية وهى مسرودة فى كتب النحو بكثرة توفى بالقاهرة سنة ١٠٢٥هـ [٢]

٤ ــ يس : هو يس بن زين الدين ، ولد بحمص وارتحل مع أبيه إلى مصر ، فتلقى عن الشهاب الغنيمى وغيره ، ثم برع فى علوم متنوعة وألف فيها ، ومن مصنفاته النحوية حاشية (قطر الندى وبل الصدى) لابن هشام وحاشية (مجيب الندا إلى شرح قطر الندى وبل الصدى) للفاكهى وحاشية (التصريح) لخالد ، توفى بالقاهرة سنة ١٠٦١ هـ [٣]

٥ ــ الحفنى : يوسف بن سالم ولد بحفنا (قرية بجوار بلبيس) وتلقى بالأزهر عن أخيه محمد ثم نبغ واشتهر بالأدب والشعر ، ومن أبدع مصنفاته النحوية (حاشية) على شرح الأشمونى تنافس فيها الفضلاء ، ولكن الصبان تتبعها فى حاشيته هو على الأشمونى وفند كثيراً منها توفى سنة ١١٧٨هـ [٤]

٦ ــ الصبان . هو أبو العرفان محمد بن على ، ولد بالقاهرة ونشأ فقيراً متواكلا مستجديا الخلق مع العفة ولم ينشب أن حفظ القرآن والمتون

---

(١) ترجمته فى خلاصة الاثر

(٢) ترجمته فى خلاصة الاثر

(٣) ترجمته فى خلاصة الأثر

(٤) ترجمته فى الجبرتى

واجتهد فى طلب العلوم وحضر على أشياخ العصر كالمدابغى والبليدى والأجهورى والعدوي فنبغ فى العلوم عقليها ونقليها ودرس الكتب القيمة فى حياة أشياخه واعترف العلماء بفضله في مصر والشام فالتف حوله الخلائق الكثيرون ، وصنف مؤلفات فى مختلف العلوم ومن أشهرها فى النحو (حاشيته) على الأشمونى التى سارت بها الركبان ، وتلك كلمة خاصة بها

حاشية الصبان

رسم الصبان فى مقدمة الحاشية الخطة التى سيتبعها فيها وأنها تقوم على ثلاثة عناصر : تلخيصه زبدة ما كتبه السابقون قبله على شرح الأشمونى ، وتنبيهه على ما وقع لهم من أسقام الأفهام ، وتعليقه مما فتح الله به عليه فاهتدى إليه — كما رسم اصطلاحا خاصا فى الاشارة إلى أسماء السابقين ومنهم الحفنى الذى التزم التعبير عن اسمه بلفظ (البعض)

أما العنصر الأول فالصبان فيه مواتى موفق

وأما العنصر الثاني فانه فيه عادل رائده تبيان الحقيقة العلمية مع غير الحفنى ، فانه تحامل على الحفنى فى شدة وعنف لا سجاحة معهما ، وأسرف فى التشهير به متجاوزا العرف التقليدى فى رد العلماء بعضهم على بعض حتى فى الهنات الهينات ، ولهذا كثر ماتندر به وبكتابته ، ولو أردنا إحصاء للموافق فيه الصبان الحفنى وللمخالف فيه لتبين لنا موافقته له فى النزر اليسير مما لم يستطع الصبان فيه مجابهة الصحيح المسلم به — وهاك عشرة أمثلة للنوعين : ما وافق فيه الصبان وما خالف فيه على ترتيب الكتاب مع ذكر العبارات النابية من الصبان فيما خالف فيه

مما وافق فيه الصبان الحفني

١ـ ما كتبه فى باب (النداء) على قول الأشمونى (والمثنى والمجموع) في شرح قول الناظم (وابن المعرف المنادى المفردا إلخ)

٢ ـ ما كتبه في باب (مالا ينصرف) على قول الأشمونى (مافيه من الصيغة إلخ) فى شرح قول الناظم (وإن به سمى أو بما لحق إلخ)

٣ ـ ما كتبه فى باب (مالا ينصرف) على قوله (لضعف سبب البناء إلخ) فى شرح قول الناظم (والعدل والتعريف مانعاً سحر إلخ)

٤ ـ ما كتبه فى باب (إعراب الفعل) على قوله (وبمعنى ما تأتينا فأنت تحدثنا) فى شرح قول الناظم (وبعد فا جواب نفى أوطلب إلخ)

٥ ـ ما كتبه فى باب (لو) على قوله (إذ لو قدر حصوله) فى شرح قول الناظم (لو حرف شرط فى مضى إلخ)

مما خالف فيه

١ ـ ما كتبه فى باب (مالا ينصرف) على قول الأشمونى (يعنى ما كان من الجمع إلخ) فى شرح قول الناظم (وذا اعتلال منه كالجوارى إلخ) ـ ثم قال معلقا (ولغفلة البعض إلخ)

٢ ـ ما كتبه فى باب (مالا ينصرف) على قول الأشمونى (وذكر الأخفش إلخ) فى شرح قول الناظم (ولسراويل بهذا الجمع إلخ) ـ ثم قال معلقاً مانصه (وأن تبجحه هنا مما لا ينبغى على من لولاه ماراح ولا جاء لم يتم نسأل الله العافية إلخ)

٣ ـ ما كتبه فى باب (إعراب الفعل) على قوله (ولا يطرد إلا بتجوز وتكلف) فى شرح قول الناظم (وبعد غير النفى جزما إلخ) ـ فقال معلقاً

مالفظه (وقد ظهر لك ان كان عندك أدنى تنبه أ به لم يخطىء إلا ابن أخت خالته)

٤ ـ ما كتب فى باب (العدد) على قوله (وإن ترد بالوصف المذكور إلخ) فى شرح قول الناظم (وإن ترد بعض الذى منه بنى إلخ) ـ فقال معلقا (وللبعض هنا كلام حقيق بالطرح)

٥ ـ ما كتب فى باب (التصريف) على قوله (من الحواية) فى شرح قول الناظم (كذلك همز آخر بعد ألف إلخ) ـ فقال معقبا ما حروفه (وقول البعض بفتح الحاء لايعتمد عليه وحده لكثرة تساهله كما لا يخفى على ممارس حاشيتنا) — وما كنت أبغى تسطير هذا التعقيب اللاذع فيما خالف فيه الصبان لكنه مسطور فى الحاشية، وليس على الراوى تبعة، وستقف على ماتعرف منه أن الصبان كان متجنيا فى بعض الأحيان

وأما العنصر الثالث فالصبان فيه بحق السابق المجلى فى الكثير إذ لم يسلم في القليل من التثريب واللوم فى أمور تتصل بالناحية العلمية، وبالاستطراد إلى غير النحو، وبالخطأ فى شرح الشواهد ـ وسأذكر عن كل من الثلاثة كلمة خاصة به غير مسترسل فى التفصيل

التعقيب عليه فى أمور ثلاثة

الأمر الأول وقعت منه مسائل: منها عدم معرفته اصطلاح المذهب الكوفى فى تسميته (المنصرف) بالمجرى و (غير المنصرف) بغير المجرى، وذلك أنه كتب على قول الأشمول فى بيان مذهب الفراء (الأمثلة التى تكون للأسماء والأفعال إن غلبت للأفعال فلاتجره فى المعرفة إلخ) فى شرح قول الناظم (كذاك ذو وزن يخص الفعلا إلخ) ـ أن المنفى هو الجر بالكسرة معتقدا أن الفعل (تجره) مفتوح التاء، والواقع أنه مضمومها والمنفى الصرف

الأمر الثانى من أمثلته الظاهرة ما كتبه فى باب عطف النسق عند الكلام على (أم) فقد سطر قوله ضافية فيما تستعار له الهمزة ثم انجر الحديث إلى غيرها من الأدوات

الأمر الثالث وهو خليق بالعناية لأن شواهد الأشمونى مستفيضة فى الأبواب كلها والصبان كثير الحدس والتخمين فيها ، فقد يفسر البيت بما يبدو له دون تنقيب عن أصله ، وقد يقف دون بيانه معتذراً ، وقد يردد الاحتمالات التى يستغرب التعرض لها ، ودونك مقدارا كنموذج للباقى على ترتيب الكتاب

١ – فى باب (المعرب والمبنى) مبحث المثنى شرح قول الفرزدق

كلاهما حين جد الجرى بينهما قد أقلعا وكلا أنفيهما رابى

بما يفيد أنه فى وصف فرسين ، والحقيقة أنه للتندر في ابنة جرير وبعلها

٢ – فى باب (كان وأخواتها) مبحث الأفعال الموافقة (صار) معنى وعملا ومنها (آض) شرح قول فرعان بن الأعرف

وبالمخض حتى آض جعدا عنطنطا إذا قام ساوى غارب الفحل غاربه

بما يفيد أنه فى وصف بعير ، والحقيقة أنه فى وصف (منازل) ابن الشاعر كما فى الحماسة (باب الهجاء)

٣ – فى باب (المفعول المطلق) مبحث ماحذف عامله وجوبا وكان مفيداً التشبيه شرح قول أبى كبير الهذلى

ما إن يمسُّ الأرض إلا منكب منه وحرف الساق طىَّ المحمل

بما يفيد أنه في صف فرس ، والواقع أنه وصف ربيب الشاعر (تأبط شرا)

٤ – فى باب (أبنية المصادر) مبحث ورود المصدر بزنة اسم

المفعول كتب على قول الراعى

لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

مايؤخذ منه عدم الاطلاع على أصل البيت فظن أنه كامل مخمس شذوذا ، وتبعة الخطأ على الأشمونى وقد نبهنا على ذلك فى ترجمته

٥ ـ فى باب (عطف النسق) مبحث تقدم المعطوف شرح بيتى ذي الرمة مع التهافت في الرد على البعض في فهمه وخفيت معالم الحقيقة في غبار النقاش .

٦ ـ فى باب (أسماء الأفعال) مبحث (رويد) كتب على قول الهذلى

رويدَ عليا جُدَّ ما ثدى أمهم إلينا ولكن بغضهم متماين

مانصه (لم أر من تكلم على هذا البيت) ، مع أن البيت من شواهد سيبويه جـ ١ ص ١٢٤ ، ومن شواهد شرح المفصل فى الجزء الرابع ص ٤٠

٧ ـ فى باب (مالاينصرف) منتهى الجموع شرح قول ابن ميادة

يحد وثمانى مولعا بلقاحها حتى هممن بزيغة الإرتاج

بما يفيد أن النياق طربت من الحدو ، والحقيقة أن البيت فى وصف حمار اشتد شبقه على الأتن

٨ ـ في باب (النسب) مبحث المركب الأضافى شرح قول ذى الرمة

ويسقط بينها المرئى لغوا كما ألغيت فى الدية الحُوارا

بما يضحك بعد تغيير الشطر الثانى من البيت بما لا قرابة بينه وبين الأول ، والواقع أن البيت لجرير من أبيات أسعف بها ذا الرمة فى ذمه المرئى ـ كما فى الأمالى للقالى جـ٢ ص ١٤١ والأغانى الجزء السادس عشر (ساسى)

وما قدمناه من الشواهد فانه قليل من كثير ، ويضم إليها الشواهد التى عقبنا على الأشمونى فيها ، فأن التحرى فى سلامتها من مستلزمات الكتابة عليها

وصفوة المقال أن حاشية الصبان مفيدة علمياً فحسب ، ولا يعتمد عليها في شواهد النحو ، نعم وكانت الافادة العلميـة أقوى وأقوم لو صرف الصبان النظر عن تتبع عثرات الحفنى فان النقاش يغيب فى عجاجه الأبيض الأزهر ، ورحمة الله على الجميع ، وقد بسط الجبرتى ترجمة الصبان في الجزء الثانى من تاريخه توفي وصلى عليه بالأزهر فى حفل مهيب سنة ١٢٠٦ هـ

كلمة الختام

ولأبى العباس (ثعلب) نادرة مروية أسوقها ختاما لهذا الكتاب ، عسى أن تبعث فى طالب النحو الرغبة الصادقة فى الأقبال عليه والأخذ بمحاسنه ، فانه يحز فى نفوسنا ماتراه من فتور همم الطلاب فى هذا العلم الجليل زعما منهم أن الغرض المنشود منه لايتكافأ مع ما يعانونه فى مسائله وخلافاته المذهبية والشخصية ومايتبع هذا ، وقد عزب عنهم أنه سلم الفهوم وعلم العلوم ، وفاتهم أن الطالب لايتذوق فنا من الفنون ويسير فيه على هدى وبصيرة إلا اذا كان آخذا من هذا العلم بطرف — تلك النادرة هى ماحدث به أبو بكر بن مجاهد قال : (كنت عند أبى العباس ثعلب فقال ياأبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا ، واشتغلت أنا بزيد وعمرو فليت شعرى مايكون حالى فى الآخرة ؟ فانصرفت من عنده فرأيت تلك الليلة النبى ﷺ فى المنام فقال لى : أقرىء أبا العباس عنى السلام وقل له أنت صاحب العلم المستطيل قال الروذبارى : أراد أن الكلام به يكمل والخطاب به يجمل — أو أراد أن جميع العلوم مفتقرة إليه) [١]

---

(١) راجع هذه النادرة فى ترجمة ثعلب فى النزهة ، والمعجم ، والوفيات ، والبغية

حقا أن العلوم مفتقرة إليه فى مسائلها ومحتاجة إلى مراعاته فى محاوراتها، وعلى قدر النبغ فيه يواتى الفوز بها ، والله سبحانه وتعالى أعلم

وكان إتمام هذا الكتاب في مساء يوم الخميس الموافق ١٠ من رمضان سنة ١٣٥٧ هـ و ٣ من نوفمبر سنة ١٩٣٨ م بتوفيق الله ومعونته — فأنشد إعلانا بالشكر قول سُحَيْم عبد بنى الحسحاس

الحمد لله حمداً لا انقطاع له فليس إحسانه عنا بمقطوع [١]

وصلى الله على سيدنا محمد وسائر الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين ؟

---

(١) قال ابو جعفر محمد بن حبيب (أنشد رسول الله ﷺ قول سحيم البيت فقال: أحسن وصدق ، وإن الله يشكر مثل هذا ، ولئن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة) — راجع الاصابة فى تميز الصحابة حرف السين القسم الثالث ، ونقل ذلك البغدادى في خزانة الادب فى الشاهد الرابع والتسعين

فهرس الكتاب

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع

